الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية. العدد الرابع والعشرون. السنة الثانية. يناير ٢٠٠١. الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 2 - Issue 24 - January 2001

قراءة فى الوثائق الإسرائيلية

عند ساعة الصفر!

محمد حسنين هيكل



الفنان وسؤال الهوية

فى معرض حلمى التونى

تحية إلى الفن القبطى

عز الدين نجيب

هارولد إيفانز / كلينتون فى حديث الوداع!

الطبقة العليا فى مصر.. ومحاولة لرد الاعتبار / ماجدة بركة / عاصم الدسوقى

لندا كولى / ابنة البقال.. قصة حياة مارجريت ثاتشر

بترول السعودية ومذهب ابن حنبل.. وأوناسيس! / وديع فلسطين

حسام زكريا / أزمة الموسيقى الجادة.. إبداع أم تذوق؟

عام ٢٠٠٠.. جنون البقر وجنون السياسة! / سلامة أحمد سلامة

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثانية
العدد الرابع والعشرون
يناير ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

كل المقالات المنشورة فى هذه المجلة تعبر بالضرورة عن رأى أصحابها مادامت عليها توقيعاتهم.. وعندما تكون للمجلة «وجهة نظر» تمثل سياستها فسوف يكون توقيع المقال باسمها.

محتويات العدد :

كتّاب العدد :

- **حسام زكريا** .. باحث فى العلوم اللغوية والموسيقية.
- **حسن أبو طالب**.. مساعد مدير مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام.
- **حسين عبد الله**.. أستاذ اقتصاديات البترول ووكيل سابق لوزارة البترول المصرية.
- **سلامة أحمد سلامة** .. صحفى.
- **عاصم الدسوقى**.. أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر بجامعة حلوان.
- **عز الدين نجيب**.. فنان تشكيلى.
- **كلود روسون**.. ناقد أدبى.
- **لندا كولى**.. أستاذ البحوث التاريخية بكلية لندن للاقتصاد.
- **ماجدة بركة** .. باحثة فى العلوم الاجتماعية.
- **محمد حسنين هيكل** .. صحفى.
- **محمد يوسف عدس**... باحث فى التاريخ والشئون السياسية، مقيم فى انجلترا.
- **محيى الدين اللباد**... فنان ومصمم جرافيك.
- **هارولد إيفانز**... صحفى بريطانى.
- **وديع فلسطين**... صحفى، عضو مجمعى اللغة العربية فى سوريا والأردن.

رسوم العدد للفنانين : **محمد حجى ـ سعد الدين شحاتة**

المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص.ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهمًا ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

كلمـــــة..

عـــــامـــــان..

«وجهات نظر».. هذا هو العدد الرابع والعشرون.. عامان مرا على ولادة تلك المجلة التى استقبلها قراء العربية على تنوعهم، استقبالاً تفاوت بين الترحيب والقلق.

رحبَ بها من كانوا ينتظرون - ولا نقول يفتقدون - مطبوعةً عربيةً تدققُ اللفظ والمعنى.. واختيارَ الموضوع، وتفضلُ النظر من مسافةٍ مناسبةٍ تسمح برؤيةٍ أعمق. تنظر «فى» المشهد، ولا تكتفى بالنظر «إليه». ولا تضطرُ إلى اللهاث خلف تدافع الأحداث، متأثرةً بالضرورة بلفح توهجها الآنى، فتدفع ثمنا حتميا من تحرٍ لدقةٍ مطلوبة، والتزامٍ بموضوعية واجبة.

وأشفقَ عليها - مبديا قلقه الطبيعى المشروع - أصدقاءٌ ظنوا أن الأصوات «الهادئة» قد لا تجد صدى فى ساحة امتلأت بالصخب والأصوات العالية.

وكان أن توسط «عِقد» كتابنا الكرام: محمد حسنين هيكل عميد كتاب الصحافة العربية المعاصرة، صديقا «دائما» للمجلة، وقلما يتصدر أقلامها. وفى حين رأى البعض فى ذلك حسما حتميا ومبكرا لمنافسة مفترضة مع مطبوعة جديدة، رآه القائمون على تلك المطبوعة تحديا يفرض عليهم صرامة الالتزام بمستوى مهنى «يليق».

وكمصدر لا ينضب للمعرفة الإنسانية والأصول والمنابع والمرجعيات تُعنى «وجهات نظر» بشكل رئيسى بالكتب، والتى تمثلُ جزءا عزيزا من اسمها، إلا أنها لم تقصد ولم تحاول - أن تكون مجرد نافذة تقليدية لـ «عروض الكتب» بالمفهوم أو المعنى الذى استقر طويلاً فى صحافتنا العربية. فتلك حالةٌ قد تغنى فيها مطالعة الكتاب ذاته عن قراءة عرضه. «فوجهات نظر» - وهى بحكم الاسم و«الهدف» ساحة لـ «الرؤى المتمعنة» - عندما تعرض لكتاب أو «لوثيقة»، فإنما تقدم «قراءة» للأوراق تتضمن بالضرورة رؤية القارئ (الكاتب)، والتى يتصور القائمون على تلك المجلة أن لها خصوصيتها بالضرورة، بحكم تباينٍ طبيعى فى الخبرة، واختلافٍ واردٍ فى زاوية النظر.

يفترض القائمون على تلك المجلة إذن أن «القراءة» التى تسعى إلى تقديمها هى فى التحليل النهائى «خلاصة» لمزيج متفاعلٍ حى بين «الكاتب والكتاب».. أو لعلنا قائلون بين فكر «الكاتب» وأفكار «الكتاب».

و«الكتاب» لدى هذه المجلة هو كل ما كان مخطوطًا بحبرٍ على ورق، أو ومضات تلمع على شاشة، سواء طبعه الناشرون، أو بثته الشبكات، أو احتفظ به أمناءُ السر - بحكم وظيفتهم - وثائقَ فى ملفاتٍ تحمل أختاما حمراء، وترقد - إلى حين - خلف أبوابٍ مغلقة. و«الكاتب» عند تلك المجلة، لا ننتظر منه عادة أن يقدم لنا «ما فى» الكتاب، بل نتوقع دائما أن يقدم لنا «قراءته» هو لذلك الكتاب. ويبقى أن «المقال المستطرد»، وهو نوع من المقال جديد على الصحافة العربية، قدمته «وجهات نظر» على الدوام فى مقالها الرئيس، وفى بعض من مقالاتها الأخرى. وفكرته الأساسية أنه يقف فى مكان وسط بين المقال الصحفى المقيد بحجمه المعتاد وبين الكتاب اللامحدود بطبيعته. وفكرة تقديم نموذج «المقال المستطرد» للقارئ العربى تعود إلى الأستاذ هيكل الذى رأى - ورأينا معه - «أن الومضة السريعة الآن للصورة وليست للكلمة، ذلك أن أى مهتم بالشأن العام سوف يتابع الخبر صورا متلاحقة على الشاشات المضيئة، لكنه يريد من الكلمة أن تذهب إلى ما وراء الصور، وأن تقول له على مهل ما الذى يجرى؟ ولماذا؟ وكيف؟ ومن؟ ومتى؟ وأن تروى ذلك له على مهل..».

ورغم أن «وجهات نظر» تحرص - وكذا كتابها - على أن تمتد «قراءاتهم» لتشمل «واقعا معاشا» لا يمكن إغفال أهميته أو تأثيره، إلا أنه - ويبقى للاستدراك هنا أهميته الخاصة - فبحكم طبيعتها أولاً، وبحكم دوريتها ثانيا، تستميح المجلة قراءها عذرا حين لا تعُدّ أن من واجبها تقديم ما يجرى أو حتى التعليق الآنى عليه «والذى ربما كان متعجلاً بحكم عوامل توقيتٍ حاكمة، أو متأثرا بهوى مشاعر قربٍ غالبة»، و إنما تحاول تلك المجلة أن تقف - كلما كان ذلك ممكنا - على مسافة مناسبة من الحدث تسمح لها برؤية أوسع وأعمق.. وبالتالى أكثر وضوحا.

فى «وجهات نظر» كان قرارنا المبدئى أيضا - بحكم الاسم والهدف مرة أخرى - أن ندلل على الموقف الثابت من أن الاختلاف فى الرأى لا يتطلب غير «الحوار». وأن الحوار يعنى فى تفسيره الوحيد: تبادلاً لـ «وجهات نظر». فالمتابع للمجلة من عددها الأول لابد أن يلاحظ أنه ما من «رؤية» ضلت طريقها للنشر، فى حال توافر شروط «مهنية» لا ننكر صرامتها. إذ يعتقد القائمون على تلك المجلة صادقين بأن «للنظر زوايا مختلفة»، وأن رؤية مكتملة للمشهد - مع افتراض إمكان ذلك - لا تتأتى أبدا إلا بمطالعته من مختلف الزوايا.

ففى مواجهة ما بدا مرة - أو مرات - فى المشهد الثقافى والفكرى العربى، من أن الحوار «الحقيقى» يفسح مجاله عادة لصخب الخلط والصياح والضجيج والشجار، كان ضروريا أن تكون هناك «محاولة» لإزاحة غبار كثيف تراكم على تقاليد الحوار فى ثقافة سبقت فجعلت «للكلام» علما خاصا قبل عدة قرون. ولعله كان ضروريا أيضا أن تؤكد «وجهات نظر» أن للحوار آلياته. حيث يحدد الناس - بداية - حول ماذا يتحاورون، وما هى نقاط الاتفاق. وما هى تلك التى مازالت محلاً للخلاف، ومن ثم للحوار. ثم ما هى المرجعيات المتفق عليها، وما هى التعريفات المحددة لما سيستخدمونه من مصطلحات. هنا - وهنا فقط - يبدأ تبادل «حقيقى» لوجهات النظر بين أطراف تعلم بالضرورة أن هناك «رأيا آخر» ليس لنا بالتالى أن نتبرم من الإنصات إليه، بعقل يدقق، وقلب يسمح.. واستعداد لأن نقبل منه كما نرفض.

يخرج هذا العدد من «وجهات نظر» للنور قبل أيام فقط من خروج الرئيس الأمريكى الوسيم بيل كلينتون من البيت الأبيض. وبعد عشرة سنوات كاملة من خروج مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء «الحديدية» من ١٠ داونيج ستريت. الرجل «الأمريكى» والمرأة «البريطانية»، على اختلافهما - ورغم تباين الأسباب - مثّلا نموذجا غريبا لزعامات ما بعد عصر الزعامات. فكلينتون رغم كل ما هاج وماج حوله طوال ثمانى سنوات فى الحكم، لم يترك موقعه - ربما - إلا لأن القانون لا يسمح له بفترة رئاسة ثالثة. وتاتشر التى تركت مقر الحكم دامعة فى لقطة فوتوغرافية شهيرة، مازالت الغائب الحاضر فى الساحة السياسية البريطانية.

فى هذا العدد تقدم «وجهات نظر» قصة حياة ابنة البقال التى وصلت إلى سدة الحكم فى بريطانيا صاحبة الديموقراطية «الإمبراطورية» العريقة. كما تنشر بترتيب خاص مع «التيمس» اللندنية حوارا - ربما يكون الأخير - مع الرئيس الأمريكى الذى يترك مقعده فى العشرين من هذا الشهر. والحوار أجراه واحد من أكبر الأسماء فى الصحافة العالمية هو «هارولد إيفانز» (٧٢ سنة) والذى يعد رائدا لصحافة التحقيقات المعمقة. ومدافعا عن حقوق الإنسان. والذى تمكن مع زوجته «تينا براون» من أن يغزوا الصحافة الأمريكية فى عمق دارها «نيويورك». فيصبح هو رئيسا لمجلس إدارة دار النشر الكبرى «راندوم هاوس». فى حين تولت زوجته رئاسة تحرير الـ «نيويوركر» قبل أن تنشئ مجلتها الجديدة «توك».

ولأن معرفة الحقيقة فيما كان، ضروريا لفهم ما هو راهن، ولتحسُّب ما هو قادم، فى وقت تتدافع فيه أمواج الأحداث والوقائع فى كل اتجاه باحثة عن شاطئ - ربما كان نهائيا - لتستقر عليه، يواصل هيكل «قراءته» فى هذا العدد للوثائق الإسرائيلية ليختتم إطلالة أرادها، وأردناها معه فى هذا الوقت بالذات، على خفايا كواليس صنع القرار الإسرائيلى «الإستراتيجية». والتفاعل مع الداخل و«المحيط»، والمناورة.. وطول النفس. إطلالة ربما تقدم - لمن يريد - فهما لبعض ما يجرى فى ضوء كثير مما جرى. وتُذَكِّرُ - مع ما يجرى - بما نبه له الأستاذ قبل أشهر من خطورة اتجاه بدا حريصا - بقصد أو بدونه - على أن «تظل الأمة حبيسة لإحساس الهزيمة وأسيرة لذلها حتى تقبل فى أمورها الداخلية والخارجية ما هو مقبول منها أن تقبله، دون مراجعة أو احتجاج..».

وجهات نظر



محمد حسنين هيكل

عند ساعة الصفر

"معرفة الحقيقة فيما كان، ضرورى لفهم ما هو راهن ولفهم ما هو قادم"



١ إستراتيجيات

أشهد أننى أشعر بالحرج إذ أجد نفسى للمرة الرابعة واقفاً أمام الوثائق الإسرائيلية، وهاجسى أننى ربما أثقلت على قارئٍ تفضَّل واهتم.

لكنى من ناحية أخرى أواجه الشعور بالحَرَج مُتعلِّلاً بأن «سياحة صيف» فى الوثائق الإسرائيلية و«كتابة خريف وشتاء» عنها - لم تكن وقوفاً مع الماضى وذكرياته، وإنما كانت دراسة للمستقبل واشتراطاته.

ظنِّي أن معرفة الحقيقة فيما كان، ضرورىٌ لفهم ما هو راهن ولفهم ما هو قادم. وأنه نادراً فى أى صراع ما تتاح الفرصة لطرفٍ كى يعرف كيف فكَّر خصمه ودبَّر؟ وكيف خطَّط لصراعاته وأدار مواقعها؟ - فإذا أتيحت تلك الفرصة لطرف حتى يعرف، ثم يُطابق، ثم يستخلص، ثم يُزوِّد إدراكه بما عرف وطابق واستخلص - إذن فالحَرَج من طول الوقوف مرفوع، والهواجس - أياً كانت دواعيها - غير مُبرَّرة!

وهذه بطاقة توضيح، أو اعتذار، أسوقها استغفارا عن السفر - أو السياحة - مع الوثائق الإسرائيلية، والعودة المتكررة إلى أحاديثها أربعة شهور عبرت عليها الفصول صيفاً وخريفاً وشتاء!

□

ولأن هذا هو الحديث الرابع فى قراءة الوثائق الإسرائيلية - ولأنه الحديث الواصل بروايته مباشرة إلى ذلك الموعد مع الحرب فى ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ - فقد يكون مناسباً تلخيص وتركيز الرؤى الأساسية للصراع كما بَدَت للقيادات الإسرائيلية، وكما تَبْدُت فى الوثائق الإسرائيلية، مَلَفًا بعد مَلَف، ووَرَقَةً بعد وَرَقة، وتاشيرةً بعد تاشيرة!

□ وابتداء، وتحديداً - وبقصد التوصيف الذى يضمن قدراً لازماً من توافق الآراء مع مسار الحديث، ويتوقَّى العودة إلى تكراره مرة أخرى بالتنازع مع بدهيات - فقد يمكن الاتفاق على مبدأ أن كل طرَف مُؤثِّر فى أى صراع يمارس بإرادته وفى فعله ثلاثة مستويات من السياسة :

ـ مستوى الإستراتيجية العليا - أى (وبصفة عامة وإجمالية) الهدف النهائى الذى تطلبه الإرادة ويحققه الفعل.

ـ ثم مستوى الإستراتيجية - أى الخطة أو الخطط القادرة على الطلب وتحقيقه.

ـ ثم مستوى التاكتيك - أى العمليات المباشرة التى تعتمدها الخطة أو الخطط فى حركتها نحو طلبها وتحقيقه.

□ □ □ فإذا أمكن الاتفاق على المبتدى وجرى تطبيق ذلك التوصيف ومقتضياته على الحالة الإسرائيلية فإن الصورة تظهر مبينة وشديدة الوضوح فى الوثائق :

□ على مستوى الإستراتيجية العليا - تطلب السياسة الإسرائيلية أن تستولى الدولة اليهودية بـ«الحق» الأسطورى على كل أرض فلسطين. ومُهِمَّة القيادة الإسرائيلية أن تُزوِّد «الحق» الأسطورى



بالسلاح (من الرصاصة إلى القنبلة الذرية)، وبالمال (من شراء الأراضي إلى طرد ملاكها)، وبالنفوذ الدولي (من برلين وموسكو إلى لندن ونيويورك).

والدولة اليهودية بعد أن تقوم سوف تفهم بعُمق انه وإن كانت حدودها الرسمية هي كامل أرض إسرائيل (كل فلسطين)، فإن حدودها الفعلية لا بد أن تنتشر في كل منطقة الشام التاريخية، وإمكاناتها الإنسانية والثقافية، ومواردها الطبيعية والاقتصادية. وبدون ذلك الانتشار فإن الدولة اليهودية تصبح قلعة مُحاصَرة وليست مشروعاً تتأكد حيويته بانتشار قوته ونفاذ سلطانه.

□ على مستوى الإستراتيجية فإن مطالب الإستراتيجية العليا لدولة إسرائيل تقتضي عزل الشام التاريخي عن الواديين الكبيرين في الشرق والغرب : في الشرق وادى الفرات (العراق) وفي الغرب وادى النيل (مصر) - وذلك لأنه في هذين الواديين تُوجَد إمكانيات كبيرة، وعُمق واسع وعريض يمثل امتدادا للشام فسيحاً بالجغرافيا وبالتاريخ معاً، ومَدَداً للقوة يصعب أن ينضب.

وكان نزوع العراق ومصر إلى الشام هو مُحَرِّك تاريخ المنطقة في مراحل استقلالها، على أنه في بعض الأحيان تَحَوَّلَ النزوع من وادى الفرات أو وادى النيل إلى نزاع بين الواديين، مع ملاحظة أن الشام لم يكن فراغاً بين الواديين - وإنما كان الشام طَرَفاً حَيّاً نشيطاً وفاعلاً يميل إلى هذه الناحية أو يميل إلى تلك، ومع ميله على هذه الناحية أو تلك تتحرك موازين القوة في المنطقة.

وفي العصور الحديثة - وفي واقع الأمر منذ عهد «محمد على» - فإن نزوع مصر نحو الشام زاد - كما أن ميل الشام إلى مصر لاقاه، وكانت النتيجة فَوَراناً في الإقليم شديد تواصلت تاثيراته من أيام «محمد على» إلى أيام «جمال عبد الناصر».

وعلى طول هذه المساحة من الزمن فإن كل قوة طلبت السيطرة على المنطقة أو فيها - اعتمدت أو كان عليها أن تُعتَمِد إستراتيجية عزل الشام عن مصر أو عزل مصر عن الشام.

وبما أن المطلوب كان الحصول على منطقة الشام صحيحة وسليمة فإن الوسيلة الإستراتيجية المثالية - حَدَّدَت نفسها في مطلب عزل مصر، فإذا استحال عزلها تَوَجَّبَ ضربها.

وكان صميم المشكلة أن حركة مصر في حالة يقظتها عائدة باستمرار إلى الشام، فمن هناك تلقت الحضارة المصرية بعد انطلاقاتها الفرعونية الأولى كل المؤثرات التي صاغت شخصيتها في التاريخ الوسيط والحديث، فمن ناحية الشام أو عن طريقه جاءت إلى مصر الديانتان الرئيسيتان فيها : المسيحية والإسلام، ومن ناحيته جاءتها لغتها العربية بكل حمولاتها الثقافية والحضارية - الشرعية والقانونية - الأدبية والفنية.

ثم إن هناك في الشام تَرَكَّزَت ضرورات الأمن الوطني والقومي لمصر، فتلك هي البَوَّابة التي جاءت منها الإمبراطوريات الغازية من «قمبيز» الفارسي إلى «سليم الثاني «العثماني» إلى «فيكتوريا» البريطانية - ومنها جاءت كل الحملات العسكرية مُتَنَوِّعة شعاراتها وأعلامها!

هناك أيضاً أنه في الشام وحوله تُرامت المصالح التجارية الكبرى، سواء تلك المسافرة جيئةً وذهاباً على طريق الحرير من أقصى الشرق إلى حَلَب - أو تلك المسافرة جيئةً وذهاباً على طريق السويس من أقصى الشمال إلى بومباى - وكانت تلك هي طُرُق التجارة القديمة، وزاد عليها في الأزمنة الحديثة تَفَجُّر البترول، وكذلك تَحَوَّلت المنطقة إلى حُقول لإنتاجه أو مَمَرَّات ومَعابر لنقله.

□ وعلى مستوى التاكتيك الإسرائيلي - أي مستوى العمليات - وترتيباً على كل ما سَبَق فإن الجبهة المصرية في سيناء أصبح مُحَتَّماً عليها أن تكون الجبهة التي تتلقى أول الضربات وأوجع الضربات : حتى تتوقى الخطر وتخاف، أو تُصاب بالعاهة إذا هي أقدمت، أو تُعَرِّض نفسها للقتل إذا أصَرَّت وعانَدَت.

والشاهد أن ذلك كان الأساس الذي بني عليه الجنرال «أهارون ياريف» مدير المخابرات العسكرية الإسرائيلية صيغته البليغة في شأن أي عَمَل عسكري إسرائيلي مُحتَمَل :

في الشام : صَيْدٌ بالشَبَكة لا تُقتَل ولا تُسيل دَماً.

في مصر : صَيْدٌ بالـ«هاربون» Harpoon (الرُمح المقذوف) : يَجرَح أو يَقتُل!

□

ويمكن القول إنه لعدة قرون فإن حروب السيطرة ضدّ شعوب آسيا وأفريقيا وغيرها كانت ولا تزال تجملها صيغة تلخص المطلوب بأنه : الفصل بين الجغرافيا والتاريخ - أي الفصل بين الأرض والبَشَر داخل الوطن المستهدَف بالحرب - فإذا وَقَعَ ذلك فإن كل الأهداف تَتَحقَّق لطلابها تلقائياً - واحداً بعد الآخر.

□ لأنه إذا انفصلت الأرض (الجغرافيا) عن التاريخ سقطت مناعتها. فإذا كانت أهميتها الإستراتيجية سابقة على غيرها من المزايا - فُتِحَت لاحتلال الجيوش. وإذا سبقت أهميتها الاقتصادية - انفتحت لهجرة المستوطنين أو لسيطرة البنوك.

□ ثم إن الناس (التاريخ) إذا انفصلوا عن الجغرافيا سقطوا في الضياع - وتَمَّ بسهولة إخضاعهم بالجيوش، أو جَرى - ولو بصعوبة - تطويعهم بأنواع من الاستلاب - أهمها استلاب الهُوِيَّة.

وكانت تلك بالضبط - وكما يشهد كل مَلَفٍ وكل ورقة وكل سطر - فيما أتيح لغيري - ولي - من الوثائق الإسرائيلية - هي إستراتيجية الدولة اليهودية :

● الفصل بين الجغرافيا والتاريخ داخل فلسطين - لتخلو الأرض ويَتَشَرَّد السكان - وتثبت قوة الاحتلال الجديد، ويَهتَز رباط الهُوِيَّة القديمة.

● والفصل بين الجغرافيا والتاريخ حول فلسطين - لينقسم العالم العربي على تباعُد قارتين : آسيا وأفريقيا - ويغيب التاريخ مَنفِياً عن الوَعي!

ولعل ذلك كان بالضبط - أيضاً - هو المنطق الذي أملى على إسرائيل سياسة الصيد بالشَبَكة في الشام، والصيد بالـ«هاربون» Harpoonn (الرُمح المقذوف) في مصر.

هناك - في الشام - لم تكن ضرورات الفصل بين الجغرافيا والتاريخ - تقتضي قتلاً ودَماً - وإنما إعادة رسم خريطة (طرد في فلسطين وانتشار حولها).

وهنا - في مصر - كانت ضرورات الفصل بين الأرض والناس - تقتضي قتلاً ودَماً - لأنه مع استحالة رسم خرائط جديدة، فإن خطوط الحدود ينبغي تثبيتها بحيث لا يكون وراء خطوط الحدود خروج للاثنين : لا للمكان (الجغرافيا) ولا للبَشَر (التاريخ).

وربما أن الفشل في الفصل بين الجغرافيا والتاريخ في الحالة العربية هو الذي جَعَلَ نتائج الحرب في يونيو سنة ١٩٦٧ - نجاحاً كبيراً دون أن يكون انتصارا كبيراً - وبكل الفوارق الواسعة بين النجاح (success) وبين النصر (victory).

ذلك أن طَرَفاً من الأطراف يستطيع أن ينجح في «فعل» الحرب - لكن ذلك لا يضمن له «معنى» النصر.

لأن «النجاح» شيء و«النصر» شيء آخر، وليس من الضروري أن يتطابق الشيئان!

ولعل المسئول الأول عن الفشل الإسرائيلي في الفصل بين الجغرافيا والتاريخ بما أدى إلى تنازل «الفعل» الإسرائيلي من «نصر» إلى «نجاح» سنة ١٩٦٧ - هو حماقة القوة وغرورها مما اعترى العسكريين الإسرائيليين في ذروة معارك سنة ١٩٦٧ - فإذا هم ينسون الإستراتيجية العليا للدولة اليهودية كما وضعها المؤسسون الأول (وعلى رأسهم «دافيد بن جوريون») - وينساقون وراء خيالات زَيَّنها لهم وأغراهم بها «نجاح» بدا حجمه أكبر مما تَوَقَّعوا وقَدَّروا وقاتلوا.

على أن قراءة واستقراء الوثائق الإسرائيلية - من يناير إلى يونيو ١٩٦٧ - قادرة أكثر على إيضاح وجلاء ذلك الفارق الهائل بين «النجاح» و«النصر»!



٢ الطعم!

من الحقائق التي تؤكدها قراءة الوثائق الإسرائيلية - إذا كانت هذه الحقائق تحتاج إلى تأكيد جديد - أن السياسة من ألفها إلى يائها عملية إنسانية، يفكر فيها بَشَر، ويُخطط لها بَشَر، ويديرها بَشَر. وعلى هذا الأساس فكل سياسة مهما كانت دقة تصميمها، ومهما كانت كفاءة الوسائل التي توضع تحت تصرفها، ومهما كان وضوح وجرأة المطلوب منها - تبقى مكشوفة ومُعَرَّضة لكل ما يعتري الفعل البَشَري من قوة وضَعف، ومن هِمَّة وقُصور، ومن حَذر وجُموح.

ومن ذلك ما تكشفه الوثائق الإسرائيلية من مفارقات في شأن موعد إسرائيل مع الحرب في صيف سنة ١٩٦٧.

والمفارقة الأكبر أن عشرات العوامل الموضوعية كانت تشير وتُوَجِّه وتدفع إلى معركة مع مصر في ذلك الموعد (من صيف سنة ١٩٦٧) - لكنه عندما اقترب الموعد بان شيء من التَرَدُّد في اللحظة الأخيرة قبل اتخاذ القرار.

والتفسير المنطقي لهذه المفارقة هو «إنسانية» الحرب، وسببه قيام البَشَر على كل أمورها وأولها اتخاذ القرار. ذلك أن أي بَشَر - أي إنسان - قد يحزم أمره على شيء - حتى الحرب - ويمضي فيه إلى قرب آخر الشوط. لكنه عندما يقترب من اللحظة الأخيرة يُعاود التفكير لأن الخطر اقترب، ولأن العواقب وشيكة، ولأن احتمال المفاجأة حال، ولأن ظنون اللحظة الأخيرة تُزوره هواجسها لتسأله : إذا لم تكن لديه وسائل أخرى غير ما انتوى - تكون أقل مخاطرة وتكلفة - وكافية لأن تُحقِّق له ما يريد ؟

يحدث ذلك للبَشَر العاديين وغير العاديين، بمعنى أن التصميم المسبق، والتخطيط الموثوق فيه لا يمنع أي قيادة مسئولة أن تعاود النظر فيما صَمَّمت عليه وخَطَّطت له قبل أن تجيء القفزة الأخيرة - خصوصاً إذا كانت هذه القفزة الأخيرة واسعة وعبر بحور من النار، قد يسهل إشعالها بعود ثقاب واحد، ولكن قد يصعب التَحَكُّم فيها إذا لم تكن السيطرة عليها مُحكَمة ومُؤَمَّنة حتى ضدّ هَبَّة ريح من اتجاه خاطئ إلى اتجاه خَطر!

□

وفي ربيع سنة ١٩٦٧ - ما بين مارس إلى مايو - كانت الخطة الإسرائيلية لتوجيه ضربة قوية إلى مصر بالرُمح المقذوف (harpoon) شبه جاهزة، وكان الطُعم الذي تَقَرَّرَ استعماله لاستدراج «الصَيْد الكبير» بعيداً عن مكامن الصخر - يَسبح فعلاً في الماء، أو هو على وشك السباحة!

كانت أسباب الملاءمة قد رجحت أن يكون الطُعم الذي يستدرج مصر خارج مكامن الصخر - طُعماً سورياً. وهذه الأسباب كما يلي :

- أن هجوماً مباشراً على مصر لا بد أن تكون له ذريعة مقبولة سياسياً - على المستوى الدولي. ومصر فيما يبدو من تصرفاتها على حدودها حريصة تلك الأيام - على الأقل - بسبب وجود جزء من قواتها في اليمن.

- أن الأحوال العامة في سوريا مُتَهَيِّجة : سواء بسبب شعلة الحماسة المُتَوَقِّدة تقليدياً في دمشق، أو بسبب اندفاعات عناصر مُعَيَّنة في القيادة السورية بدت وقتها مستعدة للمغامرة، وضمنها من يعرف إلى أين يقصد ؟ وضمنها من يسوقه التيار إلى حيث لا يعرف وربما لا يريد.

- أن طُعماً سورياً ينسجم تمام الانسجام مع مطلب إبعاد مصر عن الشام وحصرها في أفريقيا : وراء سيناء أو وراء قناة السويس. ذلك أنه إذا تَرَدَّدَت مصر في ابتلاع طُعم سوري تُبدي عجزها، وإذا ابتلعته وحاولت أن تهرب به تُبدي ضعفها، وإذا ابتلعته ولم تهرب ووَصَلَ الرُمح المقذوف إلى جسدها فجرح أو قتل فذلك هو المطلوب لإقناع الشام أنه ليس لها أن تتوقع من مصر نجدة أو تنتظر سَنَداً - أو أي شيء!

وكذلك فإنه في أوائل شهر أبريل ١٩٦٧ - كان الطُعم السوري جاهزاً - سَمَكة حَيَّة تلمع قشرتها في مياه بحيرة «طبرية»!

□

كانت بحيرة «طبرية» والمياه المنحَدِرة



الفشل الإسرائيلي
في الفصل بين الجغرافيا
والتاريخ في الحالة العربية
هو الذي جعل نتائج الحرب في يونيو
سنة ١٩٦٧، نجاحا كبيرا دون
أن يكون انتصارا كبيرا

عند ساعة الصفر

إليها من المرتفعات السورية واللبنانية مصدر توتُّر جاهز للتصعيد على مستوى المنطقة وحسب الطلب!

ويستشهد الأستاذ «آفى شلايم» فى كتابه الهام عن علاقات إسرائيل بالعالم العربى - بوثيقة واضحة الدلالة منسوبة إلى الجنرال «إسرائيل ليور» وهو وقتها المستشار العسكرى لرئيس الوزراء الإسرائيلى «ليفى أشكول» - وَرَدَ فيها قول الجنرال «ليور» (صفحة ٢٢٩) بما نصه:

«لم يكن لدىَّ شك أن ما يجرى على الجبهة السورية من أفعال وردود أفعال سوف يؤدى بالمنطقة إلى الحرب الشاملة فى أى وقت!»

ويضيف الجنرال «ليور»:

«كانت هناك بالفعل عند شمال إسرائيل حرب يقودها رئيس الأركان الجنرال «إسحاق رابين» ويساعده فيها قائد الجبهة الشمالية الجنرال «دافيد إليعازر». وكان «رابين» و«إليعازر» لا يكُفَّان عن تحريك عمليات قتالية حول منابع المياه. وفى طلب السيطرة على المناطق المنزوعة السلاح. وقد أصبحت هذه العمليات جزءاً من حياة كل يوم فى تلك المنطقة».

ويضيف «شلايم» إلى هذه الشهادة تعزيزاً لها على لسان الجنرال «موشى ديان» ضمن حديث لصحيفة «يديعوت أهارونوت» (صفحة ٢٣٥) حيث يقول «ديان» ما نصه:

«لم يكن السوريون مسئولين بصفة عامة عن نشوب العمليات فى الشمال. نحن كنا نستفز السوريين عَمْداً. وفى ٨٠٪ من عمليات القتال كنا نحن الذين بدأنا. كان أسلوبنا فى استفزازهم عندما نريد سَهْلاً. فى العادة كنا ندفع بجَرَّار يحرث أرضاً، أى أرض فى المنطقة المنزوعة السلاح. عارفين مقدماً أن السوريين سوف يطلقون النار على الجَرَّار. وعندما كان رد الفعل السورى يتأخر كنا نأمر قائد الجَرَّار أن يتقدم أكثر نحو المواقع السورية حتى يصبح الاستفزاز إثارة لا تُحتَمَل. وعلى أى حال فإنه إذا تأخر السوريون فى إطلاق النار كنا نحن نُطلق. وعندما يَردُّون - مُضطرين! - تتدخل المدفعية الثقيلة والطيران لتوسيع نطاق المعارك إلى الحَدِّ الذى يُلائم أهدافنا السياسية!»

□

يوم ٧ أبريل سَبَحَ الطُّعم السورى - عبر بحيرة «طبرية» - بعيداً فى المياه الواسعة الزرقاء!

فى الصباح الباكر من ذلك اليوم اندفع جَرَّار إسرائيلى إلى الحرث فى المنطقة المنزوعة السلاح فى مواجهة مستعمرة «هاأون» على الشواطئ الشرقية لبحيرة «طبرية». ولم تَرُدْ المواقع السورية فى البداية، وتَقَدَّم الجَرَّار الإسرائيلى أكثر. واطلقت المواقع السورية دفعة طلقات من مدفع رشاش واحد، وصَدَرَ الأمر (من قائد الجبهة الشمالية الجنرال «دافيد إليعازر» وبالتنسيق مع رئيس الأركان «إسحاق رابين») - بأن تتحرك وحدة مدرعات وأن تقوم دباباتها بتدمير الموقع السورى الذى أطلق النار (وكان هذا الموقع بشهادة الجنرال «ليور» قد سَكَتَ قبلها بنصف ساعة!)

وعندما تَقَدَّمَت الدبابات الإسرائيلية لدَكّ الموقع السورى - فإن مواقع أخرى قريبة منه حاولت منع الدبابات الإسرائيلية من الوصول إليه. وفى نفس اللحظة اتصل الجنرال «إسحاق رابين» رئيس الأركان، برئيس الوزراء «ليفى أشكول» يطلب إذنه باستعمال الطيران الإسرائيلى لمعاونة الدبابات. وحين ظهرت الطائرات الإسرائيلية وبدأت تضرب المواقع السورية فإن الطيران السورى حاول التصدى لها، ولكن الطيران الإسرائيلى كان مستعداً بكمين جوى تمكن فى دقائق من إسقاط ست مقاتلات سورية وَقَعَ حطام طائرتين منها فى وسط العاصمة السورية التى لا تبعد عن الجبهة بأكثر من أربعين كيلومترا على الأرض!

وارتفعت الحرارة إلى قرب درجة الحُمَّى وبَلَغَت حَدُّ الخطر عندما لحق بمذبَحَة الطائرات سيلٌ من التهديدات الإسرائيلية مُتَّجِه نحو دمشق. وفى تلك الفترة - أوائل مايو - كانت معظم التهديدات خارجة من قيادة الجبهة الشمالية. والصوت الذى يُزيد فيها ويُعيد حتى بدون مناسبة هو الجنرال «دافيد إليعازر» قائد الجبهة الشمالية. لكنه بعد أيام انتقل صوت النذير من قيادة الجبهة الشمالية إلى رئاسة الوزارة فى تل أبيب وبصوت رئيس الوزراء «ليفى أشكول»!

□

ويوم ٩ مايو (وطبقاً للمَراجع الإسرائيلية العلنية وليس الوثائق السِّرية فقط) كانت تصريحات «ليفى أشكول» بمثابة ضوء أخضر سياسى أعطاه رئيس الوزراء لقادته العسكريين قائلاً فى تصريح صحفى نُشِرَ ذلك اليوم: «إننا قد نحتاج فى المستقبل القريب إلى تلقين السوريين درساً أقسى من الدرس الذى تلقوه قبل شهر» (إسقاط ٦ طائرات سورية يوم ٧ أبريل).

ثم دخل رئيس الأركان «إسحاق رابين» إلى الحلبة ووَصَل بصوت التهديد إلى الذروة فى الفترة ما بين ٩ إلى ١٢ مايو مُنذراً بأن «جيش الدفاع على استعداد لاحتلال العاصمة السورية دمشق وإسقاط النظام فيها عقاباً له على تشجيعه لعمليات تخريبية تجرى من الأراضى السورية ضدَّ المستوطنات الإسرائيلية شمال إسرائيل»!

وفى يوم ١٣ مايو عادَ «أشكول» بقوة - لتعزيز إنذار رئيس أركان حربه، فأدلى بتصريحات نقلتها كل الصحف الإسرائيلية فى ذلك اليوم قال فيها: «على الجماعة الحاكمة فى دمشق أن تعرف أن خطوط الحدود الدولية لا تعطى حصانة لطَرَف يَتصَوَّر أنه آمنٌ وراءها. إن جيش الدفاع جاهزٌ فَوْر صدور الأمر له باقتحام الحدود الدولية و دخول دمشق نفسها، ونقل درس ٧ أبريل من الجو إلى الأرض، وإسقاط النظام الحاكم وإزاحة بقاياه تماماً».

وبشهادة الجنرال «ديان» فقد كانت هناك «تحركات شملت مجموعات كتائب وألوية راحت تقترب من الحدود السورية، ثم تلتف عائدة. وكانت هناك تعزيزات للجبهة السورية متواصلة، بعضها أقام فى الجبهة، وبعضها زارها وعاد!».

وضمن هذه الأجواء وَصَلَت التحذيرات السوفيتية إلى القاهرة بوجود خطر وحشود عسكرية إسرائيلية ضِدَّ دمشق. وكانت تلك هى التحذيرات التى أبلغها رئيس الوزراء السوفيتى «أليكسى كوسيجين» لرئيس مجلس الأمة المصرى «أنور السادات»، الذى مَرَّ بموسكو ذاهباً إلى كوريا الشمالية وعائداً منها.

هكذا صَدَرَ الأمر إلى الفريق «محمد فوزى» رئيس أركان حرب الجيش المصرى بالتَّوَجُّه فَوْراً إلى دمشق يوم ١٣ مايو فى مُهِمَّة بحث وتقصِّى. وعندما عاد الفريق «محمد فوزى» فى ساعة متأخرة من مساء نفس اليوم يقول إنه «على حَدِّ ما سمع ورأى لا توجد الآن حُشود على الحدود السورية» - لم يكن هناك فى القاهرة من يستطيع تجاهُل تدافُع الحوادث على الجبهة السورية. ولا تجاهُل سَيْل التهديدات التى يُوَجِّهها قادة إسرائيل إليها كل يوم وكل ساعة وتأثيرها على الوضع العربى العام.

وحتى عندما وَصَلَت رسالة الملك «حسين» إلى «جمال عبد الناصر» عبر الفريق «عبد المنعم رياض»، فإن هذه الرسالة لم تستطع أن تُغَيِّر شيئاً. ومع أن الرسالة جاء فيها أن «الملك لديه ما يدعوه لليقين بأن هناك فخاً يُدَبَّر للجمهورية العربية المتحدة وللرئيس جمال عبد الناصر. وأن هناك محاولة لتوريطهم فى حرب مُسَلَّحة لا تُلائمهم ظروفها. وأن «الجماعة» فى سوريا مُختَرَقون وبعضهم مُتواطئ مع جهات لديها خططها. والفكرة الأساسية فى هذه الخطط الآن هى إشعال الموقف على الجبهة السورية بما يفرض على مصر أن تقوم بأى عمل لنجدة سوريا. وهنا تصبح مصر هى الهَدَف ويجرى ضربها...» - فإن هذه الرسالة عندما قُرِئت فى القاهرة كان الوقت مُتأخراً جداً. لأن الجيش المصرى بدأ حركته بالفعل داخلاً بقوات كثيفة إلى الجبهة عبر سيناء!





ديان:

«نحن كنا نستفز السوريين عمداً.

وفى ٨٠٪ من عمليات القتال

كنا نحن الذين بدأنا. كان

أسلوبنا فى استفزازهم

عندما نريد سهلاً»

٣ خطط

إن الأسباب التى دَعَت إلى دخول حشود قوات الجيش المصرى فى سيناء لم تكن سراً مفاجئاً لإسرائيل - لا للقيادة السياسية فيها مُمَثَّلة فى الوزارة برئاسة «ليفى أشكول» - ولا للمؤسسة العسكرية هناك كما تمثلها هيئة الأركان بقيادة «إسحاق رابين».

ويشير تقرير للجنرال «إسرائيل ليور» مدير المكتب العسكرى لرئيس الوزراء الإسرائيلى مُسَجَّل فى الملفات بتاريخ ١٦ مايو ١٩٦٧ إلى أنه «لم يكن فى مقدور القيادة المصرية أن ترى الأجواء السياسية المسيطرة على دمشق والمحيطة بسوريا ثم تقف ساكتة. ولو أنها فعلت ذلك لفقدت ليس فقط دورها القيادى فى العالم العربى، وإنما مصداقيتها كدولة مُؤثرة فى هذا العالم العربى. إن القيادة المصرية كانت تحت ضغوط لا تُحتَمَل، وقد اشتدت هذه الضغوط منذ العمل العسكرى الذى قمنا به (إسرائيل) على منطقة «السموع» فى الأردن. وقد كثف خصوم مصر السياسيون فى الأردن والسعودية حملاتهم ضِدَّ مصر لما اعتبروه تقاعُساً من جانبها عن مساعدة الجيش الأردنى فى «السموع». وقد وَصَلَ هؤلاء الخصوم إلى حَدّ اتهام مصر بـ«الخوف والجُبْن والتوارى وراء قوات الطوارئ فى سيناء». وأمام هذه الحملات فقد كان من المستحيل سياسياً وإنسانياً على القيادة

المصرية أن تقف موقف المتفرِّج حيال ما يجرى حول سوريا!».

وقد كانت استجابة مصر على هذا النحو لأحداث سوريا هي بالضبط ما أرادته إسرائيل وما بنت عليه خططها لموعدها مع الحرب في صيف ١٩٦٧، وما راحت من أجله تعد الطُعم، وما جَهَّزَت لتنفيذه برمحها المقذوف (Harpoon) ينطلق مُوَجَّهاً إلى مصر فيُصيب. يَجرَح على الأقل، أو يَقتُل إذا غاصَ سِنُّه في موضع للقتل!

□

ومع ذلك فإن الطبيعة الإنسانية لقرار الحرب راحت في تلك اللحظة تُمارس دورها فإذا إسرائيل تَتَرَدَّد.

ولم يكن التَّرَدُّد «خوفاً» من الحشود العسكرية المصرية في سيناء لأسباب يسهل حسابها :

ــ فهذه الحشود لم تكن عَمَلاً مصرياً «مُفاجِئاً» ــ وإنما عَمَلاً مُتَوَقَّعاً (وفى الغالب مطلوباً).

ــ ثم إن هذه الحشود لم يكن لديها ــ فيما تعرف إسرائيل ــ سلاح جديد قادر على قلب الموازين.

ــ وأخيراً فإن «نِيَّة» هذه الحشود بدت سياسية فى طابعها العام أكثر منها عسكرية، ذلك أن طريقة دفعها إلى سيناء والإعلان الواسع عن تحركاتها لم يدع لأحد مجالاً للشك فى أن الهَدَف كان «التحذير» وليس «الردع».

ومن باب ما هو «مُؤَكَّد»، وليس من باب «الظن» فإن هيئة المخابرات العسكرية الإسرائيلية («آمان») بعثت إلى مكتب رئيس الوزراء صباح يوم ١٥ مايو ١٩٦٧ (أى بعد تَدَفُّق القوات المصرية إلى سيناء) ــ تقريراً ــ تحفظه الملفات ــ عن تقديرها لـ«نوايا مصر» جاء فيه بالنص :

«لا يخالجنا شك فى أن هذه الحشود الضخمة ليست إجراء عسكرياً على نحو ما عرفنا عن العملية «روتم» سنة ١٩٦٠.

....

....

[وكانت هذه إشارة إلى دخول سابق لقوات كثيفة من الجيش المصرى إلى سيناء سراً سنة ١٩٦٠، وكان دخولها فى ظروف غارة إسرائيلية على منطقة «التوافيق» فى سوريا، وقد بلغ حجم القوات المصرية التى دَخَلَت سيناء سراً قرابة فرقتين (أكثر من أربعين ألف مُقاتل) ــ ولم تشعر إسرائيل بدخولها إلا عندما قامت الولايات المتحدة بإخطارها بناء على معلومات لديها بأنها «نائمة فى العَسَل»! لا تعرف ما يجرى على حدودها.»]

....

....

ويستطرد تقرير «آمان» يوم ١٥ مايو ١٩٦٧، وهو بتوقيع الجنرال «أهارون ياريف»، ليقول : «هذه المرة تختلف الحشود المصرية عن المرة السابقة. وهذه المرة لا يخالجنا شك من أى نوع فى أن هذه الحشود الحالية سوف تُعاد إلى مواقعها الأصلية غرب قناة السويس إذا بدا أن حدة التوتر على الحدود الشمالية مع سوريا تَخِف».

ومن الملاحظ أن هذا التقرير الذى كتبته هيئة المخابرات العسكرية الإسرائيلية «آمان» يحمل على هامشه تعليقاً بتوقيع الجنرال «إسحاق رابين» رئيس هيئة أركان الحرب يقول فيه أن «هذه الحشود المصرية ليست مُفاجِئة لى».

وإذن فإن إسرائيل كانت تعرف «بالحساب»، لكنها لبعض الوقت تَرَدَّدَت بما هو «إنسانى» ــ يَتَصَرَّف به البَشَر ويصنعه البَشَر!

□

وطبقاً لأوراق الجنرال «إسرائيل ليور» مدير المكتب العسكرى لرئيس الوزراء ــ وهى من أهم الوثائق عن وقائع الأيام التالية لظهور الحشود المصرية فى سيناء وحتى قرار إغلاق خليج «العقبة» ــ فإن الصورة من مكتب «ليفى أشكول» بدت على النحو التالى:

يوم ١٥ مايو عُقِدَ اجتماع لمجلس الوزراء على هيئة مجلس أمن قومى وتَقَرَّرَ:

١ ــ أن العدو الرئيسى هو مصر، وتوجيه ضربة قوية و«مُهينة» ضد هذا العَدُو الرئيسى هو هدف «عمليات الردع» التى يَتَوَجَّب أن تقوم بها إسرائيل ضد «الاستفزازات المصرية»!

٢ ــ ثُمَّ بحث وإقرار خطتين بديلتين للعمل العسكرى الإسرائيلى ضد مصر :

● الخطة الأولى (واسمها الرمزى «آتزمون») وهى تقضى بقيام القوات الإسرائيلية باحتلال قطاع غزة، والالتفاف داخل الحدود المصرية والاستيلاء على العريش وقطعها (هى ورفح)، ثم رَدّ وتدمير أى هَجَمات مُضادة تقوم بها القوات المصرية فى هذا القطاع.

● والخطة الثانية (واسمها الرمزى «كاردوم») وهى تقضى بقيام القوات الإسرائيلية بتوسيع هجومها باحتلال شمال سيناء حتى «جبل لبنى»، والتمسك بهذه المناطق (غزة والعريش وشمال سيناء حتى جبل لبنى) حتى يتغير الموقف المصرى.

٣ ــ تُقَرِّرَ تنفيذ الخطة الأولى واعتبارها كافية لتوجيه ضربة قاسية إلى الجيش المصرى ــ وإلى هيبة السياسة المصرية وإظهار عجزها عن حماية أرض فلسطينية (قطاع غزة) تحت مسئوليتها ــ وعجزها عن حماية حدودها نفسها (رغم كل دعاواها بالقُدرة على حماية الأمة العربية).

....

....

[ويستحق الإشارة هنا أن المخابرات المصرية تَلَقَّت معلومات عن ثلاث خطط إسرائيلية مُعتَمَدَة للتنفيذ :

ــ خطة لاحتلال قطاع غزة (وتُعَزِّز الوثائق الإسرائيلية صحة هذه المعلومات).

ــ وخطة للتَوَغُّل فى سيناء إلى منطقة «جبل لبنى»، وكانت المعلومات التى وَصَلَت إلى المخابرات المصرية تشير إلى أن التَوَغُّل الإسرائيلى سوف يصل إلى «شرم الشيخ» (وتُعَزِّز الوثائق الإسرائيلية صِحَّة هذه المعلومات أيضاً).

ــ ثم كانت هناك خطة ثالثة وَصَلَت إلى المخابرات المصرية من نيويورك، وكان مُؤدى هذه الخطة أن إسرائيل «جَهَّزَت» لعملية تستهدف احتلال منطقة «السد العالى»، وقطع مَوارد الكهرباء ــ على الأقل ــ وتبديد كميات من مياه النيل المحتَجَزة وراءه عن طريق تصريفها فى مفيض «توشكى» إذا أمكن، إلى جانب نسف بعض المنشآت. وكانت تلك المعلومات هى السبب فى وصول تعزيزات بَرِّية كبيرة إلى مواقع السد العالى (ما بين ٢٥ إلى ٣٠ مايو) وتكثيف بطاريات الصواريخ التى تحميه بما يكفل تحويل المنطقة إلى «ميدان قتل» مُؤَكَّد لأية قوات إسرائيلية تحاول العمل فيه أو بقربه (ولم يظهر فيما رأيت من الوثائق الإسرائيلية ما يُشير إلى صَحَّة المعلومات عن هذه الخطة التى وَصَلَت إلى القاهرة من نيويورك وعن مصدر أعتبر فى ذلك الوقت مَوثوقاً به!)]

....

....

وطبقاً لمحضر نفس الاجتماع لمجلس الوزراء على هيئة مجلس أمن قومى وتكملة للقرارات السابقة :

٤ ــ على الجبهة السورية هناك تصريح بعمليات دفاعية عند الضرورة، وتكون محصورة فى الحدود اللازمة لا تَتَوَسَّع فيها!

(وكان ذلك غريباً بالنظر إلى أن الجبهة السورية كانت فى تلك الظروف بؤرة القلاقل التى تُصاعَدَت معها الأزمة كلها).

٥ ــ على الجبهة الأردنية حَذَرٌ وتَرَقُّبٌ دون التَوَرُّط فى أية اشتباكات إلا بإذن خاص من وزير الدفاع (وهو نفسه حتى تلك اللحظة رئيس الوزراء «ليفى أشكول»!)





هيئة المخابرات العسكرية الإسرائيلية («آمان») إلى مكتب رئيس الوزراء صباح يوم ١٥ مايو ١٩٦٧: «لا يخالجنا شك فى أن هذه الحشود المصرية الضخمة ليست إجراءً عسكرياً .. وأنها سوف تُعاد إلى مواقعها الأصلية غرب قناة السويس إذا بدا أن حدة التوتر على الحدود الشمالية مع سوريا تخف»

لغز

يوم ١٧ مايو وقع تطور يظهر فى الوثائق الإسرائيلية على أنه حَدَثٌ «بالغ الخطورة» ــ إلى درجة أن بعض التقارير الإسرائيلية تجعل منه «نقطة التَحَوُّل الرئيسية فى مجرى حرب يونيو سنة ١٩٦٧»، وضمن هذه التقارير ما كتبه الجنرال «إيزر وايزمان» (مدير العمليات) والجنرال «موردخاى هود» (قائد الطيران) ــ فى حين أن الجنرال «إسحاق رابين» (رئيس هيئة أركان الحرب) احتار ولم يكن قادراً على تقدير درجة التهديد المتمثلة فى هذا «التطوُّر»!

ومن المثير للدهشة أن هذا «التطوُّر» الذى أحدث هَزَّة داخل المؤسسة العسكرية الإسرائيلية فى تلك اللحظات «الخطيرة» لم تُبْدُ له نفس الأهمية فى دائرة صنع القرار فى مصر.

كان مؤدى «التطوُّر الخطير» (كما بدا فى تل أبيب) ــ أنه بعد الظهر الباكر من يوم ١٧ مايو ١٩٦٧ قامت طائرتان مصريتان من طراز «ميج ٢١ S» بالتحليق بسرعة فوق منطقة «النقب» من جنوبها إلى شمالها. ومع أن وسائل الدفاع الإسرائيلية تَصَدَّت لهما فإن أياً من الطائرتين المصريتين لم تُصَب بأذى!

والحقيقة أن قراءة الوثائق الإسرائيلية فى هذا الشأن كانت (بالنسبة لى) مفاجأة حقيقية، فذلك الذى بدا فى تل أبيب «نقطة تَحَوُّل» بدا فى القاهرة «داخل السياق» ــ بحيث يَصعُب اعتباره ــ كما وَقَعَ فى إسرائيل ــ «نقطة تَحَوُّل»!!

وتلك ظاهرة تتكرر أحياناً فى التاريخ وسببها «اختلاف مواقع النظر بين الأطراف» و«اختلاف الظروف النفسية المحيطة بهم فى أجواء صُنع القرار»، ثم «علمهم الداخلى بما لا

عند ساعة الصفر

يعلمه غيرهم من الخارج، لأن العلم الداخلي يُوَسْوِس أحياناً باحتمالات قد لايكون لها أساس».

وظنى الآن - ومن قراءة الوثائق الإسرائيلية! - أن ذك ما حَدَثَ - وبآثار واسعة المدى - فى الأيام الحاسمة من أزمة سنة ١٩٦٧.

....

....

[وسوف أبدأ بذلك «التطوُّر الخطير» كما بدا فى القاهرة، وقد سمعت عنه من الرئيس «جمال عبد الناصر» مباشرة فى لقاء معه (صباح يوم ١٨ مايو)، فى غرفة مكتبه فى بيته، وسَجلْتُ ما سمعت فى أوراقى بعد اللقاء ضمن حديث طويل :

«قال الرئيس إنه «انشغل» بشىء جرى عصر الأمس!

يظهر أن حكيم (يقصد «عبد الحكيم عامر») وصدقى (يقصد «صدقى محمود» قائد الطيران) أرادا اختبار قوة الدفاعات الجوية الإسرائيلية، ولذلك أرسلا طائرتى استطلاع لاختراق المجال الجوى الإسرائيلى من «إيلات» إلى «بير سبع» إلى «الخالصة» إلى «سد بوكر» - ثم عادت الطائرتان بسلام. لم تَتَعَرَّض لهما الدفاعات الإسرائيلية بالكفاءة التى كنا نَتَصَوَّرها. كما أن طلقات المدفعية الإسرائيلية المضادة كان بينها وبين طائراتنا مسافة كبيرة. وقد خرجت المقاتلات الإسرائيلية بعد ذلك للمطاردة، لكنها خرجت مُتأخرة ١٤ دقيقة بعد لحظة الاختراق. وأكملت الطائرتان مهمتهما وعادتا. وجاءتنى قبل قليل مجموعة من الصُوَر» (أطلعنى الرئيس على ثلاث منها).

استطرد «جمال عبد الناصر» :

«إننى أستغرب ما حدث. ولا أصَدِّق أن الدفاعات الجوية الإسرائيلية ليس عندها المدى الذى يسمح لها بالوصول إلى الارتفاع الذى كانت عليه الطائرتان. وفى نفس الوقت فإنى لا أتصَوَّر أن هناك تقصيراً فى الدفاعات الإسرائيلية يسمح لطائراتنا أن تَخْتَرِق «النقب» للاستطلاع وتعود.

«حكيم» و«صدقى» كانا سعيدين - ولكنى لم أتَحَمَّس كما تَوَقَّع الاثنان. الحكاية دعتنى إلى الشك والتساؤل عما إذا كان الإسرائيليون يريدون إقناعنا بأنهم ليسوا مستعدين - أو ماذا ؟

استطرد «جمال عبد الناصر» :

«اتصلت بعد ساعة بـ«صدقى». أبديت له شكوكى، وبدا لى أنه ما زال مأخوذاً، سعيداً بما فعله أولاده (الطيارون) - لكنى فى الحقيقة أفضّل أن أتَحَفَّظ!»

....

....

[ومن المفارقات أنه بعد أيام قليلة - يوم ٢٦ مايو - وربما بقصد إقناع «جمال عبد الناصر» - فإن المشير «عبد الحكيم عامر» والفريق «صدقى محمود» رَتَّبا لغارة استطلاع ثانية عَبَرَت نفس المنطقة واستطلعت وصَوَّرَت، ورَصَدَت قذائف مضادة للطائرات تنفجر فى الأجواء تحتها ولكن المدى لا يطولها.]

....

....

☐

كان ذلك فى مصر، وأما فى إسرائيل فقد كانت الصورة أشد ما تكون اختلافا.

● يَظْهَر فى الملفات - أولاً - تقرير من الجنرال «إسرائيل ليور» بأن «عمليات الاستطلاع الجوى المصرى (أثناء اختراقها لمنطقة «النقب» الجنوبى) مَرَّت فوق منطقة «ديمونة». وذلك (فى تقدير الجنرال «ليور») يَكشف أن «التسهيلات النووية» (ities) ear facio nuco) الإسرائيلية قد وُضِعَت كأولوية أولى فى خطط مصرية للحرب. ومجلس الوزراء المصغَّر سوف يبحث هذا الأمر الخطير - ولدينا مذكرة من رئاسة الأركان - وقد طلبنا تقريراً جديداً من المخابرات العسكرية عن حسابها للاحتمالات بعد ما حدث!»

● وتَظْهَر فى الملفات - ثانياً - مذكرة كتبها الجنرال «ييجال آلون» وهو عضو رئيسى فى لجنة الأمن والدفاع فى مجلس الوزراء - تقول: «من الواضح الآن أن مفاعل ديمونة على رأس قائمة الأهداف المصرية، وهذا فى حد ذاته يفرض على إسرائيل أن تقوم بشن حرب وقائية ضد مصر لأن أى تهديد لـ«ديمونة» تهديدٌ للرادع النهائى الضامن للأمن الإسرائيلى.»

● ثم يَظْهَر فى الملفات - ثالثاً - «تقرير مراجعة» قامت به هيئة المخابرات العسكرية «آمان» وهو بتوقيع الجنرال «أهارون ياريف» - جاء فيه بالنص «أنه يبدو الآن أن النوايا المصرية لا يمكن اعتبارها «مُظاهَرة سياسية» وإنما «عملية عدوانية»!»

● وطبقاً لأوراق الجنرال «إسحاق رابين» - رابعاً - فإنه حين قرأ رئيس الوزراء الإسرائيلى «ليفى أشكول» هذا «التقرير بالمراجعة» لهيئة المخابرات العسكرية الإسرائيلية - التفت إلى ناحيته وقال له : «إنها الحرب.. أقول لك إنها الحرب سواء أردنا أو تَرَدَّدنا»!

☐

وعندما صَدَرَ فى مصر قرار إغلاق خليج «العقبة» مساء ٢١ - ٢٢ مايو كان «رئيس وزراء إسرائيل يُرَجِّح أن هذا القرار هو «الذريعة» لضرب مفاعل «ديمونة».»

وطبقاً لمحضر اجتماع للجنة الأمن والدفاع فى مجلس الوزراء، فإن أول تعليق لـ«ليفى أشكول» على القرار كان قوله : «أظن أن نواياهم الحقيقية ليست فى خليج العقبة، فهم يعرفون أن بواخرنا العابرة من مضايق «تيران» تكاد «لا تَظْهَر هناك». ولذلك فإن الحصار الذى ضربوه على المضايق غير مفيد فى الواقع العملى. والتفسير المقنع فى رأيى هو أن هذه الخطوة (إغلاق الخليج) تصاعدٌ مقصودٌ يريد خلق الأعذار لعَمَلٍ من جانبنا - يَرُدُّون عليه بضرب «ديمونة» - والغالب أن ذلك هدفهم من التصعيد!»

وفى ذلك الاجتماع للجنة الأمن والدفاع طلب الجنرال «رابين» رئيس هيئة أركان الحرب «توجيهاً جديداً من القيادة السياسية بعد هذه التطورات الأخيرة». وكان تقديره أن «هذه التطورات تقتضى عمليات أوسع بكثير وأشد عنفاً من الخطط السابقة التى أقِرَّت فى اجتماع يوم ١٥ مايو، وأنه لذلك يريد تعليمات أكثر تحديداً».

وأثناء المناقشة أبدى «رابين» أن الضرورات الآن تفرض البدء - ودون العودة إلى مجلس الوزراء لطلب ترخيص آخر. والبدء أن تقوم القوات الإسرائيلية وفق الخطة المعَدَّة بهجوم جوى واسع على كل المطارات المصرية فى سيناء وإلى غرب قناة السويس فى ضربة استباقية قبل أن تقوم مصر التى استطلعت «ديمونة» مرتين بتوجيه غارة واسعة النطاق إلى «قدس الأقداس» (Holly of the Hollies) الإسرائيلى.

وبعد مناقشات طالت فى لجنة الأمن والدفاع يظهر فى التقرير المكتوب عن الاجتماع أن الرأى اتجه إلى تَجَنُّب بحث خطوات عسكرية مُحَدَّدة فى الاجتماع الكامل للجنة الأمن والدفاع على اعتبار «أنه ما دام هناك اتفاق على الإطار العام فإن رئيس الوزراء «مُفَوَّضٌ من اللجنة» بأن يتدارس مع رئيس الأركان فى الخطوة أو الخطوات الواجب اتخاذها، وفى توقيت هذه الخطوة أو الخطوات».





عندما صدر فى مصر قرار إغلاق خليج «العقبة» مساء ٢١ - ٢٢ مايو كان «رئيس وزراء إسرائيل يرجح أن هذا القرار هو «الذريعة» لضرب مفاعل «ديمونة»

«تقريبا» !

وفى تلك الساعات الخطيرة أحس رئيس الأركان «إسحاق رابين» أنه فى حاجة إلى جلسة يستنير فيها بآراء «المعلم» - كما كانوا يُسَمُّون «دافيد بن جوريون» مؤسس الدولة. وتَوَجَّه «رابين» مساء ٢٤ مايو إلى مُستعمرة «سد بوكر» فى وسط «النقب» حيث اعتكف «المعلم» مُعتزلاً لا يريد المشاركة فى سياسات يعتقد أن أعوانه السابقين (خصوصاً «ليفى أشكول» و«جولدا مائير») قد أفسدوها.

وعَرَضَ «رابين» (طبقاً لشهادة مُسَجَّلة بصوته محفوظة فى مكتبة «بن جوريون» فى جامعة «بير سبع») تطورات الساعات الأخيرة.

وكان «بن جوريون» من أول لحظة بادى الغضب، ولعله أحس أن «الآخرين» فى تل أبيب تجاهلوا استشارته، ولم يجىء إليه أحدهم إلا بعد أن قاربت الأزمة ذروتها.

وطبقاً لشهادة «رابين» المسَجَّلة فإن «بن جوريون» رَدَّ عليه قائلاً :

«أنا لا أظن أن الظروف الآن مُهَيَّأة لحرب. وأنا استغربت أنك شَرَعت فى دعوة قوات الاحتياطى».

وقاطعه «رابين» (طبق شهادته) قائلاً :

«لقد كنا نريد أن نجعل درجة استعداد القوات عند الحَدّ الملائم لتطورات الأزمة».

وعلا صوت «بن جوريون» يسأل :

«مَن الذى صَعَّد الأزمة إلى هذه الدرجة ؟ ومَن الذى أصدَر إليك الأمر بدعوة الاحتياطى ؟

الذى أعطى لك الأمر لا يفهم تبعات ما أمر به، وأنتم جميعاً بتصرفاتكم الحمقاء وضعتم الدولة فى مأزق، وأمامكم الآن عِدَّة جيوش عربية تحيط بإسرائيل».

ورَدَّ «رابين» :

«إننا قَدَّرنا الوضع العسكرى للجمهورية العربية المتحدة، ونعتقد فى صحة تقديراتنا. وأريدك أن تعرف «أن ناصر يَستهدف مفاعل ديمونة». لكن اللغز الذى يواجهنا الآن هو «ما الذى يدعو ناصر ويشجعه على هذا النحو على استهداف مفاعل ديمونة بضربة يبدو أنها قادمة بعد أن تَمَّ استطلاع الموقع ؟ - إن المصريين قاموا مرات قبل ذلك بالاستطلاع فوقه سنة ٦٤ وسنة ٦٥، لكن الظروف الآن مختلفة بسبب وجود حالة طوارئ. والاستطلاع فى هذه الحالة لا يمكن إلا أن يكون مقدمة لشىء ؟»!

وتساءل «بن جوريون» مُوَجِّهاً كلامه لـ«رابين» (طبقاً لروايته):

«هل يمكن أن يكون الروس قد أعطوهم تَعَهُّدات مُطَمئنة تشجعهم على المخاطرة ؟»

وقال «رابين»: «لا أظن. ولكننا على اتصال بالأمريكيين لأنهم في الغالب يعرفون أكثر عن هذا الأمر».

وتساءل «بن جوريون»: «هل الأمريكان معكم بالكامل في خططكم؟»

ورد «رابين»: «لا أستطيع أن أقول «بالكامل». ولكنهم معنا «تقريبا».»

ورد «بن جوريون» منفعلاً: «إيشا» (كذلك كان «بن جوريون» يختصر اسم «إسحاق» («رابين»).. «ليس هناك في الحرب شيء اسمه «تقريباً»!»

ثم زاد «بن جوريون» كلامه تأكيداً:

«فيما يتعلق بمصير إسرائيل ليس هناك شيء اسمه «تقريباً»!»

وسكت «رابين» وعاد إلى قيادته تلك الليلة شبه مريض. وانتابته حالة تَقَلُّص في الأمعاء وقيء. وسارع مدير العمليات «إيزر وايزمان» إلى الاتصال بالجنرال «إسرائيل ليور» مدير المكتب العسكري لرئيس الوزراء لإبلاغه «أن رئيس الأركان أصيب بانهيار تحت وطأة الظروف، وأنه لابد الآن من قيادة عسكرية جديدة للحرب»!

□

وبتوجيه مباشر من رئيس الوزراء (وطبقاً لملفات الجنرال «إسرائيل ليور» مدير مكتبه العسكري) تَوَجَّه الجنرال «مائير أميت» (رئيس «الموساد») في نفس اليوم إلى مَقَرّ محطة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية في تل أبيب ومعه سؤال يريد من رئيس المحطة أن يساعده في جواب عليه، وهو «هل يقوم الروس بتشجيع المصريين على شَنّ الحرب بدءاً بغارة واسعة على مفاعل ديمونة؟» - وطلب الجنرال «أميت» من مدير المحطة أن يبعث بالسؤال الإسرائيلي إلى مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «ريتشارد هيلمز» - ومنه بعد ذلك إلى رئيس الولايات المتحدة «ليندون جونسون» بنفسه.

وأضاف الجنرال «أميت» في حديثه مع رئيس محطة وكالة المخابرات المركزية الأمريكية إشارة لم تخف دلالتها على سامعها، فقد قال الجنرال «أميت»:

«إن مصير إسرائيل مُعَلَّق في الميزان. وإذا كان ذلك هو الوضع، وإذا لم يكن تَحَرُّك الولايات المتحدة على المستوى المطلوب - فإن إسرائيل لن تَتَرَدَّد في «فتح أبواب الجحيم» وتقول للعالم ما قاله «شمشون الجبار» من أنه «عليَّ وعلى أعدائي»».

وكانت الإشارة واضحة إلى استعداد إسرائيل للزَّجّ على «سلم التصعيد» بسرها النووي، سواء بالتلويح به أو باستعماله فعلاً.

والواقع أن الجنرال «أميت» لم يترك تلميحه لذكاء أحد، وإنما أضاف:

«إن قيام الطيران المصري بضرب «مفاعل ديمونة» لن يؤدي إلى تدمير هذا المشروع «السلمي»؛ لأن بناءه مُجَهَّزٌ للطوارئ، لكن الضرب قد يؤدي إلى تَسَرُّب لمواد إشعاعية سوف تُسَمِّم الأجواء المحيطة بالمشروع في عُمق «النقب» وحتى داخل الحدود المصرية!»

ومن المعلومات الأكثر إثارة في الوثائق الإسرائيلية تلك الفترة - وطبقاً لمذكرات «ماردور» وهو المسئول عن مشروع «رافائيل» في ذلك الوقت - أن الجنرال «إسرائيل ليور» مدير المكتب العسكري لرئيس الوزراء اتصل به يسأله عن الموقف «هذه اللحظة» داخل المشروع. وهل هناك «مُنتَج جاهز» أو يمكن تجهيزه بسرعة. وسَجَّلَ «ماردور» في مذكراته أنه قد يكون ممكناً وبسرعة «توضيب» (improvise) «جهازين» قابلين للعمل على نحو ما!



٦ مضاعفات

كان تقدير «والت روستو» مستشار الأمن القومي الأمريكي، وهو مُسَجَّل في مذكرة مُقَدَّمة لرئيسه، ومحفوظة ضمن ملفات مكتبة «تكساس» التي تحمل اسم «جونسون» - هو أنه «من الصعب تَصَوُّر أن الروس يمكن لهم تشجيع «ناصر» إلى هذا الحَد. وعلى أي حال فإنه من المهم الاتصال بهم وتحذيرهم إلى خطر أية مغامرة غير محسوبة يقومون بها وتؤدي إلى زيادة تصاعد الأزمة في الشرق الأوسط».

وكانت تل أبيب ما زالت تبذل أقصى جهدها في استعجال واشنطن حتى تَتَحَرَّك لتثبيت موقف الاتحاد السوفيتي وضمان احتواء رَدّ فعله.

وفي تلك الساعات كان الهجوم على مصر هو «المهمة» الوحيدة والمحددة للسلاح الإسرائيلي. وفي محاولة «أشكول» أن يَستعجِل الولايات المتحدة حتى تقطع لإسرائيل عهد الحماية الذي تطلبه ضِدّ أي تَدَخُّل سوفيتي مُحتَمَل في ظروف قتال مع مصر - فإن رئيس وزراء إسرائيل بادر (كما هو ظاهر في الوثائق الإسرائيلية) فطلب من السفير السوفيتي في موسكو «ديميتري شوفكين» أن يَزور الجبهة الشمالية وأن يتأكد بنفسه من أنه ليست هناك حشود إسرائيلية «غير عادية» أمام السوريين. واعتذر «شوفكين» لعِدّة أسباب - طبقاً لرواية «أشكول»:

□ أنه ليس في مهمته أن يُفَتِّش على مواقع عسكرية.

□ وأنه على فرض أن ذلك طُلِبَ منه فهو رَجُل عملي يعرف أن الجبهة واسعة، وأنه إذا زار مَوْقِعاً أو مَوْقِعَين فإن ذلك لا يعني أنه قام بتفتيش الجبهة.

□ وأخيراً فإنه يعرف مقدماً أن زيارته للجبهة سوف تُستَغَل في حرب نفسية ضِدّ «أصدقائنا العرب».

وقد بَعَثَ «أشكول» (طبقاً لسجلات مكتبه) بتفاصيل ما دار بينه وبين السفير السوفيتي إلى واشنطن، لكن واشنطن لم تُعَلِّق عليها أهمية كبيرة لأن سؤالاً آخر كان يشغلها في تلك اللحظات، وهو: «لماذا أصدر «ليونيد بريجنيف» السكرتير العام للحزب الشيوعي بياناً يوم ٢٤ أبريل الماضي - أي قبل بداية أزمة الحشود في سيناء بثلاثة أسابيع - يُطالب فيه بسحب الأسطول السادس الأمريكي من البحر الأبيض بمنطق أن وجود قطعه فيه ومناوراتها الدورية وتحركاتها المستمرة تُشيع فيه جَواً من القلق والتوتر!».

وكان تَساؤل واشنطن بعد ذلك لنفسها ولغيرها: هل كان «بريجنيف» يعرف شيئاً لا تعرفه الإدارة الأمريكية بكل أجهزتها من وزارة الدفاع - إلى المخابرات العسكرية ؟!

وصَدَرَت تعليمات من واشنطن - أخطِرَ بها مكتب رئيس الوزراء الإسرائيلي - إلى السَفير الأمريكي في موسكو تطلب إليه أن يسأل «أندريه جروميكو» وزير الخارجية مباشرة وبدون لف أو دَوَران: «هل كانت الحكومة السوفيتية على علم مسبق بقرار «ناصر» إغلاق خليج العقبة ؟» و«هل يؤيد الاتحاد السوفيتي هذا الإجراء؟» - وردّ «جروميكو» بالنفي على السؤال الأول - «الاتحاد السوفيتي لم يكن يعرف مسبقاً» - ولم يَرُد على السؤال الثاني صراحة مُكتَفِياً بالقول «أن الاتحاد السوفيتي لا يَتَدَخَّل في قرارات أصدقائه عندما يتخذونها بدواعي الحرص على أمنهم القومي»!

وتحتوي الملفات الإسرائيلية على صورة خطاب سِرّي وعاجل بَعَثَت به الحكومة الإسرائيلية إلى الرئيس الأمريكي «ليندون جونسون». والغَرَض أن يبعث «جونسون» بمحتواه إلى القادة السوفييت. وجاء في هذا الخطاب وهو بتوقيع «أبا إيبان»: «إن هناك فيما يبدو لنا انطباعا خاطئاً في القاهرة ودمشق بأن التأييد السوفيتي لمصر وسوريا مضمون، وبالتالي فإن البلدين ليسا في حاجة إلى أي قدر من ضبط النفس».

وكان السفير السوفيتي في واشنطن («أناتولي دوبرينين») مَوجوداً للتشاور في موسكو. وقام مستشار الأمن القومي في البيت الأبيض «والت روستو» باستدعاء القائم بالأعمال السوفيتي «تشرنياكوف» ليقول له: «إن لدينا معلومات مُؤَكَّدة من دمشق منقولة عن أعضاء رفيعي المستوى في النظام تؤكد اطمئنان السوريين الكامل إلى «تأييد غير محدود» من الاتحاد السوفيتي لسوريا - وهذا نوعٌ من «التحريض» له عواقبه!

وقال «تشرنياكوف» إنه سينقل الرسالة إلى موسكو.

وكانت تل أبيب تُشَدِّد من ضغطها على واشنطن، ووَصَلَت في ذلك إلى درجة أنها أبلغت الملحق العسكري في السفارة الأمريكية في تل أبيب بأن «الأسطول السوفيتي في شرق البحر الأبيض قام بعملية استطلاعية على الشواطئ الإسرائيلية حول حيفا - وعادت الخارجية الأمريكية تسأل القائم بالأعمال السوفيتي فيما بلغها - ورَدَّ «تشرنياكوف» بناء على تعليمات من موسكو بنَفْي للرواية الإسرائيلية بكاملها. وفي مقابلة لـ«تشرنياكوف» مع وزير الخارجية الأمريكي «دين راسك» في اليوم التالي بدا من مذكرة (تَرِدُ صورة لها ضمن الأوراق الإسرائيلية) أن «تشرنياكوف» أبلغ وزير الخارجية الأمريكي بالنقل المباشر عن رئيس الوزراء السوفيتي «كوسيجين» أن «إسرائيل التي تطارد الحكومة الأمريكية بمزاعمها عن تهديدات مُوَجَّهة لها - هي التي تحشد قواتها الآن «لسياسة مغامرة» يمكن أن تؤدي بمنطقة الشرق الأوسط إلى كارثة».

ومن اللافت للنظر أن الوثائق الإسرائيلية



كان تقدير الحكومة الإسرائيلية
أنها بسرعة العمل وبالحسم مهما كان عنيفاً
على الجبهة المصرية، يمكنها «تحييد» الموقف
السوفيتي وقت نشوب العمليات مع مصر،
مع التحوط أن لا يكون هناك
استفزاز على الجبهة السورية»

عن هذه المرحلة ـ وكذلك الوثائق الأمريكية ـ تشير إلى «مَصدَر يعرف المصريين ويعرف السوفييت جيداً ومعلوماته عن الطرفين موثوق فيها إلى أبعد مدى ـ وملخص معلوماته الآن أن العلاقات بين السوفييت والمصريين تشوبها شكوك متبادلة، وأن القيادة السوفيتية مُنقَسِمة على نفسها:

□ زعيم الحزب «بريجنيف» ومعه الماريشالات «جريتشكو» و«جورشاكوف» و«زخاروف» يُؤيّدون مساندة «ناصر».

□ والعقائديون المؤثرون في الحزب «سوسلوف» و«أندروبوف» و«بانامارييف» لا يهمهم «ناصر»، وإنما يهمهم النظام الحاكم في دمشق وعلى رأسه الأطباء الثلاثة الدكاترة «نور الدين الأتاسي» رئيس الدولة، و«يوسف زُعيّن» رئيس الوزراء، و«إبراهيم ماخوس» وزير الخارجية ـ وأن هذه ـ مع بعض العناصر في الجيش ـ هي القيادة ذات الاتجاه اليساري الصحيح.

□ وأخيراً فإن هناك جبهة من «العمليين» يُمثّلها رئيس الوزراء «كوسيجين» ـ ترى «عدم المخاطرة في تأييد العرب بأبعد من حدٍّ مُعيّن».

وكان تقدير الحكومة الإسرائيلية «أنها ـ بسرعة العمل وبالحسم مهما كان عنيفاً على الجبهة المصرية ـ يمكنها «تحييد» الموقف السوفيتي وقت نشوب العمليات مع مصر، مع التحوّط أن لا يكون هناك استفزاز على الجبهة السورية».



٧ اتفـــــاق!

وتكشف قراءة الوثائق الإسرائيلية بما لا يقبل مجالاً للشك أنه حتى الأسبوعين الأخيرين من مايو سنة ١٩٦٧ ـ ظلّ ذلك الاختلاف بين واشنطن وتل أبيب قائماً ومحسوساً.

لكن الاختلاف لم يكن تناقضاً، ولا تعارضاً في الآراء، ولا حتى خِلافاً. وإنما مجرد «اختلاف».

كان هناك اتفاق في «النوايا» بصفة عامة، وكان هناك اتفاق على أن «التوقيت» مناسب.

وكان ذلك مقروءاً في الوثائق الإسرائيلية (والأمريكية) مبكراً.

وتحفل الوثائق الإسرائيلية في الشهور الأولى من سنة ١٩٦٧ بإشارات متكررة إلى أن «الرئيس جونسون قرَّرَ أن يعطي إسرائيل حرية العمل المسلح ضدّ ناصر»، وأنه على وشك أن يعطيها الإشارة لتُطلق unleach قوتها على الجيش المصري «باعتباره قاعدة الاستقرار في النظام المصري»!

□ ومثلاً فإن في الملفات الإسرائيلية صورة لبرقية كتبها السفير الأمريكي في القاهرة «لوشيوس باتل» بتاريخ ٧ مارس سنة ١٩٦٧ ـ قبل مغادرته لمصر بعد انتهاء مهمته فيها (خمس سنوات تقريباً) وفي هذه البرقية يقول «باتل» ما نصه:

«لقد بدأنا بهدوء في تنفيذ تعليمات الطوارئ فيما يتعلق باحتمال قطع العلاقات بين مصر وبين الولايات المتحدة».

ثم يشير «باتل» في هذه البرقية إلى عشاء وداع له أقيم في بيت «محمد حسنين هيكل» وحضره المشير «عبد الحكيم عامر» والسيد «أنور السادات» ـ ثم يقول في برقيته: «إنني أرى المنطقة مُقبلة على مرحلة خطيرة dramatic، وقد أحسست من كلامي مع «عامر» و«السادات» و«هيكل» أن التوتر في المنطقة سوف تزداد حدته».

□ ومثلاً فإن هناك في الوثائق الإسرائيلية أيضاً إشارات إلى أن شركات البترول الأمريكية أخطِرَت (من واشنطن؟) بالاستعداد للمفاجآت. ومن الظاهر تماماً أن شركة «أرامكو» (العاملة في السعودية) وشركة «جولف» (العاملة في الكويت) كانتا على علم بما هو قادم على الأقل في شكله العام ودون تفاصيل (ظاهرة في الأوراق). وقد كان مطلوباً من كلتيهما «أن تكونا على استعداد: بزيادة الشحن في الفترة القادمة إلى أقصى حدٍّ ممكن إلى ميناء «روتردام» ـ ثم بتأمين الحقول والآبار وخطوطها إلى أرصفة الشحن» ـ ثم وهذا هو الإجراء اللافت «العمل على ترحيل العائلات الأمريكية في هدوء احتمالاً لأي تطوُّر مفاجئ في المنطقة» ـ ولم تقتصر هذه التعليمات بترحيل العائلات على مناطق البترول، وإنما وَصَلَت التعليمات إلى عواصم عربية أخرى بينها بيروت والقاهرة!

□ ومثلاً فإن القراءة المتأنية للملفات والأوراق الإسرائيلية توحي أن داعي الاختلاف بين واشنطن وتل أبيب رغم اتفاقهما على «النيّة» وقبولهما لـ«التوقيت» ـ يرجع بالتحديد إلى عنصرين:

● العنصر الأول وهو «إنساني» مما سبقت الإشارة إليه، يتلخص في أن الأطراف قد يعزمون ويخططون لفعل شيء، لكنهم عندما تجيء لحظة «التنفيذ» تعاودهم مسئولية التأكد من أنه ليست هناك مفاجآت لم يُحسَب حسابها عندما استقرت «النوايا» وحان «التوقيت».

● والعنصر الثاني يتصل بحسابات كل طرف من الطرفين تجاه آخرين يشغله رَد فعلهم. وهنا وفي هذا العنصر بالذات تَمَحوَر الخلاف بين الحليفين في هذه الساعات!

وهكذا فإنه في حين أن إسرائيل كانت تريد أن تتحرّك بسرعة وتضرب، فإن الولايات المتحدة الأمريكية كان رأيها استنفاد كل وسائل العمل السياسي: عن طريق الأمم المتحدة أولاً، ثم عن طريق قوة بحرية مشتركة من الدول المهتمة بطرق «الملاحة العالمية» تقوم هي بالمهمة الرئيسية لفتح خليج «العقبة».

وكان التقدير الأمريكي «أن الأمم المتحدة لن تنجح»، وأن الدول المهتمة بحرية الملاحة العالمية لن تتفق (على الأقل بسبب رغبة فرنسا بتأثير رئيسها «شارل ديجول» في الاحتفاظ باستقلالية قرارها في طريقة تشكيل ونطاق عَمَل هذه القوة!) ـ لكنه من المهم بالنسبة للموقف مع الاتحاد السوفيتي أولاً ـ وبالنسبة للموقف مع عَدَد من الدول العربية الصديقة ـ أن تتصرف الولايات المتحدة بما يظهر «حرصها» على حَلٍّ سلمي أو حَلٍّ دولي ـ حتى وإن كان تقديرها وبنسبة ٨٠٪ أن الأزمة في النهاية لن يحسمها غير تدخل عسكري مسلح يكسر قوة مصر ويكسر هيبتها في العالم العربي «ويستأصل خطرها في المشرق العربي».

في ضوء هذا الاختلاف على تهيئة المسرح للعملية الإسرائيلية المقبلة ـ يمكن فهم الكثير من الوقائع التي ترد الإشارات إليها في الوثائق الإسرائيلية تصريحاً في بعض الأحيان وتلميحاً في أحيان أخرى.



٨ شـــــرخ!

والشاهد أنه في ضوء هذا الاختلاف يمكن فهم الأزمة الداخلية التي أمسكت بخناق إسرائيل وتحديداً في الأسبوع الأخير من شهر مايو ١٩٦٧. وهي أزمة شَرَخَت العلاقة بين الحكومة وبين قادة الجيش في إسرائيل.

□ قادة الجيش (يتزعمهم الجنرالات «وايزمان» و«هود» و«إليعازار» و«إسرائيل تال» و«أرييل شارون»، و«موردخاي جازيت»، و«أوزي ناركيس»، و«أهارون ياريف» ـ يُساندهم من الخارج «موشي ديان») ـ يرون جميعاً ضرورة الهجوم على مصر فوراً قبل أن تَخِفّ حدّة التوتُّر وتضيع ملامح الأزمة في دهاليز السياسة الدولية وأروقة الأمم المتحدة، ومن ثم يكون على إسرائيل أن تبحث لنفسها عن «ذريعة» أخرى لضرب مصر ـ بينما هذه الذريعة الآن موجودة (وصارخة من وجهة النظر الإسرائيلية).

ثم إن الجيش اليوم في حالة تعبئة، والانتظار طويلاً ـ حتى لساعات ـ تحت الأعباء الاقتصادية والاجتماعية والنفسية لهذه التعبئة بمثابة «عَدَّاد» يرفع التكلفة مع حركة عقاربه!

□ وفي المقابل فإن زعماء الحكومة (وفي مقدمتهم رئيس الوزراء «ليفي أشكول»، ورئيسة الحزب «جولدا مائير»، والوزير المخضرم والمستشار الأقرب إلى رئيس الوزراء «إسرائيل جاليلي») ـ يرون أن ضرورات الأمن القصوى تقتضي انتظار الولايات المتحدة الأمريكية حتى ترتب موقفها بطريقة ملائمة لها (سواء مع الخصوم السوفييت أو مع الأصدقاء العرب)، ثم تَقبَل بالمسئوليات والضمانات المطلوبة لإسرائيل. وقد كان زعماء الحكومة يتفهمون الضرورات الملحة في موقف الجنرالات، لكنه كان من رأيهم أن المناخ الدولي العام ـ وبالتحديد «درجة الحرارة» في الولايات المتحدة ـ أهم بكثير من أي شيء يجري على ساحات القتال!

وقد وصلت الأزمة بين الزعماء السياسيين والقادة العسكريين إلى مشادة عنيفة (يوم ٢٨ مايو) تبودلت أثناءها تُهَم «العقل» و«الجنون»، و«الحماقة» و«التخاذل»، وحتى «الهَرَب من المسئولية» و«الخيانة»! وحاول الوزير «إسرائيل جاليلي» تهدئة الجنرالات مُستشهداً بما قاله «بن جوريون» للجنرال «رابين» قبل ساعات،



كان تقدير الولايات المتحدة وبنسبة ٨٠٪ أن الأزمة في النهاية لن يحسمها غير تدخل عسكري مسلح يكسر قوة مصر ويكسر هيبتها في العالم العربي «ويستأصل خطرها في المشرق العربي»

وكان الرد عليه «أن بن جوريون مُعتزلٌ، ومَعزولٌ عن دخائل الأمور، ومَقصيٌ عن دائرة صنع القرار، وليس لديه ما يكفيه من الحقائق ليبدى حكمه على أساس، وهو عندما التقى «رابين» تحدَّث معه بانطباعاته!

وفَقدَ الجنرال «وايزمان» أعصابه وقال مُوَجِّهاً كلامه إلى «أشكول» إنه «لا يُشَرِّفه أن يخدم تحت قيادة سياسية تعجز عن اتخاذ القرار فى لحظة أزمة». ثم أردف «وايزمان» ذلك بأن خلع علامات الرُّتب عن كتفيه وألقاها على مكتب رئيس الوزراء بقوة كادت تقذف بها فى وجهه ـ وامتقع وجه «ليفى أشكول» حتى أصبح فى لون «عجينة قمح» (كما روى «جاليلى»)!

وكان وزير الخارجية «أبا إيبان» فى واشنطن لمقابلات مع الرئيس «ليندون جونسون» وأركان إدارته، وكان تقريره الأوْلى قد وَصَلَ فعلاً إلى رئيس الوزراء، وكان مضمونه من العناصر التى أثارت ثائرة الجنرالات. وبعد المشادة فإن التعليمات لاحقت «إيبان» بصورة ما جرى فى مكتب رئيس الوزراء، وبأن تُرَدِّد الولايات المتحدة الآن لا يجب أن يطول.

كانت الولايات المتحدة ما زالت تحسب، تجمَع وتطرَح وتضرب وتقسم، وقد بدأت تميل إلى أن الإشارات التى تراها مُتضاربة من موسكو قد لا تكون مُضَلِّلة كما يظن بعض خبرائها، وإنما هى انعكاس لحيرة حقيقية فى الكرملين. ولم يَعُد الموقف السوفيتى هو الشاغل الأول للولايات المتحدة، وإنما أصبح شاغلها الملح هو «عزل» أو «تحصين» النظم العربيَة التقليدية الصديقة لها فى العالم العربى من آثار أو ردود فعل أى هجوم تشنه إسرائيل ضِدّ مصر.

ومن هنا كان «جونسون» يطلب «فسحة وقت» ـ وهكذا «تَراجَعَ» القلق من الخصوم السوفييت، و«تقدم» القلق على الأصدقاء العَرَب!

□

ويروى تقرير كتبه «آبا إيبان» وزير الخارجية الإسرائيلى عن تفاصيل مقابلته للرئيس الأمريكى «ليندون جونسون» أن «جونسون» قال له «ما هو الفارق بين أن تتصرفوا الآن أو تتصرفوا بعد أسبوعين أو ثلاثة. هذه مُهلة لازمة لنا لأسباب كثيرة. أنتم تعرفون كما نعرف أن «ناصر» لا يخطط الآن لهجوم على إسرائيل، وإذا تَهَوَّرَ وفعَل فإن كل خبرائنا يقولون لى «إنكم قادرون على إرساله إلى الجحيم». إذا كنتم مُصرِّين على أن تتصرفوا دون أن تنتظروا كلمتَنا الأخيرة فهذا حقكم، لكنكم لن تكونوا وحدكم إلا إذا قرَّرتم أن تكونوا وحدكم».

وعلى أساس هذا التقرير لـ«آبا إيبان» وهو موجود بنصوصه (أربع صفحات) فى الوثائق الإسرائيلية، فإن مجلس الوزراء الإسرائيلى قرَّرَ وبإجماع آرائه (وفق محضر الجلسة) أن «العَمَل العسكرى» لإزالة التهديد المصرى مُؤجَّل لمدة ما بين أسبوعين إلى ثلاثة أسابيع استجابة لطلب رئيس الولايات المتحدة»!

....

....

[وكان هذا الطلب من «ليندون جونسون» هو الأساس الذى بنى عليه السكرتير العام للأمم المتحدة وقتها «يو ثانت» رسالته الشهيرة إلى الرئيس «جمال عبد الناصر» برجائه أن يوافق على إعطاء الجهود الدولية لحل الأزمة مدة أسبوعين على الأقل، وأن لديه معلومات بأن كل الأطراف قبلت هذه المهلة، وأنه واثق أن الحكومة الإسرائيلية لن تقوم بأى عمل استفزازى لتحدى الحظر المصرى على خليج «العقبة».

وقد لعبت هذه الرسالة دوراً كبيراً فى طمأنة القائد العام المصرى («عبد الحكيم عامر») وقيادته إلى أن «ساعة الصفر فى ميادين القتال مُؤجَّلة» لأسبوعين وأكثر.

وكانت تلك طمأنينة بتدافُع الوقائع زائفة.]

....

....

ولم يكن جنرالات إسرائيل على استعداد لقبول قرار مجلس الوزراء، وقد راحوا يتهمون القيادة السياسية علانية بأن مستواها أقل من ضرورات الأزمة التى تواجه الدولة، وأن الظروف الآن تقتضى تأليف حكومة وحدة وطنية يرأسها «دافيد بن جوريون» بنفسه (وهو الرَّجُل الذى يستشهد به الساسة فى تهدئة ثورة الجنرالات) ـ كما يكون معه على وزارة الدفاع «موشى ديان» الذى أصبح (باستحقاق أو غير استحقاق) رمزاً للعسكرية الإسرائيلية المقاتلة!

وقد رَفضَ رئيس الوزراء «ليفى أشكول» هذه المطالب كلها واعتبرها «عُدواناً من «العسكريين» على السلطة المدنية فى دولة إسرائيل الديمقراطية». كما أن «جولدا مائير» رئيسة الحزب رفضتها وكانت علاقاتها مع «بن جوريون» قد ساءت، وكان رأيها دائماً أن «ديان» «عسكرى» «خفيف» و«مغرور»، ثم هو طامح إلى دور سياسى «نابليونى» (حسب تعبير «مائير» نفسها). وكان السياسى المخضرم «إسرائيل جاليلى» يرى أن مطالب الجنرالات شطط ـ لكنه من الخطأ التعامل معها بمجرد التمسك بحقوق السلطة المدنية (كما يرى «أشكول»)، أو بالتقييم الذاتى الملَوَّن بالعواطف (كما تفعل «مائير» تجاه «ديان»).

وكان اقتراح «جاليلى» أن تُشَدِّد الحكومة جهدها وتُكَثِّفه لإقناع الرئيس الأمريكى «ليندون جونسون» بأنه ليس لدى الولايات المتحدة ما تخشاه من ردود فعل عربية، وأن القياس على ما كان سنة ١٩٥٦ (السويس) وسنة ١٩٥٨ (الوحدة بين مصر وسوريا) لم يَعُد مطروحاً لأن العالم العربى اختلف كثيراً عما كان عليه من قبل، وأن التناقضات بين «الشيوخ» التقليديين فى شبه الجزيرة العربية والخليج، وبين الثوار المنادين بالتغيير والتجديد ـ وَصلَت إلى حَدّ الحرب الأهلية بين الفريقين (كما هو حادث فى اليمن).

ولم يكن «جونسون» قد اقتنع بالكامل بأن رَدّ الفعل الشعبى العربى يمكن السيطرة عليه، وكان خوفه أن «الشارع العربى» فى غضبه من أى عمل إسرائيلى يكتسى بموافقة أمريكية ـ قد يطيح بالعروش العربية فى عواصم تعتبر واشنطن أن أمنها جزء من الأمن القومى الأمريكى.

وقررت القيادة الإسرائيلية المصَغَّرة، ووافقها الجنرالات بنفاد صبر، على إيفاد الجنرال «مائير آميت» رئيس المخابرات «الموساد» إلى واشنطن للقاء مع الرئيس «ليندون جونسون» وأركان إدارتَه، ولأحاديث صريحة تنجلى بها الأمور (على نحوٍ مَوثوقٍ به أكثر من تقارير «آبا إيبان» من واشنطن)!

وكان هناك إحساس بأن مساحة الاختلاف بين إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية سوف تضيق، ولكن تُلزمها مُهلة لا تقاطعها حركة طائشة يقوم بها الجنرالات الغاضبون من طول الانتظار.





لندون جونسون لأبا ايبان فى مايو ١٩٦٧:
«ما هو الفارق بين أن تتصرفوا الآن أو تتصرفوا بعد أسبوعين أو ثلاثة. هذه مهلة لازمة لنا لأسباب كثيرة. أنتم تعرفون كما نعرف أن «ناصر» لا يخطط الآن لهجوم على إسرائيل..»

القصور

كان الرئيس «ليندون جونسون» ـ وبصرف النظر عن حسابه للموقف السوفيتى ـ ما زال مَيّالاً إلى مُهلة الأسبوعين أو الثلاثة ليتأكد فيهما من أن رَدّ فعل «الشارع العربى» سنة ١٩٦٧ ليس خطراً داهماً ـ وعلى غير ما كان عليه الحال سنة ١٩٥٦ وسنة ١٩٥٨.

وفى فترة الانتظار تلك كان الرئيس الأمريكى مُعَرَّضاً لتأثيرات جارفة من قوى يُحسَب حسابها فى واشنطن، ومن أصدقاء شخصيين مقربين منه، وأيضاً من السيدة الجميلة التى تَمَلَّكه هواها فى تلك المرحلة المتأخرة من حياته، وأثناء تلك الأزمنة الملتهبة فى الشرق الأوسط ـ وهى السيدة «ماتيلدا كريم» (وهى يهودية مُتَحَمِّسة حتى الهَوَس لإسرائيل).

وبالإضافة إلى ذلك كله كان هناك ضغط شديد على البيت الأبيض من إدارة العمليات الخاصة الخارجية فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وكان يرأسها فى ذلك الوقت «جيمس إنجلتون» ـ وكان رأى هذه الإدارة «أن هذه الفرصة المتاحة مناسبة لضربة قاضية تُوَجَّه لـ«ناصر» ـ تنهى نظامه وتكسر أسطورته».

وكان تقدير «إنجلتون» أن السوفييت لن يَتَحَرَّكوا بالسرعة الكافية ولا بالمقدرة الكافية لملاحقة الموقف.

وكان تقدير «إنجلتون» ـ وفى الأوراق الإسرائيلية تفاصيل كثيرة عن آرائه وخططه وملخصها فى حساباته للموقف العربى ـ أن العنصر الحاسم فى موقف «الشارع العربى» هو «حَجم وقوة الضربة التى تُوَجَّه إلى ناصر» ـ فإذا كانت عنيفة بما فيه الكفاية، ومُهينة بما هو ظاهر لكل الناس ـ فإن الشارع العربى سوف تَستَبِدُّ به المفاجأة وتَتَحَكَّم فيه الصدمة، وحين يستفيق لما جرى فإنه سوف يكتشف أن الأوضاع تَغَيَّرَت، وأن «أبطال اليوم السابق ذابوا تحت الشمس مثل تماثيل من الملح».

وكان تقدير «إنجلتون» أن القصور العربية لديها من الكراهية لـ«ناصر» ـ وتحت تصرفها من الإمكانيات المادية ـ ما يجعلها قادرة على احتواء حركة «الشارع» خصوصاً إذا كان «حجم وقوة الضربة» بما لا يمكن إخفاؤه أو التَّستُّر عليه!

□

وفى تقرير مكتوب لـ«إنجلتون» ـ محفوظ

فى الملفات الإسرائيلية ـ تَظهر صُوَر من تقرير (سبق لى أن استشهدت به فى كتاب «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» ـ الجزء الثانى صفحة ١٣٠) عن مقابلة بين السفير الأمريكى فى السعودية وبين الملك «فيصل بن عبد العزيز». وفى هذه المقابلة فإن الملك السعودى يُحَرِّض الرئيس الأمريكى بأصرح عبارة ضدَّ «جمال عبد الناصر» ـ وكان «لأحدهم» تعليق أضافه على هامشه مؤداه «أنه إذا كان ذلك موقف الملك قبل أكثر من سنتين، فهو الآن بالتأكيد أكثر حِدَّة عن ذى قبل»!

....

....

[كان نص تلك البرقية من السفير الأمريكى فى السعودية المستر «بيتر هارت» عن محضر مقابلته مع الملك (وهو ضمن وثائق وزارة الخارجية الأمريكية تحت رقم ٤٣/٣٦٦٥١) ـ كما يلى :

«اتصل بى البروتوكول صباح أمس لإبلاغى أننى مطلوب فى الطائف فى الساعة ١٥:٤ بعد الظهر. ولم يعطنى البروتوكول أى إيضاحات فيما عدا أن هناك طائرة سوف تحملنى إلى الطائف بعد الظهر.

استقبلنى الملك فيصل فى قصر «الشبرة» (Al-Shubra) فى الساعة التاسعة مساء فى حضور السقاف وفرعون. وقال الملك إن هناك شيئاً حدث وهو يريد إخطارى به بنفسه كصديق شخصى لى وكممثل لبلد صديق له ولأسرته. ثم قال الملك إنه خلال يومين سابقين قامت ثلاث طائرات مصرية باختراق المجال الجوى السعودى جنوب شرق جيزان فوق مناطق قبائل الحارث وأبو عريش، وأن هذه الطائرات قامت بعدة دورات على ارتفاعات منخفضة فى محاولة ظاهرة للاستفزاز. كما أن معلومات لديه (الملك) من داخل اليمن تؤكد أن هناك قوات مصرية تتحرك صوب الحدود السعودية. وقد حاولت أن أسال الملك بإلحاح عن تفاصيل أكثر بشأن هذه المعلومات، ولم يكن لديه شىء لا عن حجم هذه القوات ولا عن تسليحها ولا عن مواقعها. وقد قال الملك «إن هذه التطورات تثير فى ذاكرته ما سبق أن سمعه عن مؤامرة بين مصر والعراق والأردن(!) لغزو وتقسيم بلاده على النحو التالى : حسين يأخذ الحجاز باعتبارها مملكة هاشمية فى السابق، والعراق يأخذ المقاطعة الشرقية، واليمن يأخذ الجنوب، وباقى المملكة يدخل تحت سيطرة ناصر».

قال لى الملك أيضاً «إن «ناصر» أوحى إلى صديقه «هيكل» بأن يَنشُر خطة عن إنشاء منظمة عربية للبترول».

ثم أضاف الملك «إن السعودية مُحاصَرة، وقد لا تكون السعودية دولة كبيرة أو قوية، ولكنها دولة تريد أن تحتفظ بأرضها وشرفها، وإذا كان «ناصر» كما هو واضح يريد أن يضع يده على المملكة متصوراً أنه ـ «فيصل» ـ سوف يقف ساكتاً فى انتظار أن يُخنَق، فهو مخطئ فى ذلك». وأشار الملك إلى أنه سوف يقاوم عسكرياً، وهو قد اتخذ عدة قرارات يريد أن يبلغنى بها الآن :

١ ـ قرَّر أن يُدخل أسلحة إلى المنطقة المنزوعة السلاح على حدود اليمن. وقد أصدر أمراً بذلك فعلاً.

٢ ـ إنه أعطى أوامر بالفعل إلى قواته أيضاً بأن تحتشد على حدود اليمن لتكون فى وضع يسمح لها بأن تدافع عن السعودية.

٣ ـ وهو الآن لا يعتبر نفسه مرتبطاً باتفاق فصل القوات فى اليمن. وسوف يساند الملكيين بأى طريقة يراها مناسبة.

إننى أبديت دهشتى للملك، كما أبديت له استغرابى لكل ما قاله عن خطط تُعَد بين مصر والعراق والأردن.

ثم أطلعنى الملك على تقرير مخابرات سعودى يحوى معلومات عن أن ضباطاً من الجيش المصرى رتَّبوا عملية لقتل «ناصر» يوم ٢٦ يوليو.

وأضاف الملك «إن «ناصر» مريض جداً». ثم أمر الملك بإخلاء القاعة من كل الحاضرين عداه وعداى، وانتهزت الفرصة ورجوت الملك ألا يبعث بقوات إلى حدود اليمن، وأن يحتفظ بما يشاء من قوات فى أوضاع تأهب فى أى مكان يراه بعيداً عن الحدود، وقلت له إننا لسنا متحمسين لتوسيع نطاق الحرب فى اليمن. وتدَخَّل بحدة قائلاً «أخرجوا القوات المصرية من اليمن وسوف ينهار هذا النظام الذى يدعون بمساعدته فى شهر أو اثنين على أكثر تقدير».

ثم استجمع الملك كل حيويته ليقول لى «إنكم يجب أن تبذلوا أقصى جهد للخلاص من هذا الرَّجُل الذى يفتح الطريق للتسلل الشيوعى» ـ وكان يعنى «ناصر». ثم قال «لماذا تصبرون عليه؟ ألا ترون أنه لا يكف عن مهاجمتكم يومياً، مرة بسبب فيتنام، ومرة بسبب كوبا، ومرة بسبب الكونجو؟ ما الذى يخصه فى الكونجو؟ إن مقترحاته بشأن نزع السلاح فى جنيف جاءته مباشرة فى شكل تعليمات من موسكو».

وأبديت تحفظى. ولكن الملك كان لا يزال مُصراً على أن «ناصر» يعادينا ويخدعنا، وأننا ما زلنا نحاول استرضاءه. وذكَّرتُه بأننا عطلنا توريد القمح إلى مصر طبقاً للقانون ٤٨٠. وعقَّب الملك «أوقفوا عنه الطعام تماماً وسوف ترون ما يحدث»..»]

....

....

[وكان ظهور هذه البرقية فى الملفات الإسرائيلية أمراً له دلالته!]

....

....

□

وفى الأوراق الإسرائيلية (عن مصادر أمريكية) ـ التى تتَعرَّض لوقائع تلك الساعات الحرجة أن الرئيس الأمريكى «ليندون جونسون» رأى أن يستوثق من احتمالات غضب الشارع العربى على العروش العربية فى حالة ما إذا شنت إسرائيل هجوماً عسكرياً خاطفاً ضدَّ مصر.

واستقر رأى «جونسون» بمشورة من وزير الدفاع «روبرت ماكنمارا» وموافقة وزير الخارجية «دين راسك» على التوَجُّه بالسؤال مباشرة إلى مَلكَين فى المنطقة تعتبر الولايات المتحدة أن عرشيهما «مسألة تهمها»!

الملك «حسين بن طلال» فى الأردن..

والملك «فيصل بن عبد العزيز» فى السعودية.

□ وبالنسبة للملك «حسين» فقد توَجَّه إلى مقابلته فى عَمَّان (يوم ٢٨ مايو ١٩٦٧) المساعد الشخصى للرئيس الأمريكى فى مجلس الأمن القومى وهو «روبرت كومار»، وفيما يبدو من إشارات ظاهرة فى الأوراق «أن الملك «حسين» بدا قلقاً من انفجار مشاعر شعبه «ونصفه على الأقل» من الفلسطينيين». وكانت مخاوفه أنه فى حالة حرب خاطفة تشنها إسرائيل ضدَّ مصر فإن «المملكة» سوف تكون فى وضع بالغ الحَرَج «أكثر مما تظنون».

□ وأما بالنسبة للملك «فيصل بن عبدالعزيز» فقد توَجَّه إلى مقابلته فى نفس اليوم (٢٨ مايو ١٩٦٧) «ريتشارد هيلمز» مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

كان الملك «فيصل» يومها فى زيارة رسمية للعاصمة البريطانية لندن، وكان هدف الزيارة بحث ترتيبات الأمن فى شبه الجزيرة العربية ومنطقة الخليج بعد جلاء القوات البريطانية عن المنطقة وفق سياسة الدفاع الجديدة التى أعلنها حزب العمال البريطانى، وهى سياسة الانسحاب من شرق السويس!

وتوافق مع زيارة الملك للندن وقتها مجىء وَفدٍ من مشايخ وسلاطين جنوب اليمن يريدون عقد اتفاقيات مع الحكومة البريطانية ومع الملك لحماية أوضاعهم عندما تنسحب القوات البريطانية من عَدَن (١٩٦٨ كما أعلن رسمياً من مجلس العموم).

وطبقاً للوثائق (وفيها ما هو صادر عن السفارة الإسرائيلية فى لندن) فقد كان الهدف الرئيسى الأصلى لزيارة الملك إلى لندن تخيير الحكومة البريطانية بين أحد حلَّين :

□ الحل الأول ـ تأجيل تنفيذ «سياسة شرق السويس» واستمرار بقاء القوات البريطانية فى المنطقة لسنة كاملة على الأقل حتى يتمكن الجميع من ترتيب أوضاعهم، وإلا فإن إتمام الانسحاب البريطانى فى المواعيد المعلنة سوف يخلق فراغاً يملؤه الجيش المصرى ويدخل إلى عَدَن ذاتها.

□ والحل الثانى ـ أن تبذل الحكومة البريطانية مساعيها لإقامة تُجَمُّع يضم كل دول شبه الجزيرة العربية والخليج لكى يكون للمنطقة تجَمُّع إقليمى تتمايز به عن الجامعة العربية، ويكون للسعودية فيه دَوْرٌ مُؤثِّر يوازى الدَّوْر المصرى فى إطار جامعة الدول العربية «التى يوجد مقرها فى القاهرة»!

وكان الترتيب أن يسافر الملك «فيصل» من لندن إلى بلجيكا فى زيارة رسمية يوم ١٨ مايو، لكن الملك الذى عرف بأنباء الأزمة الطارئة فى الشرق الأوسط قرر تمديد إقامته فى العاصمة البريطانية وتأجيل زيارته لبلجيكا أياماً حتى يظل على صلة بالتطورات من العاصمة البريطانية.

....

....

[لم يكن مزاج الملك «فيصل» عند وصوله إلى لندن يوم ٩ مايو رائقاً أو صافياً، فقد قابَلَته فى المطار مظاهرات معادية له نظَّمَتها اتحادات الطلبة العرب فى الجامعات البريطانية، واضطر الأمن البريطانى إلى حشد قوات إضافية حول المطار، وهكذا فإن وصول الملك إلى مطار «هيثرو» بدا أشبه ما يكون بعملية عسكرية. وقد اكتشف بعض المحيطين بالملك أن الحرس السعودى الخاص المصاحب له ليس كافياً فى الظروف المستجدة، وهكذا صَدَرت أوامر



استقر رأى «جونسون» بمشورة من وزير الدفاع «روبرت ماكنمارا» وموافقة وزير الخارجية «دين راسك» على التوجه بالسؤال مباشرة إلى ملكين فى المنطقة تعتبر الولايات المتحدة أن عرشيهما «مسألة تهمها»!
الملك «حسين بن طلال» فى الأردن..
والملك «فيصل بن عبد العزيز» فى السعودية

إلى بعثة دراسية تضم حوالى خمسين من الطلبة الطيارين أن يتركوا دراستهم وأن يلتحقوا بالحرس الشخصى للملك تعزيزاً لأمنه.]

....

....

□

وفى الأيام الأول من زيارة الملك إلى لندن كانت إقامته فى قصر «باكنجهام» ضيفاً على الملكة باعتبار أنها زيارة دولة - وفى القصر اجتمع الملك «فيصل» برئيس الوزراء «هارولد ويلسون» ووزير الخارجية «جورج براون»، إلى جانب قادة عسكريين من هيئة أركان الحرب، واثنين من المسئولين فى هيئة المخابرات البريطانية M. I. 6.

ولا توجد فى الأوراق الإسرائيلية (فى حدود ما قرأت) أية معلومات عما جرى فى هذه اللقاءات سوى أن «ملك السعودية تأكد من تصميم حكومة المملكة المتحدة على إجلاء قواتها من الخليج والجنوب العربى وعَدَن فى المواعيد المقررة فى إعلان سياسة الانسحاب من شرق السويس، وأن الحكومة البريطانية على استعداد لأن تسمع أية مقترحات للملك بفكر مفتوح، ولكن فى إطار سياساتها المعلَنة!

وفيما يظهر من الأوراق فإن الملك قضى بعد ظُهر وليلة السبت ١٣ مايو خارج لندن، وهناك سمع بآخر أنباء الشرق الأوسط (حشود القوات المصرية فى سيناء)، ومساء الأحد ١٤ مايو عاد إلى العاصمة البريطانية ونزل فى فندق «دورشستر». وتلاحظ التقارير الإسرائيلية «أن فندق «دورشستر» كان مزدحماً بالضيوف خصوصاً من رجال شركات البترول الأمريكية والبريطانية وغيرهم جاءوا للقاء الملك أو بعض أفراد حاشيته».

وتشير الأوراق أيضاً إلى أنه برغم إجراءات الأمن المشددة فى فندق «دورشستر» فإن نزلاء كثيرين قصدوا إليه لأسبابهم. ولا تشير الأوراقُ صراحةً إلى أنه كان بين النزلاء عُملاء لإسرائيل - لكنه من الظاهر أن «العيون» كانت هناك لأن التقارير عن إقامة الملك فى الفندق كانت يومية، وإن كانت تفاصيل هذه التقارير لا تُبين - على الأقل فيما قرأت!

وفى هذا المناخ وصل إلى لندن، وإلى فندق «دورشستر»، مبعوث «جونسون» السرى إلى الملك وهو «ريتشارد هيلمز» مدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وتعليماته أن يقيس رَدَّ فعل الملك فى حالة هجوم إسرائيلى على مصر، واتصالاً بنفس الموضوع أن يَسمَع من الملك تقديره لما يمكن أن يكون عليه رَدُّ فعل الشارع العربى فى هذه الحالة، ثم وترتيباً على ذلك أن يستطلع رأى الملك فى أية إجراءات يلزم أن تتخذها الحكومة الأمريكية لحماية «أصدقائها» من غضب الشارع العربى؟!

ولا تقول الأوراق الإسرائيلية بعد ذلك شيئاً سوى إشارة عابرة بأن جناح الملك فى فندق «دورشستر» جرت زيادة تأمينه بواسطة خبراء تابعين لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ثم إن «ريتشارد هيلمز» وَصَلَ إلى الفندق قبل الساعة الحادية عشرة مساء يوم ٢٩ مايو، وكان فى انتظاره هناك مستشار الملك الخاص - وشقيق زوجته الملكة «عفت» - وهو مدير المخابرات السعودية السيد «كمال أدهم». ولم يكن هناك مع الثلاثة رابع، واتصل اجتماعهم إلى قرب الساعة الثانية صباحاً، ثم خرج «ريتشارد هيلمز» متوجهاً إلى المطار وعائداً إلى واشنطن.

وبعد خمس ساعات كان «ريتشارد هيلمز» فى واشنطن قاصداً من المطار إلى البيت الأبيض. ■



١٠ سؤال!

■ ■ يوم ٣٠ مايو ١٩٦٧ دخل إلى البيت الأبيض موفد الحكومة الإسرائيلية المصابة بالقلق - الجنرال «مائير آميت» مدير الموساد، وكان فى صحبته مسئول الأمن القومى الملحق بالسفارة الإسرائيلية فى واشنطن - الوزير المفوَّض «يائير إيفرون».

كان الجنرال «مائير آميت» يتوقع أن يسمع من البيت الأبيض كلاماً مشابهاً لما سمعه «أبا إيبان» قبله بأيام عن ضرورة الانتظار أسبوعين أو ثلاثة. ومع أن الوزير المفوَّض «إيفرون» أبلغ «آميت» قبل تَوَجُّه الاثنين إلى البيت الأبيض أنه «سمع من العصافير (يقصد «إنجلتون» فى الغالب) عن وجود تغيير فى الجو» - فإن الجنرال «آميت» فوجئ بالرئيس «جونسون» يجىء إلى مقابلته فى مكتب مستشاره للأمن القومى «روستو» ثم يُبادره بما مؤداه :

«حسناً.. افعلوا ما تشاءون - ولكن قولوا لنا ماذا تريدون منا؟».

ثم يستطرد «جونسون» :

«بعد أن تفرغ من هنا تَوَجَّه إلى مقابلة ماكنمارا (وزير الدفاع) واطلب ما تريد».

ثم قال «جونسون» ما ملخصه :

«الذى نراه أمامنا الآن أن تشكيل قوة بحرية دولية تقوم بكسر حصار «ناصر» على خليج العقبة مُعَطَّل، وفى نفس الوقت فنحن لا نستطيع أن نطلب إليكم أن تقفوا ساكتين وأمنكم مُهَدَّد، و«ناصر» تجاوز حدوده، والسوفييت فى حالة تَرَدُّد أو حالة انقسام، ونحن نعرف أن فى مقدوركم «ضرب ناصر»، ولكن كل شىء يتوقف على قوة فعلكم وسرعته. تَحَرَّكوا بحسم شديد فيما ترونه لازماً إزاء الخطر الذى ترونه.. القوة والسرعة والحسم سوف تَصُدُّ تَدَخُّل اى أطراف لا تريدونها ولا نريدها - وأطراف أخرى لا نريد إحراجها ولا تريدون أنتم كما أظن!»

ثم يختم «جونسون» بما معناه :

«إننى لا أريدك أن تكشف أمامى أية تفاصيل، ولا أريد أن أقول لك أكثر مما قلت.

لا نريد أن نفعل مثل غيرنا (الراجح انه يقصد «إيدن» فى السويس). نحن لا نتواطأ معكم ولكننا لا نملك اعتراض حقكم فى عمل ترونه حَيَوياً لأمنكم وتعرفون أنكم قادرون عليه.

لا أريد أن أسمع أكثر لأنى أريد أن أكون فى موقف يسمح لى بأن أنفى علمى المسبق بأية تفاصيل - سوى حق إسرائيل فى الدفاع عن نفسها».

وتَدَخَّلَ «روستو» فى المناقشة ليقول ما مؤداه «إن الرئيس يريد أن يكون فى مقدوره أن ينفى نفياً مُقنعاً (plausible deniability) فى حالة ما إذا سُئِل فيما بعد عما كان يعرف ومتى عرف؟!»

□

وهنا يثور سؤال بالغ الأهمية عن الرسالة التى حملها «ريتشارد هيلمز» مدير المخابرات المركزية إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية عن نتائج لقائه مع الملك «فيصل» - بحضور السيد «كمال أدهم» - فى فندق «دورشستر» بلندن يوم ٢٩ مايو ١٩٦٧.

وللأمانة فإنه لا توجد فى الأوراق الإسرائيلية - فيما اطلعت عليه - إجابة عن هذا السؤال، لا مباشرة ولا بالإيحاء!

لكن الملابسات تثير ظنوناً قد يكون لها أساس وقد لا يكون!

....

....

[وسنة ١٩٨٥ كنت أفكر فى كتاب عن عَدَد من الشخصيات الغامضة التى لعبت أدواراً «مُهِمَّة» من وراء الستار فى السياسة العربية، ووَضَعتُ قائمة بأسماء عشرة رجال وَجَدتُ المواصفات تنطبق عليهم، وكان بينهم السيد «كمال أدهم».

وفى لندن ربيع ذات السنة (١٩٨٥) - عرفت أن السيد «كمال أدهم» موجود فى بيته فى العاصمة البريطانية. ومع أنى أعرف الرَّجُل من قبل إلا أننى فضلت أن أطلب موعداً معه عن طريق الدكتور «أشرف مروان» وهو صديق عزيز لى وله - ورجوت الصديق المشترك أن يذكر للسيد «كمال أدهم» سبب طلبى للقائه حتى تكون له فرصة أن يَقبَل أو يعتذر.

واستجاب الرَّجُل (مشكوراً) فحدد للقائنا موعداً فى بيته فى «إيتون سكوير» مُوَضِّحاً أنه لأسباب أمنية لا يستطيع مقابلة أحد - حتى أقرب الأصدقاء إليه - فى مكان عام!

....

....

وحين دخلت على السيد «كمال أدهم» - كان جالساً فى غرفة استقبال على يمين مدخل بيته، ولاحظت أنه لم يتغير كثيراً عن آخر مرة لقيته فيها، فيما عدا أن وزنه زاد إلى حَدٍّ اكتملت معه استدارة وجهه الأبيض (من أصله التركى)، ثم إن شعره (الذى لم أره أسود فى يوم من الأيام) قد أصبح الآن فى لون ثلوج الشتاء. واسترعى انتباهى أن التلفزيون أمامه مفتوح وإن كان صوته غير مسموع بدَرَجَة يصعب معها تمييز ما يَصدُر عنه.

وأراد السيد «كمال أدهم» أن يفسر لى ما لاحظته فقال :

«أنا هنا سجين بيتى. أشاهد تسجيلات خمسة أفلام أو ستة كل يوم، وأتابع بعض



«جونسون» للجنرال «مائير آميت» مدير الموساد: نحن لا نستطيع أن نطلب إليكم أن تقفوا ساكتين وأمنكم مهدد، و«ناصر» تجاوز حدوده، ونحن نعرف أن فى مقدوركم ضربه ولكن كل شىء يتوقف على قوة فعلكم وسرعته

برامج التلفزيون - هذا شاغلي طول النهار. وفي الليل أقابل بعض الأصدقاء هنا أيضاً. ثم أتوجه إلى الطابق الأعلى فأنام - لكني طول اليوم أبقي التلفزيون مفتوحاً حتى ولو كان عندي زوار».

واستطرد بابتسامة : «سوف أقول لك نصيحة أمنيّة مجانية. بعض الناس يتصورون حين يتكلمون ولا يريدون لأحد أن يَتَسَمَّع عليهم أن فتح راديو كفيل بالتشويش. وهذا غير صحيح. الذي يُشَوِّش فعلاً هو تلفزيون مفتوح. ذبذباته المغناطيسية تتداخل مع أية أجهزة حديثة وتُشَوِّش عليها بما لا يسمح بالتَّنَصُّت».

وشكرته على النصيحة الأمنيّة المجانية. وإن لم أستطع أن أكتم سؤالاً وجدته منطقياً : «إذا كانت تلك حياتك فلماذا تسافر إلى خارج السعودية ؟».

ويظهر أن السؤال أحرجه. وبدا من تقاطيع وجهه أن لديه في السعودية - ومنذ اختفاء الملك «فيصل» بالاغتيال قبل عشر سنوات - أسباباً تجعله يَحِن للخروج من «المملكة» بين وقت وآخر.

وآثر هو أن يَرُدّ على السؤال بطريقة أخرى فقال :

«أستطيع أن أبقى في المملكة طول الوقت. لكني من آن لآخر أحتاج إلى تغيير جو»!

وقلت : «لكن حياتك على هذا النحو الذى وصفته لي ليست تغيير جو».

ورَدّ وقد علت نبرة صوته :

«ماذا أفعل يا أخي. صديقك معمر القذافي يهددني. يطاردني ويريد خطفي. وقد كَلَّف عدداً من عملائه الإرهابيين - وبينهم «كارلوس» - أن يخطفوني بأي ثمن من أي مكان».

ولم ينتظر السيد «كمال أدهم» أن أسأله. فسبق جوابه سؤالي :

«تسألني عن السبب الذي يريد القذافي من أجله خطفي ؟ هو يتصور أن لدى أسراراً كثيرة عن كل ما جرى ويجرى في العالم العربي. وهو يسعى لخطفي لأنه يريد استجوابي بنفسه ليحصل مني على كل سِر أعرفه!»

وكان ذلك مدخلنا إلى أحاديث الرجال العشرة الغامضين. الذين يمارسون أدوارهم من وراء ستار على المسرح السياسي المحلي والإقليمي والدولي في الشرق الأوسط - وقد تَحَدَّث «كمال أدهم» فيما سألته فيه. وكان بعض ما قاله مُشَوِّقاً ومُثيراً!

وفي منتصف الحديث توقفت بسؤال مفاجئ.. عن لقاء الملك «فيصل» بمدير وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «ريتشارد هيلمز» في فندق «الدورشستر» ليل ٢٩ مايو ١٩٦٧ ؟

وهل عرف منه الملك أن شيئاً ما يُدَبَّر لمصر أو لـ«جمال عبد الناصر» ؟»

(لم أكن وقتها قد اطلعت على الوثائق الإسرائيلية. لكن لقاء مدير المخابرات المركزية الأمريكية مع ملك السعودية كان مذكوراً من وقت مُبَكِّر في الوثائق الأمريكية - دون تفصيلات).

على أنه إذا كان السيد «كمال أدهم» قد فوجئ بالسؤال فإنه لم يستغرق وقتاً طويلاً في التغلب على المفاجأة. والحقيقة أنه تمالك أعصابه بسرعة رَجُل مخابرات مُدَرَّب - وأجاب على السؤال بسؤال كما هي العادة مع أي رَجُل مُدَرَّب أمنياً!

قال: «لماذا تسأل هذا السؤال ؟»

وقلت: «لأنه بالفعل يُحَيِّرُني منذ قرأت برقية السفير الأمريكي عن مقابلته للملك في قصر الشبرا» (وكنت حصلت عليها (سنة ١٩٨٥) بمقتضى قانون حرية المعلومات!)

وعاد السيد «كمال أدهم» يسألني: «هل تريد أن تتهم الملك بأنه تواطأ مع الأمريكان مباشرة - ومع الإسرائيليين بالوساطة - ضِدّ مصر.

وقلت : «إنني لا أتهم الملك بشيء. ولكني أسألك ؟»

ورَدّ السيد «كمال أدهم» وقد طلب مني أن أتوقف عن تسجيل إشارات متفرقة استأذنته في كتابتها على صفحات دفتر صغير أحمله حتى يظل سياق الحديث معي.

ووضعت الدفتر والقلم على المائدة بجوار فنجان القهوة - وراح السيد «كمال أدهم» يقول وبعض ما قاله - ولهجته خصوصاً - تُشعِر سامعه بأن الكلام فعلاً من قلبه :

«اسمع.. لست سياسياً مثل الآخرين أقول أي كلام والسلام. ما سألتني فيه لن أرد عليه. ولكني أريدك أن تعلم. وأنا أقولها لك بمنتهى الصراحة :

صديقك الرئيس «جمال» كان في مواجهة مفتوحة وعنيفة ضِدّ المملكة. والمعركة كانت سياسية ونفسية - وأخيراً أصبحت عسكرية (في اليمن).

والملك فيصل مسئول عن مملكته. مسئول أمام أسرته. مسئول أمام إخوته وأبنائه يُسَلِّم لهم الأمانة كاملة كما استلمها. واجبه واضح أمام العرش والأسرة. وعليه أن يتصرف بما يحقق «المصلحة». وهذا هو كل شيء وليس هناك شيء آخر.

لا تستطيع أن تُسائل الملك فيصل - عليه رحمة الله - إلا فيما هو مسئول عنه : العرش والأسرة. وهل نجح في حمايتهما طوال حُكمه أو لم ينجح؟ - وهل كانت المملكة أقل أو أكثر استقرارا عندما تركها عما كانت عليه عندما تسلمها ؟ - هذا هو «المحَك»!

كان الخطر الأكبر علينا أيام مُلكه - عليه رحمة الله - هو صديقك الرئيس جمال. وبالنسبة لنا في المملكة فإن فيصل انتصر في التهديد الذي مثّله علينا الرئيس جمال. ونحن لا نتعب رؤوسنا بكثرة الأسئلة ولا بالخوض في الحكايات والتواريخ...».

وسكت السيد «كمال أدهم» وهو يشعر أنني أتابعه بتركيز شديد :

«كنت صريحاً معك. لم أتكلم كلام سياسيين. ولم أتكلم كلام رَجُل غامض. كلمتك بصراحة وأنت حُرّ فيما تفهمه مما قلت!»]

....

....

[المدهش أنني بعد سنوات من هذا اللقاء مع السيد «كمال أدهم» في لندن سمعت نفس الكلام - بسياقه وألفاظه تقريباً - من أحد الأمراء الشبان اللامعين في الأسرة المالكة السعودية].

....

....



كمال أدهم: الملك فيصل مسئول عن مملكته. مسئول أمام أسرته. مسئول أمام أخوته وأبنائه يسلمهم الأمانة كاملة كما استلمها. واجبه واضح أمام العرش والأسرة، وعليه أن يتصرف بما يحقق المصلحة، وهذا هو كل شئ، وليس هناك شئ آخر

ملحوظة :

فيما بعد. وبعد أن قابلت الرجال الغامضين العشرة الذين اخترتهم. غَيَّرت رأيي في مشروع الكتاب كله - واعتذرت للناشر الذي كان يلح في طلبه. وهو «أندريه دويتش» - وكان ظني بمراجعة نفسي أن هناك في المنطقة - وقتها - قضايا أسبق إلى الاهتمام من عشرة رجال غامضين مارسوا أدوارهم من وراء ستار على مسرح سياسي تجري أخطر وقائعه وراء الضوء - وبعيداً عن عيون الناس!]

....

....

١١ حسين

يجيء بعد ذلك أن موقف الملك «حسين بن طلال» طوال أزمة مايو ويونيو ١٩٦٧ يستحق الكثير من التدقيق. ولعله أيضاً يساوي النظر إليه بفهم لعلّه يَتَّسِع لما هو أكثر من أحكام «القيمة» المجَرَّدة - ولعلّه يَضَع في اعتباره أحكام «الحقيقة» السياسية (خصوصاً عندما تَمُرّ السنون وتَتَحَوَّل السياسة إلى تاريخ!)

والحقيقة السياسية في موقف الملك - شديدة الوضوح في الأوراق الإسرائيلية (وفي الأوراق الأمريكية أيضاً) - لكنها في المصادر العربية مُلتَبِسة بكثير من الإنشاء. أكثره يَتَّهم وأقله يُدافع. لكنه بين الاتهام والدفاع يَزداد الالتباس!

وفي الوثائق الإسرائيلية والأمريكية يَظهَر جَليّاً أن الملك «حسين» كان يعرف عن ذلك «المَوعد مع الحرب» ضِدّ مصر في صيف سنة ١٩٦٧.

والدليل على ذلك قَدَّمه الملك بنفسه - في ذلك الموقف الجسور - والذي يُحسَب له بصرف النظر عن أي اعتبار آخر - حين طلب من الفريق «عبد المنعم رياض» أن ينقل عنه رسالة تحذير للرئيس «جمال عبد الناصر» تنبهه إلى فَخّ يُدَبَّر لمصر وله بمشاركة عناصر من القيادة السورية مُختَرَقة ومُتَواطئة!

لكنّ هذه المبادرة بالتحذير التي قام بها الملك يوم أول مايو (عن طريق الفريق «عبد المنعم رياض») - تبعتها مبادرة ثانية قام بها الملك بنفسه. وهي مبادرة «بالمشاركة» عن طريق رسالة بَعَثَ بها الملك (إلى «جمال عبد الناصر») مع السفير المصري في الأردن عارضاً أن يجيء بنفسه لبحث «الدور الذي يمكن أن يقوم به الأردن في مواجهة قومية لا يستطيع أحد أن يَتَخَلَّف عنها»!

□

وفيما تُظهِره الوثائق الأمريكية والإسرائيلية (خصوصاً فيما اطلع

عليه ونقل عنه الأستاذ «مايكل بريشر») فإنه لا توجد إشارة إلى أن «مبادرة التحذير» التى قدَّمَها الملك وَصلَت إلى عِلم أحد سواء من الأمريكيين أو الإسرائيليين.

لكنه فيما يتعلق بـ«مبادرة المشاركة» وهى مجىء الملك إلى مصر لتنسيق موقفه مع موقف «جمال عبد الناصر»! - فى إطار ما هو مُحتمَل أو ما هو قادم - فإن الإشارات كافية لرسم صورة مجملها :

١ - أن الملك قَرَّرَ «المبادرة بالمشاركة» - أو على الأقل بعرض المشاركة - يوم ٣٠ مايو، وهو نفس اليوم الذى تاكد فيه أن الرئيس «جونسون» قد توافق بالكامل مع إسرائيل، وأن الاختلاف بين الجانبين حول التوقيتات والأولويات تَمَّ حله، وأن الجنرال «مائير آميت» مدير المخابرات الإسرائيلية (الموساد) تلقى الضوء الأخضر الذى تنتظره إسرائيل من البيت الأبيض. وبالتالى فإن الحرب مسألة ساعات وأيام!

٢ - أن الولايات المتحدة على الأقل جرى إخطارها بأن الملك فى سبيل اتخاذ مبادرة مباشرة مع القاهرة، وأنه قد يَتَوَجَّه إليها - إذا ما جاءه الرد الملائم - لمقابلة مع الرئيس «جمال عبد الناصر».

وفيما يتعلق بإسرائيل فإنه لا يبدو فى الأوراق أنها عرفت مسبقاً عن مبادرة الملك يوم ٣٠ مايو - والمحسوس به فى الوثائق الإسرائيلية (دون نصوص تَدُلُّ بيقين) - أن ما عرفته إسرائيل هو ما قيل لها عن طريق الولايات المتحدة، ومؤداه «أن ملك الأردن مضطرٌ إلى مناورة بالغة الصعوبة وإلا فقَدَ عرشه، لأنه فى حالة نشوب معارك بين مصر وإسرائيل فإن الضغوط الشعبية داخل المملكة سوف تُفرض على الملك ما لا قِبَلَ له به، فإما أن يَتَصَدَّى لغضب الشارع فى بلاده بعُنف غير مسبوق، وإما أن يَكتَسِح غضب الشارعَ أمامه كل شىء!

وبالتالى فإنه إذا أريد للعرش الهاشمى أن يَظَلَّ فى عَمَّان، وإذا أريد للملك «حسين» أن يواصل «دوره» الهام فى المنطقة - فلا بد من معاملته فى هذه الأزمة بطريقة أكثر مرونة (more liberal) طبق نَصٍّ فى تقرير اطلع عليه الأستاذ «بريشر»، وهو وارد فى تقرير كتبه «يائير إيفرون» الوزير المفوَّض فى السفارة الإسرائيلية فى واشنطن، (وهو مسئول الاتصال الرئيسى مع مجلس الأمن القومى الأمريكى فى البيت الأبيض).

٣ - إن الوثائق تذهب إلى أبعَد من ذلك فى كشفها لدقائق الصورة فتُبَيِّن أن الولايات المتحدة الأمريكية - وبعلم إسرائيل - تَوَلَّت ترتيب خروج ٢٥ طائرة مقاتلة أمريكية من طراز «ف ١٠٤» - قدمتها الولايات المتحدة إلى الأردن وكانت تمثل العمود الفقرى لقوته الجوية، وكان الملك عن طريق الجنرال «عامر خماش» رئيس أركان حرب الجيش الأردنى قد طلب ذلك من السفير الأمريكى فى عَمَّان (فور عودته من القاهرة يوم ١ مايو ١٩٦٧)، وتَمَّت الاستجابة للطلب على وجه السرعة، وانتقلت الطائرات بالفعل إلى قواعد عسكرية أمريكية فى «تركيا» قبل أن تبدأ العمليات الإسرائيلية صباح ٥ يونيو ١٩٦٧.

وكان بين الأسباب التى دَعَت إلى طلب إخراج هذه الطائرات - وكما يبدو الآن - أن الملك «حسين» اتفق أثناء لقائه مع «جمال عبد الناصر» فى القاهرة على أن يتولى ضابط مصرى برتبة «فريق» قيادة القوات الأردنية فى المعارك القادمة (وقد وقع اختيار الملك بنفسه على الفريق «عبد المنعم رياض» ليتولَّى المسئولية الرسمية للجبهة الأردنية!) - ولم يكن أحد من العارفين بدخائل الأمور يريد أن يجد «عبد المنعم رياض» أمامه ٢٥ طائرة مقاتلة على مسرح العمليات الذى أصبح مسئولاً عنه ثم يُقرِّر - ولو نظرياً - محاولة استعمالها!

٤ - إن الملك الذى لم يكن يريد أن يُعَرِّض جيشه لانفلاتات لا داعى لها اعتمد منذ البداية تطبيق نظرية الجنرال «جون باجيت جلوب» («جلوب» باشا القائد البريطانى لجيشه حتى سنة ١٩٥٦) - وهى نظرية تَستَنِد إلى «عقيدة» لا تقبل «اللعب» - ملخصها :

- أن المملكة الأردنية الهاشمية ليس لها عَدُو مسلح يملك جيشاً يستطيع تهديدها، وذلك لأن المملكة مشمولة بنظام أمن غربى يكفل ردع أى جيش محلى (الجيش السورى أولاً لأسباب سياسية - والجيش السعودى ربما لأسباب عائلية).

- وفيما يتعلق بإسرائيل فإن أى جيش أردنى مهما بلغت درجة تسليحه لا يستطيع الوقوف فى وجهها - وأن ما يحمى الأردن فى الواقع من أى خطر إسرائيلى - على فرض وقوعه - هو ضمان الولايات المتحدة الأمريكية. ويترتب على ذلك أنه إذا حدث فى ظرف من الظروف أن بدا خطر هجوم إسرائيلى وشيك فإن الجيش الأردنى «حفاظاً على قوته وحرصاً على بقائه باستمرار جاهزاً لتنفيذ المهام القتالية الموكولة إليه - عليه أن ينسحب دون اشتباك، تاركاً للسياسة العليا الأردنية مهمة استعادة أية أراض قد تدخلها القوات الإسرائيلية».

- ومعنى ذلك فى المحصلة أن التهديد المحتمل على المملكة ليس له مَصدَر إلا الأوضاع الداخلية الأردنية وتَحَدِّياتها - وذلك معناه أن العقيدة القتالية للجيش الأردنى هى «المحافظة على العرش وعلى النظام العام فى البلاد».

□

كانت هذه السياسة ما تزال مُعتَمَدة فى الأردن، ومقبولة من الأطراف الأخرى، وفى مقدمتها الولايات المتحدة وإسرائيل - حتى بعد أن قام الملك «حسين» بزيارته «المفاجئة» إلى القاهرة يوم ٣١ مايو، ثم عاد منها إلى عَمَّان ومعه «الفريق عبد المنعم رياض» قائداً عاماً لقوات الجبهة الأردنية!

والدليل على ذلك هو نص الأمر الصادر إلى قوات الجيش الإسرائيلى بمقتضى توجيه مجلس الوزراء الإسرائيلى الصادر يوم ٤ يونيو (وكان الجيش قد فَرَضَ - بشبه انقلاب - عودة الجنرال «ديان» قبلها بيومين وزيراً للدفاع).

كانت مقدمة التوجيه تقول إنه «بعد الاستماع إلى تقارير عن الموقفين السياسى والعسكرى قدمها رئيس الوزراء، ووزير الخارجية، ووزير الدفاع، ورئيس الأركان، ومدير الموساد - تأكدت الحكومة أن جيوش مصر وسوريا والأردن مُنتَشِرة بهدف شن عدوان فورى على جميع الجبهات، بما يشكل تهديداً فى الصميم لوجود إسرائيل.

وبناء عليه «خَوَّلَت الحكومة رئيس الوزراء ووزير الدفاع بالتصرُّف مع اختيار ساعة الصفر بالاتفاق مع هيئة الأركان العامة لجيش الدفاع الإسرائيلى».

لكن تفصيلات تنفيذ القرار كما وضعت بعد ذلك بين رئيس الوزراء ووزير الدفاع ورئيس الأركان كانت (حسب ما تقول به الأوراق الإسرائيلية بما فيها مذكرات للجنة الأمن والدفاع فى مجلس الوزراء) ظلت على ما هى عليه:

١ - الجهد الرئيسى «لقوات جيش الدفاع الإسرائيلى» مُوَجَّه ومُرَكَّز ضد الجبهة المصرية بمقتضى الخطة الأصلية بالإضافة إلى التعديلات التى عرضها وزير الدفاع وتُصَدِّق عليها (وهى الوصول إلى «شرم الشيخ» واحتلالها، وبعدها «رأس محمد»، بما يجعل جبال سيناء الجنوبية عازلاً بين القوات الإسرائيلية والقوات المصرية).

٢ - ووضع دفاعى فى حدود ما هو لازم إزاء الجبهة السورية.

٣ - ولا عمليات على الجبهة الأردنية. وفى حالة حدوث أى تعقيدات غير مُنتَظَرة تجرى العودة إلى وزير الدفاع لتَلَقِّى الأوامر مباشرة منه!

وتشير الأوراق الإسرائيلية فى أكثر من موضع إلى أن المخابرات الإسرائيلية فى تقديراتها «لاحتمالات أى تعقيد غير مُنتَظَر على الجبهة الأردنية» تَحَسَّبَت لتداعيات تَقَع «دون علم الملك» فى مناخ حافل بالفوضى، أو تصرُّف يقوم به «ضابط مجنون» يأخذ الأمور على عاتقه!

وكانت تعليمات رئيس الوزراء إلى وزير الدفاع أنه «إذا طرأ موقف من هذا النوع فإن عليه أن يحاول «حصره» محلياً، وأن يتصل على الفور «بالطُرق المعروفة» لتنبيه الملك «حسين» كى «يتدارك الموقف»، فإذا لم يكن هناك استجابة فورية تحتوى الأمور، فإن الجنرال «ديان» كان مُخَوَّلاً بأن «ينتهز الفرصة ويدخل القدس القديمة ويحتل حائط المبكى ويَنتَظِر هناك!»

(وبذلك تكون إسرائيل فى زحمة الحوادث قد «لَطَشَت» snatched جائزة يفرح ويُهَلِّل لها الشعب اليهودى فى كل مكان).

□

وهكذا فإن السؤال عن حقيقة موقف الملك «حسين» فى حرب سنة ١٩٦٧ يصبح سؤالاً مشروعاً - وأن من «المنطقى» أن تأخذ الإجابة عليه فى اعتبارها أحكام «القيمة» المجردة - وإلى جانبها - فى نفس اللحظة - أحكام «الحقيقة» السياسية.

وفى الأوراق الإسرائيلية ما فيه الكفاية عن موقف الملك «حسين» عندما بدأت العمليات:

١ - أمرٌ منه إلى اللواء «عامر خماش» وزير الدفاع الأردنى بالانسحاب المنظم من الضفة الغربية والقدس إذا بَدَت إشارات تَدُل على أن الجيش الأردنى مُعَرَّض لمواجهة تؤثر على قوته واستعداده، وذلك بصرف النظر عن أية تعليمات يصدرها القائد العام المصرى للجبهة الفريق «عبد المنعم رياض»

٢ - تعليمات إليه (اللواء «خماش») بأن يتفادى أى خلافات مع الفريق «عبد المنعم رياض»، وأن يَتَقَبَّل منطوق أوامره دون أن يَتَصَرَّف بمقتضاها إلا بعد الرجوع إلى الجهات العليا!

٣ - ثم وفى مُطلق الأحوال أن يتحاشى الجيش الأردنى أية «إشكاليات» مع المدنيين فى الضفة والقدس إذا لاحظوا انسحابه وإفهامهم



الولايات المتحدة الأمريكية - وبعلم إسرائيل - تولت ترتيب خروج ٢٥ طائرة مقاتلة أمريكية إلى قواعد أمريكية فى تركيا من طراز «ف ١٠٤» - قدمتها إلى الأردن وكانت تمثل العمود الفقرى لقوته حتى لا يجدها «عبدالمنعم رياض» أمامه على مسرح العمليات ثم يقرر - ولو نظريا - محاولة استعمالها

«بالحسنى» أن تحركات الجيش تجرى وفق خطة مُرَتَّبة مع «القيادة المصرية»!

وبصرف النظر عن «حكم القيمة» على هذه التعليمات فإن «حكم الحقيقة السياسية» له منطق داخلي يَصعُب إغفاله مؤدّاه (حسب رواية الملك نفسه) :

ـ أن الملك «حسين» كان يعرف بشكل ما هو قادم، ويَعتَبِر نفسه قد أخلى ذمّته بتحذير القاهرة مبكراً منه برغم مَخاطِر كان مُحتَمَلاً أن يَتَعَرَّض لها.

ـ وأنه كان يدرك تماماً فارق القوة والاستعداد بين الطرفين في المعركة القادمة، ويرى التَّفوُّق مؤكدا لصالح إسرائيل.

ـ وأنه إذا كانت محاولته للتحذير المبكر لم تُسمَع في أوانها ـ فإن محاولته لتغيير مسار الأزمة أكبر من طاقته.

ـ وأنه والحال كذلك لم يتبق أمامه غير أن يحاول قدر ما يستطيع إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

ـ على أنه إذا حَدَثَ ما لا يريد فإن أمله الواقعي مُعلّق بالولايات المتحدة الأمريكية وحدها ـ وليس على غيرها.

ـ وأنه مُطالب بقدر من مرونة الحركة يَتَفوَّق به على كل ما واجهه من قبل في عمره الحافل بالأزمات ـ ومعنى ذلك أنه مضطر إلى أن يساير إلى أقصى حد يستطيع فيه أن يساير، ويكسَب لنفسه وقتاً مهما كان الثمن، ويَتَجَنَّب ما لا بد أن يَتَجَنَّبه مهما بَدَت خسائره.

ـ وفي كل الأحوال فإن شعبه سوف يرى بعد انتهاء المعارك أن ما فعله كان «عقلاً»، وأنه حتى إذا تَعَرَّض جزء من أرضه لحماقة إسرائيلية غير مُتَوَقَّعة فإن سلوكه أثناء الأزمة هو وحده الذي يكفل له تعاون الأمريكيين في إعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الحرب ـ وحينئذ سوف يكتشف شعبه أن موقف ملكه لم يكن «عقلاً» فقط وإنما كان «صواباً» ـ أي مصلحة إلى جانب أنه «عقل».

□

والحقيقة أن موقف الملك «حسين» (سنة ١٩٦٧) ليس وحده الذي يثير التساؤل، ولكن يثير التساؤل موقف كل الملوك العرب.



١٢ الملوك

بمعيار «القيمة المجَرَّدة» فإن مواقف الملوك العرب ـ دون استثناء ـ سنة ١٩٦٧ يَصعُب قبولها . لكنه بمعايير «الحقيقة السياسية» (التي تتحوّل الآن بمُضىّ السنين إلى تاريخ) فإن مواقف الملوك العرب إذا أمكن فهمها ، قد يصعب تبريرها أو الدفاع عنها.

أول أسباب الفهم هو القبول بأن أي طرف فاعل في أزمة لا يمكن الحكم على

تصرفاته خلالها إلا على أساس «مرجعياته».

وهنا فإن «مرجعيات» أي طرف هي: تربيته، ونشأته، ورؤيته لعالمه، ودوره فيه، ومسئوليته إزاء هذا الدور وتقديره هو ـ وليس تقدير غيره ـ لترتيب التناقضات التي تُمَثِّل المخاطر والتهديدات المحتَمَلة أمامه» .

وفيما يتعلق بالملوك العرب فإنه يمكن ملاحظة ما يلي :

١ ـ أن رؤيتهم لمصلحة أوطانهم ولأمن هذه الأوطان يرتبط ارتباطا وثيقاً لا ينفصم بفكرة النظام الملكي من البداية حتى النهاية.

٢ ـ أن النظم التي التبس فيها «أمن الوطن» بـ«أمن المُلك» قامت بحقائق الواقع العربي الحديث على أسَرٍ حاكمة تنافست مع أسَرٍ حاكمة أخرى . وكان الحَكَم النهائي بين الطرفين قوى أجنبية (بريطانيا ـ ثم الولايات المتحدة الأمريكية).

٣ ـ أن الاتصال والتعاون بين هذه الأسَر الحاكمة ومع القوى الأجنبية ارتبط تقليدياً بمصالح أمن وثروة يستحيل حمايتها دون هذا الاتصال والتعاون ، وأن تقنين هذا الاتصال والتعاون وتحويله إلى إستراتيجيات هو أمرٌ لا بد من إعلانه وإشهاره ليؤدي دوره في التأثير على «الخصوم» قبل أن تفرض الظروف ضرورة «ردعهم»!

٤ ـ إن عقيدة أي مُلك (على عُهدَة السيد «كمال أدهم» صهر الملك «فيصل» ومستشاره ومدير مخابراته) هي : المحافظة على المُلك ـ والأسرة ـ وبقاء العرش ـ واستمرار توارثه بسهولة ابنا عن أب ـ وذلك هو ضمان الاستقرار الملكي .

٥ ـ يضاف إلى ذلك (وهنا يتماثل موقف الملوك العرب (رغم فوارق شاسعة) مع موقف ملوك الحلف المقدّس للملوك إزاء «نابليون» في أوائل القرن التاسع عشر) أن هناك نُظماً ثورية ظهرت في العالم العربي ـ ومهما كانت الأسباب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي دَعَت هذه النظُم فإن ظهورها كان خطراً على الملوك، ومُعادياً لهم مباشرة . ومُهَدِّداً لأوطانهم من وجهة نظرهم . ثم إن ظهور بعض هذه النُّظم استقطب مشاعر كُتَل كبيرة من رعايا الملوك رغم إرادتهم وتَحَدِّياً لسُلطانهم .

٦ ـ يزيد على ذلك في حالة الملوك العرب اعتقادهم إلى درجة اليقين بأن «النظم الثورية» لا تستطيع أن تتحدّى القوى الكبرى في المنطقة (وبالتبعية إسرائيل) ـ ومحاولة مثل هذا التحَدّي «مُغامَرة وطَيْش» كلاهما مُرتدٌّ على أصحابه ـ وربما على غيرهم!

ومع أن هذه المقولات يمكن مناقشتها ، فإن أي مناقشة مع طرَف بالتناقض مع مرجعيته جهد ضائع لتعارضه مع طبائع الأشياء .

وربما أعترف أنني في محاولة فهم موقف الملوك العرب أثناء أزمة ١٩٦٧ استفدت كثيرا من قراءات واسعة ـ سابقة ولاحقة ـ تبدأ من «ماكيافيللي» في كتابه الكبير بعنوان «الأمير» Principe وتصل إلى «ريبيكا وست» في كتابها الشهير بعنوان «معنى الخيانة» The meaning of treason.

ـ كان «ماكيافيللي» يعطي للأمير (للدولة) ومطالب الحكم والسلطة رخصا مفتوحة يصعب أن تنطبق عليها «معايير القيمة المجردة».

ـ وكانت «ريبيكا وست» تناقش قضية كبرى أثارتها وقائع الحرب العالمية الثانية العظمى ما بين سنة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥، وهي قضية المسئولية العامة كما يراها الذين يتعرضون لامتحان المفاجآت على غير انتظار. وضمن ما ناقشته «ريبيكا وست» فيما كتبته: موقف ماريشال فرنسا «فيليب بيتان» وهو الذي اعتبر في الحرب العالمية الأولى «بطلا منقذا» لفرنسا من الغزو الألماني، ثم اعتبر في الحرب العالمية الثانية «مستسلما مفرطا» في علاقته مع الاحتلال الألماني.

كان «بيتان» في موقفه الثاني ـ المستسلم المفرط ـ قد تصرف وفق «الحقيقة السياسية» من منظوره في لحظة بعينها: بريطانيا تريد أن تحارب عن بعد من جزيرتها ـ وأمريكا معتزلة وراء المحيط الأطلسي ـ والجيش الفرنسي عاجز أمام قوات «هتلر» سلاحا وتنظيما وإرادة وقيادة، ونصف فرنسا وفيه باريس تحت الاحتلال ـ والنصف الآخر لا داعي لاحتلاله إذا أمكن إنقاذه؟ ـ كذلك كان تقدير الماريشال لمسئوليته أمام المفاجأة غير المنتظرة لهزيمة الجيوش الفرنسية الساحقة!

وفي العالم العربي ظهرت وتوالت نماذج مما تعرض له «ماكيافيللي» مع «أميره»، ومما تعرضت له «ريبيكا وست» في «معنى الخيانة»، وبينه مثلا:

ـ هل خان الملك «فاروق» ـ واختار الجانب الخاسر في الصراع العالمي ـ عندما قرر أن يجري اتصالات مع الألمان عن طريق طهران ـ ليضمن أوضاع مصر بعد «هزيمة بريطانيا» ـ وكان تقديره أن الحرب سوف تنتهي بهزيمتها؟

ـ هل خان «مصطفى النحاس» (باشا) ـ عندما قبل الحكم يوم ٤ فبراير من يد السفير البريطاني الذي حاصر قصر «عابدين» بالدبابات في ذلك اليوم ـ وفرض على «ملك البلاد الشرعي» قرارا لم يكن ليقبله بمحض إرادته؟

....

....

[وبغير العودة إلى «ماكيافيللي» أو «ريبيكا وست» فقد سمعت الملك «حسين» يقول لي في لندن مرة:

«لماذا يقال عن جدي الملك «عبد الله» أنه خائن لأنه تعاون مع الإنجليز وهم المنتصرون في الحرب العالمية الثانية ـ ولا يقال عن الحاج «أمين الحسيني» مفتي فلسطين أنه خائن لأنه تعاون مع «موسوليني» و«هتلر» وهما الطرف الذي خسر الحرب؟ ـ ينسى الجميع أنه حين تعاون الحاج «أمين» مع الألمان والطليان فإنه فقد تعاطف الحلفاء مع قضيته (فلسطين) ـ وأول الحلفاء الأمريكان!]

....

....

وطبقا للوثائق الإسرائيلية، والوقائع تقترب من ٥ يونيو سنة ١٩٦٧، وذلك «الموعد مع الحرب» تتحدد ساعة الصفر فيه بالدقيقة والثانية ـ فإن العالم العربي بدأ ـ بصرف النظر عن كل مطالب «القيمة المجردة» ومطالب «القيمة السياسية» ـ ومع تحول السياسة بمضي المدة إلى تاريخ ـ في أوضاع تدعو إلى فيضان من الحزن يغمر الجميع ـ أكثر مما يستدعي حصر قوائم اتهام تمسك بتلابيب أحد!



بمعيار «القيمة المجردة» فإن مواقف الملوك العرب ـ دون استثناء ـ سنة ١٩٦٧ يصعب قبولها . لكنه بمعايير «الحقيقة السياسية» (التي تتحول الآن بمضى السنين إلى تاريخ) فإن مواقف الملوك العرب إذا أمكن فهمها، قد يصعب تبريرها أو الدفاع عنها



كلينتــــــون
فى حـديث الــوداع:

أغـادر البـيت الأبيـض وأنا أكثر واقعية مما كنت!

هارولد إيفــانــز

الأرقام لا تكذب. ذلك أن التأييد الشعبي لكل الرؤساء يهبط في السنة الأخيرة من فترة حكمهم، ولكن شعبية كلينتون، الذي وجهت له التهم، بلغت رقماً غير معتاد هو ٦٧ بالمائة. وبذلك يتفوق على أي رئيس بعد الحرب العالمية الثانية

سوف أغادر البيت الأبيض وأنا أكثر واقعية مما كنت عليه عندما دخلته. فيما يتعلق باعتقادي بشأن قدرة نظامنا وشعبنا على التغيير وعلى أن يحل المشاكل حلاً فعلياً، أو على الأقل يحد منها. وقد تحايلنا على أمور كثيرة

زار الرئيس كلينتون فلوريدا زيارة توديعية في الشهر الماضي، في سياق يتناسب مع اقتراب شمس الآلهة على المغيب. فأزمة الشرق الأوسط كانت على شفا الانفجار. وكان المحامي المستقل قد قدم للتو التقرير النهائي عن قضية وايتووتر. وفي ميامي، انفتحت أبواب السماء وصبت ما ارتفاعه عشر بوصات من الأمطار خلال دقائق كثيرة. وقد أغرق الماء رجال المباحث بحيث بدت من تحت ملابسهم الخطوط الخارجية لأسلحتهم الفتاكة، وكانوا يرتعشون ويغلون غضباً بينما كان الرئيس يقفز سعيداً خلال أشجار النخيل وممرات المنازل الخاصة التي غمرتها المياه، من أجل جمع المال لحملة زوجته هيلاري الانتخابية. وفي المساء، وفي طريق العودة إلى مطار ميامي، تخلى فريق الصحفيين المصاحب للرئيس عن موقف يتسم بالسخرية والشك بعد ما بدا كلينتون عاقداً العزم على المخاطرة بحياته وبحياتنا.

كان الكل يصيحون: «ليطلب منه أحد ألا يفعل ذلك! إنه مجنون! إنه مجنون!» كانت المياه تغمر المطار الذي أغلق أمام حركة الطيران. ولكنه توجه إلى الممر على ما كان عليه من حالة مخيفة أثناء البرق والرعد، وصعد درج طائرة السلاح الجوي رقم واحد بكل ثقة في رحلة إلى شمالي نيويورك. وكان واضحاً أنه لا يمكن لأية طائرة، حتى ولو كانت الطائرة رقم واحد في سلاح الجو، أن تغامر بالإقلاع، ولكن كلينتون جلس فيها وهو يكاد يطير. وبعد ساعة استسلم للتحدث تليفونياً إلى من أصابهم الإحباط. «لابد من القول بأن لدي شعوراً بالنحس. فكل مرة أعتزم فيها السفر إلى شمالي نيويورك يحدث أمر ما... قد تذكرون أنه في المرة الماضية انكسرت ساقي. كنت أتطلع بالفعل إلى المجيء». وكان الأمر كذلك بالفعل.

وفي تلك الليلة كان لا يزال يقاوم النحس. ففي فندق بالتيمور بكورال جيبلز، الذي كان يعوم في الوحل، كان جالساً في المساء ليشاهد مناظرة جور وبوش حين انقطع إرسال التليفزيون. فعلى كل شاشات التليفزيون في الفندق لم يكن هناك سوى خطوط رمادية بدلاً من بوش وجور. ونشطت الحركة مرة أخرى، وخلال دقائق كان الرئيس منطلقاً من جديد يندفع بابتهاج عبر العواصف والفيضانات في الخارج، بحثاً عن منزل به طبق من أطباق القنوات الفضائية.

كنت قد أجريت معه مقابلة في كابينته على متن طائرة السلاح الجوي رقم واحد وكان مقرراً أن أتحدث معه مرة أخرى في طريق العودة. ولاحظت عندما غادرنا قاعدة أندروز الجوية في ذلك الثلاثاء الأول من شهر أكتوبر أنه يعرج عرجاً خفيفاً وهو في طريقه من الهليكوبتر إلى الطائرة. وقد تمنينا جميعاً ألا يقلل ما بذله من جهد في الفيضانات - بالإضافة إلى جولة جولف مشبعة بالماء صباح يوم الأربعاء - من حركته. إلا أن آلافاً من أهل فلوريدا في جاكسونفيل تكدسوا في صالة ضخمة زينت بالأعلام، حيث كان كورال من السود يردد الأناشيد الدينية بصوت مرتفع، وكانت هتافات الجماهير المتتابعة عند دخوله كأنها أمواج بحر هادرة تتلاطم عند ساحل فلوريدا. انتشى هو، وتحدث بجدية عن الديون وعن شركات الأدوية «التي تعرفون جميعاً أنها تتعامل في الأسهم الممتازة». واستمر بعد ذلك في الكلام لمدة نصف ساعة، تشجعه على ذلك الهتافات. ولم يعد يعاني من أي عرج.

كان ذلك جمهوراً على قدر كبير من التنوع: فهناك الرجال والنساء والأطفال من كل الأجناس والأعمار والخلفيات. إلا أنني رأيت الظاهرة ذاتها في اليوم التالي في جامعة برنستون، التي كان يلقي فيها محاضرة عن النزعة التقدمية في التاريخ الأمريكي. إذ كان الطلاب والأساتذة شديدي الصخب من أجله. والأرقام لا تكذب. ذلك أن التأييد الشعبي لكل الرؤساء يهبط في السنة الأخيرة من فترة حكمهم. ولكن شعبية كلينتون، الذي وجهت له التهم، بلغت رقماً غير معتاد هو ٦٧ بالمائة - وبذلك يتفوق على أي رئيس بعد الحرب العالمية الثانية.

وفي طريق العودة طلبت منه أن يمعن النظر في السنوات الثمانية المضطربة التي أمضاها في منصبه - وشهدت الانتعاش الاقتصادي وتوجيه الاتهام والمواجهة مع نيوت جنجريتش وقراره الخاص بإرسال القوات الأمريكية للقتال. جلس مربوطاً في كرسيه ويتدلى على ظهر المقعد معطف مطر أزرق، بينما يعض من حين لآخر سيجاراً لم يشعل، ويشعر بفرح شديد بما حظي به من استقبال: «أنا أحب فلوريدا... لقد كانوا طيبين معي هناك».

الصلة قوية، إلا أنني عرفت كذلك - أثناء حديثنا الشامل - الحدود التي يمكن أن يصل إليها كي يظل على اتصال. فما إن وصل إلى البيت الأبيض سنة ١٩٩٣ حتى حدد رمزاً بريدياً خاصاً ودعا الأصدقاء والمعارف من أيام الدراسة في أركانسو ومن جامعات جورج تاون وأوكسفورد إلى أن يكتبوا إليه مباشرة - وكانت تلك خطابات تتضمن شكاوى من المصادر نفسها دون أن تمر من خلال فلتر البيت الأبيض المعتاد. وكانت هناك عدة مئات من الناس يكتبون بانتظام خلال السنوات الثمانية التي أمضاها في السلطة: كطبيب بيطري أصيب بعجز في فيتنام، وعائلة ترعى ابناً يعاني من السرطان، وزميل دراسة في الجامعة في الجنوب أصبح رجل أعمال جمهوريا.

وكان تعليق الرئيس الثاني والأربعين على ذلك: «لقد ثبتوا الأرض تحت قدمي».

ثم بدا حواري معه:

إيفانز: أريد أن أطرح سؤالاً ليس عن تعليم هنري أدامز[1]، وإنما عن تعليم ويليام جيفرسون كلينتون. كيف تختلف في طريقة تفكيرك عن حاكم إحدى الولايات الجنوبية الشاب الذي جاء إلى واشنطن سنة ١٩٩٣؟!

كلينتون: لا أظن أن الرئاسة غيرت فلسفتي، إلا أنها كلفت بعض ما أنا مقتنع به. وأول كل شيء هو أنني سوف أغادر البيت الأبيض وأنا أكثر واقعية مما كنت عليه عندما دخلته. فيما يتعلق باعتقادي بشأن قدرة نظامنا وشعبنا على التغيير وعلى أن يحل المشاكل حلاً فعلياً، أو على الأقل يحد منها. وقد تحايلنا على أمور كثيرة.

الأمر الثاني هو أنه بات لدي الآن فهم أكثر تطوراً مما كان لدي بخصوص الطريقة التي أفعل بها ذلك. فعندما كنت حاكماً، كنت في واقع الأمر أعتقد أنه بإمكاني معرفة كل شيء تقريباً يجب أن أعرفه. وكان ذلك ملعباً أصغر حجماً، وكنا نتحرك فيه بطريقة أسرع. إلا أنني لست على يقين مما إذا كان بمقدورنا التغير تغيراً تاماً، مثلما أمكننا على المستوى القومي، حيث كنت أتمتع بميزة وجود مجموعة ممن على قدر كبير من الموهبة في مجلس الوزراء والبيت الأبيض.

لقد تناقشت كثيراً وضحكت كثيراً مع بوب روبن (وزير المالية). وفي وقت ما (يناير ١٩٩٥) قال إننا لابد أن ننقذ البيزو المكسيكي وإلا وقعت أزمة مالية. وأظهر استطلاع للرأي معارضة الشعب لذلك بنسبة واحد إلى خمسة. ووقتها قال روبن إن عدم قيامنا بعملية الإنقاذ قد يجعلني أخسر الانتخابات. ولكني كنت أثق فيه. وكل ما قلته له: «لنفعلها!» (ولم يتأخر المكسيكيون في رد الدين).

كما أنني الآن أفضل بكثير فيما يتصل بتقدير الوقت اللازم لتحريك البيروقراطيات الضخمة في المجتمعات الكبيرة. وهذا أمر لابد منه. فدور القائد يكمن في الاتصال بالناس ومناقشتهم وتجنيدهم من أجل المصلحة العامة. غير أني تعلمت كيف أنه من المهم كذلك أن تكون هناك عملية منظمة يعمل داخلها الجميع معاً على المستوى الداخلي.

الأمر الآخر الذي يدهشني بالفعل هو أهمية ألا يكون هناك حد لحب استطلاع الرئيس. وأنا لا أظن أنه لابد أن يكون الرئيس عبقرياً، ولكن لابد أن يكون لديه حب استطلاع من الناحية الفكرية وأن يكون متقبلاً للأفكار الجديدة. وكنت أقرأ عن أهمية تحاشي العزلة. ورغم ما قمت به هنا خلال السنوات الثمانية، فقد كان عليّ باستمرار الاحتراز من الجمود البيروقراطي، لكوني مقيداً بالطريقة التي تتم بها الأمور.

ومن ناحية أخرى، ليست الطرق الشائعة القائمة خطأ دائماً. ولذلك فإن على الرئيس أن يكون حساساً إلى حد ما. وكان ظني عندما جئت إلى هنا لأول مرة أنها جميعها خطأ. واحتاج الأمر مني عامين لتعديل الميزان. وأعتقد أنني حافظت على اعتداله طوال ست سنوات.

إيفانز: في خطاب التولية سنة ١٩٩٣، قلت إننا نحتفي بلغز التجديد الأمريكي. ما هو تقديرك للغز التجديد الأمريكي في السنوات الثمانية الماضية؟ كم من الفضل يعود إلى القيادة، وكم منه يعود إلى الكونجرس، وكم إلى الأعمال التجارية وكم إلى تخفيض ريجان للضرائب؟

كلينتون: أعتقد أنه لا شيء تقريباً من هذا كله. فقد أفاد تخفيض الرئيس ريجان للضرائب في إخراج البلاد من حالة الكساد وتحسين اقتصادها سنة ١٩٨٤، ولكن التخفيضات كانت أكبر مما يجب، حيث سمحت الحكومة بزيادة أسعار الفائدة إلى حد كبير جداً، مما جعل البلاد في ظرف لا تحسد عليه. وعندما أعيد انتخابه، كان لابد أن تفعل ما هو أكثر من ذلك بالنسبة للعجز. فكلما طال أمد ذلك الأمر كان التعامل معه أصعب. وأنا لا أختلف مع كل ما فعله الرئيس ريجان. فما فعله ضد ليبيا كان صواباً. وكان محقاً في تبنيه لجورباتشوف. ونحن الآن نعرف أن تكديس السلاح لم تكن له أية علاقة بانهيار الاتحاد السوفيتي، وإن كان لابد من قبول جزء من هذا الكلام، وكانت البداية في عهد كارتر.

إيفانز: وماذا عن انتعاش السنوات الثمانية هذا؟

كلينتون: لابد أن نرجع جزءاً ضخماً من الفضل إلى إعادة هيكلة التجارة والصناعة الأمريكيتين في الثمانينيات. فقد أصبحت الطبقة العاملة أكثر إنتاجية وأكثر حساسية لربحية شركاتها باعتبارها أمراً مهماً لوظائفها ورواتبها وأرباحها، لأننا لم نر الكثير من مطالب الأجور التضخمية.

ولابد أن نرجع فضلاً كبيراً لقطاع تكنولوجيا المعلومات. فالعاملون في هذا القطاع يمثلون حوالي ٨ بالمائة من حجم العمالة لدينا، ولكنهم قدموا لنا ٣٠ بالمائة من نمونا. كما كان لسياستنا التصديرية دخل كبير في الانتعاش. وهنا يستحق ريجان وبوش أن نرجع إليهما الفضل كذلك، لأننا جميعاً لدينا سياسة متسقة تتعلق بالسعي إلى مشاركة أمريكا سائر دول العالم من الناحية الاقتصادية.

إيفانز: والحكومة؟

كلينتون: أول كل شيء، كانت لدينا سياسة اقتصادية جيدة. فقد بدأنا بتخفيض العجز وثنينا بالقضاء

عليه. وكانت لنا سياسات اجتماعية جيدة تستهدف محاولة جمع البلاد على كلمة واحدة... فقد خفضنا ميزانية الرفاهية بمقدار النصف. وخفضنا معدل الجريمة. وكنا نحسن التعليم. وكان لدى البلاد إحساس بالتقدم إلى الأمام. وكما تعلم، فقد حاولت ألا أفقد تفاؤلي مهما بلغ ما عليه الأمور من سوء. وكانت حكومتنا تسعى إلى أن يكون الناس في حالة ذهنية إيجابية. وأنا أفكر دوماً فيما يمكن أن يفعلوه بشكل جيد، بدلاً من أن ننهار على أنفسنا وتحدث الفوضى السياسية.

إيفانز:ولكن كيف تقسم الفضل؟

كلينتون:لن يمكن لأحد أن يعرف مقدار ما يستحقه أي إنسان من الفضل.

إيفانز:وهذا جزء من اللغز. فكما يقول مالكوم جلادويل في كتاب The Tipping Point، فإنه حتى التغيير الإضافي البسيط يمكن أن يسفر عن آثار عميقة.

كلينتون:هذا صحيح. فكل شيء يتم في الهوامش. ولكن الكيمياء كانت جيدة، وكان الخليط صحيحاً، وهو ما سرني بالفعل.

إيفانز:يقال إن هناك اتجاهاً في السياسة الأمريكية نحو اللجوء إلى الإجراءات القضائية من أجل أغراض سياسية. ومثال ذلك السعي إلى استخدام القانون في تحقيق ما عجزت الانتخابات عن تحقيقه: وأعني بذلك التخلص منك. هل تشعر بأي قلق من هذا الاتجاه على المستقبل؟[٢]



كلينتون:أعتقد أنه سيكون من الصعب فعل ذلك مرة أخرى. فقد كان الأمر برمته مجرد صفقة سياسية. وقد وضع الجمهوريون أنفسهم في موقف لا يحسدون عليه. ففي البداية، كانوا لن يحصلوا ولو على صوت واحد. وبعد ذلك قالوا إنهم لا يمكن أن يحرجوا مديري المجلس. وقد اضطروا إلى الرجوع واجتذاب أعداد كبيرة من الجمهوريين الذين كانوا سيصوتون ضدهم ولمصلحتي. وفي الدقيقة الأخيرة تلقينا مكالمة تليفونية من أحدهم يقول فيها:«لقد تلقينا أوامر...لا يمكن أن نحرج مديري المجلس».

لو علم الشعب الأمريكي نصف ما دار هناك، لكانت الأعداد المؤيدة لنا أكثر بكثير مما كانت عليه. فقد تصرف الجمهوريون وكأنهم يسعون وحسب للانتقام لريتشارد نيكسون. وكان جوهر ما حدث لم تكن له بالمرة أية علاقة بالموضوع. وهكذا صعّدوا الموقف من جديد. وليس هناك شكل منظم للصحافة اليسارية في هذا البلد. وليست لدينا تلك الشبكة من البرامج الجماهيرية التي لديهم. كما أنه ليست لدينا بعد مؤسسة في واشنطن مثل الحزب الجمهوري، وهو ما يجعلهم يشعرون أن من حقهم أن يحكموا، وأن أي شيء يفعلونه لاستعادة السلطة لا غبار عليه.

وهناك تحالف غير عادي. وفي سنة ١٩٩١ كانت لا تزال هناك عناصر داخل الصحافة السياسية القومية تعتقد أنها لن تكون لها سلطة ما لم تقصد على شخص ما في كل انتخابات. وبذلك سخّر (الجمهوريون) بعضاً من هؤلاء، وظلوا مسخرين حتى النهاية.

وأنا مندهش من وجود أناس ينظرون إلى السياسة القومية هذه النظرة ويعتقدون أن القضاء على الأشخاص طريقة مشروعة لإدارة مصالح البلاد... وكان ذلك في معظمه من صنع الجمهوريين، غير أن الديمقراطيين لا يسلمون من اللوم، بينما قدمت له الصحافة القومية الدعم والتشجيع. إنها قصة أيسر وأسرع من الاضطرار إلى الخوض فيمن هو على صواب بشأن أدوية الرعاية الصحية...

ومن بين أسباب وجود علاقات طيبة بيني وبين (رئيس مجلس النواب السابق نيوت جنجريتش) هو أنه لم يصرح قط بما لا يضمر. وأقصد بذلك أنه كان على الدوام صريحاً معي في السر، وكان يتعامل معي ومع (رئيس موظفي البيت الأبيض السابق) ايريسكين بولز بطريقة تتسم بالوضوح. وبعد أن فزنا عليهم سنة ١٩٩٨ اتصل تليفونياً وقال: «لا بد أن تفهم أن هذه هي المرة الأولى منذ ١٨٢٢ التي يفوز فيها حزب الرئيس بمقاعد في مجلس النواب في السنة السادسة من الرئاسة، ولكننا سوف نوجه له الاتهام بأي حال من الأحوال». وتساءل ايريسكين: «لماذا؟» فقال: «لأننا نستطيع ذلك».

إيفانز:«لأننا نستطيع ذلك؟»

كلينتون:لقد قال: «هذا هو ما نفعله». وقال ايريسكين: «ألست منافقاً؟ إنهم حتى لم ينتقدوك». فقال جنجريتش: «صحيح، ولكننا سنفعل ذلك ويمكننا أن نفعله». فقال ايريسكين: «ولكن ليست لديك أصوات». فرد عليه جنجريتش بقوله: «سوف نبدد شملهم؛ وسوف يكونون معنا عندما نصل إلى هناك».

إيفانز:وكان محقاً كذلك.

كلينتون:نعم. وبعد ذلك قال جنجريتش - ولن أنسى ذلك أبداً - «إن الجمهور معارض بنسبة ٧٠ بالمائة. وأنا أعرف أننا دفعنا الثمن الآن (في الانتخابات التكميلية)، ولكن بحلول سنة ٢٠٠٠ سيكون الناخبون مهتمين بأشياء أخرى، ولن يضر الاتهام أيّا من رجالنا. وبذلك سوف نجعلهم يفعلونها».

إيفانز:لم يكن لتوجيه الاتهام دور كبير في حملة انتخابات الرئاسة، وهو ما يعني أن جنجريتش كان محقاً.

كلينتون:صحيح. وأذكر أنني سألت أحد أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين سنة ١٩٩٦ إذا كان هناك ما يتعلق بموضوع وايتووتر. فقال: «بالطبع لا. إننا جميعاً نعرف أنه لو دقق أي شخص في قراءة الأدلة، سيعرف أنها لا تنطوي على شيء».

إيفانز:التحقيقات التي دامت عامين وأجراها جاي ستيفنز (الذي كان يوماً النائب العام الأمريكي) لمصلحة «ريزولوشن ترست كوربوريشن» (التي أسست من أجل شراء أصول ومحافظ القروض الخاصة بالبنوك الأمريكية التي تعاني من ضائقة مالية) قالت مثل هذا الكلام سنة ١٩٩٦ مبرئة إياك من أي ذنب في وايتووتر. ولم يكن لذلك دور كبير. فلماذا؟

كلينتون:فعلاً لم يكن له دور كبير. لقد جرى التعتيم عليه. لماذا؟ لأن من كانوا يغطون أخبار وايتووتر كانت لهم مصلحة مطلقة في استمرارها. وكان تعتيم صحافة التيار العام على تقرير «ريزولوشن ترست كوربوريشن» واحداً من الأحداث المخجلة في السنوات الثمانية الماضية.

إيفانز:قال جيفرسون (الرئيس الأمريكي توماس جيفرسون ١٨٠١-١٨٠٩) إنه كان عليه أن يختار بين حكومة بدون صحف وصحف بدون حكومة، فاختار الأخيرة: وإن كان قد غير رأيه في وقت لاحق.

كلينتون:كان ذلك بعد أن صار رئيساً.

إيفانز:كيف تتعامل مع الصحافة التي تتسم بأنها تافهة ومثيرة للأعصاب وموجعة؟ هل تتخذ قراراً بعدم قراءتها؟

كلينتون:لا ينبغي عليّ التعميم فيما يختص بالصحافة. فقد غطى البعض هذه القصة الخبرية بطريقة سيئة جداً، لأسباب لا علاقة لها بالتماس الحقيقة. ومع ذلك كان البعض من تلك المنافذ التليفزيونية والصحفية ذاتها ينقل كذلك وبشكل يومي تقارير عما كنت أقوم به من أجل الشعب الأمريكي وعن جوهر القضايا. لقد كانوا يعطونني فرصة متكافئة.

في الأساس قلت إنه لا بد أن أقضي أقل وقت ممكن في قراءة هذا الموضوع وشغل نفسي به، لأنني في واقع الأمر سوف أسرق ذلك القدر الذي يستنفده من طاقتي الفكرية والبدنية والعاطفية من الشعب الأمريكي... فقد أدركت أن هذا الموضوع يؤذيني بشدة. وأعرف أنني قدمت لهم بعض العون، ولكن ليس بالقدر الذي يساوي ٥٢ مليون دولار وست سنوات من التحقيق الوهمي.

إيفانز:ولكنك أنت الذي وقعت على مكتب المحامي المستقل (الذي أنشئ بعد ووترجيت لضمان عدم خضوع التحقيقات الخاصة بكبار المسئولين في الحكومة لسيطرة الرئيس) كانت تلك واحدة من غلطاتك الكبيرة. فقد نصحك بعض الجمهوريين أنت وجور ألا تفعلا ذلك - كما قيل لنا - لأنها سلطة خطيرة ولا تخضع للمحاسبة.

كلينتون:كانت غلطة بالفعل. ولو عاد الزمن لتركت قانون المحامي المستقل يموت...ولكنني تعهدت أثناء الحملة الانتخابية بأنني سأجدده. لقد كان هناك استغلال لقانون المحامي الخاص... رأى دونوفان (وزير العمل في حكومة ريجان، الذي أمر بالمثول أمام المحكمة بسبب ١٣٧ انتهاكاً مختلفاً لقوانين ولاية نيويورك، مع أن المحقق الخاص وجد مرتين «عدم كفاية الأدلة»): أظن أنه يعامل بنزاهة - ولكنه لم يكن هناك شيء كهذا في الماضي. وقد عين كبير القضاة رينكويست القاضي ديفيد سينتل ثم أعاد تعيينه، وكان رجلاً من نورث كارولينا من نوعية جيسي هولمز ولوك فيركلوث (عضوان شديدا المحافظة بمجلس الشيوخ عن نورث كارولينا) كان يعرف أنه حصل على وظيفة العمر وجعل الجمهوريين الحزبيين مسئولين عن التحقيقات الخاصة.

وحتى لو لم أكن متورطاً، فإن كلا من المحققين الخاصين (وزير الإسكان والتنمية الحضرية السابق هنري(سزنيروس) ووزير الزراعة السابق مايك(ايسبي) كانا عميلين جمهوريين لا يهمهما سوى خدمة الرجل الذي في القمر...لم يكن هناك أقل دليل على أن سزنيروس ارتكب أي خطأ في حياته الرسمية (دفع سزنيروس ببطلان تهمة تقديم إفادات كاذبة لمكتب التحقيقات الفيدرالي أثناء مراجعات الخلفية قبل ترشيحه لعضوية مجلس الوزراء بشأن مبالغ دفعها لعشيقة سابقة؛ وبرأت المحكمة ايسبي من ٣٠ اتهاماً خاصة بارتكاب أخطاء تتعلق بقبول هدايا من الشركات) كما لم يكن هناك أدنى دليل على ارتكابي أنا وهيلاري أية أخطاء في أركانسو أو في حياتي الرسمية. فالأمر كله كان متعلقاً بالسياسة والسلطة والتدمير.

ولم يحظ دليل البراءة في حالتنا وحالتيهما بمجرد النشر. فقد كانوا جميعاً يعرفون ما يقومون به، وكانوا يفعلونه عمداً.

إيفانز:ولكن المحكمة العليا بكاملها هي التي حكمت بإمكانية التحقيق مع الرئيس وهو في السلطة في أية قضية مدنية.

كلينتون:كان ذلك في منتهى السذاجة، لأنهم جعلوا الرئيس عرضة للهجوم بلا أي أساس...فيمكنك دائماً أن تأتي بقضية ملفقة ثم تفلس الرئيس على أقل تقدير، وتسيء استغلال عملية الكشف - وكلا الشيئين حدثا في حالتي.

وكان لدى القضاة تلك الحجة الطنانة القائمة على المبادئ التي لا تأبه بكيفية سير العالم.

ربما تتعلق المشكلة بوجود قضاة فقط في المحكمة العليا. ويتحمل الديمقراطيون كذلك بعض مسئولية هذا الأمر. فقد صارت عملية تثبيت التعيين معقدة وسياسية بحيث يصعب عليك تخيل الطريقة التي يمكنك بها العثور على شخص مثل هيجو بلاك أو بيل دوجلاس أو إيرل وارن (وقد أثبت ثلاثتهم أنهم مدافعون أقوياء في المحكمة العليا عن زيادة حجم الحقوق المدنية)، الذين لم يكونوا قضاة من قبل.

ولكن في بعض الأحيان يكون أعظم القضاة

لا أظن أنه لا بد أن يكون الرئيس عبقرياً، ولكن لا بد أن يكون لديه حب استطلاع من الناحية الفكرية وأن يكون متقبلاً للأفكار الجديدة. وكنت أقرأ عن أهمية تحاشي العزلة. ورغم ما قمت به هنا خلال السنوات الثمانية، فقد كان عليَّ باستمرار الاحتراز من الجمود البيروقراطي. لكوني مقيداً بالطريقة التي تتم بها الأمور.

في المحكمة العليا اناسًا لهم خبرة في الحياة اليومية. فإذا كان في المحكمة أشخاص دخلوا بالفعل معترك السياسة الأمريكية منذ أن بدأ بالفعل يساء استغلالها من جديد، اعتباراً من السبعينيات، مروراً بالثمانينيات والتسعينيات، لعرفوا كيف يفعلون ذلك بطريقة أفضل، وربما استطاعوا أو لم يستطيعوا التحدث باسم الآخرين غير عابئين بهم.

إيفانز: ما هو أصل هذا الحقد الغريب في السياسة الأمريكية؟ الجميع يتذكرون مقدار العداء الذي اكتسبه فرانكلين روزفلت (الذي تولى الرئاسة من ١٩٣٣ حتى ١٩٤٥) وفي انتخابات ١٩٣٦ ألقى خطبة عظيمة في ماديسون سكوير جاردن قال فيها: «إنهم مجمعون على كراهيتهم لي، وأنا أرحب بكراهيتهم».

كلينتون: الكثير ممن كرهوني أنا وهيلاري كرهوا فرانكلين وإليانور. والحمد لله أن الحزب الجمهوري لم يمكنه وقتها السيطرة على جهاز المحامي الخاص!

وواقع الأمر أن أمريكا فيها يمين منظم تنظيماً جيداً يتسم بقدر كبير من الحقد. وقد مول ريتشارد ميلون سكيف (ملياردير من بالتيمور يميل إلى العزلة) الكثير من هذا. فقد مدهم بمليوني دولار أنفقوها من خلال صحيفة «ذي أمريكان سبيكتاتور» لمجرد السعي إلى ملاحقتي في أركانسو.

وكثيرون من هؤلاء الناس كانوا جميعًا على صلة بمن تورطوا مع محققي الكونجرس والمحققين الخاصين. وبعد انتخاب الرئيس ريجان تحالفوا تحالفاً وثيقاً مع مؤسسة واشنطن الجمهورية. وسمح لهم هذا التحالف بقدر معين من المصداقية لدى صحافة التيار العام السياسية التي تعشق تلك الأصناف من القصص الخبرية، وهذا هو ما أعتقد أنه أدى إلى إمكانية حدوث المفاسد والسكوت عليها.

إيفانز: وأعيد انتخابك.

كلينتون: يمكنك أن تقول: «لم يحدث الأثر المطلوب»، وبُرِّئت ساحتي. ولكن الأثر المطلوب يحدث، لأنهم يقنعون ١٠ بالمائة من الشعب - وهو عدد لا يستهان به - بأننا جميعاً فاسدون أو غشاشون. وهم على أقل تقدير يجدون سعادة في إفلاسك.

وقال أحد الجمهوريين لصحفي هو صديق مشترك لكلينا: «إننا لا ننال منه أبداً، ولكننا حطمناه من الناحية المالية على الأقل، وكان ذلك أحد أهدافنا». ولا يمكن أن تئن من ذلك. فليس هذا سوى ثمن القيام بالعمل.

إيفانز: ماذا تقول لو جاءتك تشيلسي في يوم من الأيام وقالت لك إنها تفكر في العمل بالسياسة؟

كلينتون: سوف أشجعها إذا كانت تريد ذلك. وكنت قد قلت لهيلاري، عندما فكرت في ذلك - وقد أمضت كما تعلم ثلاثين سنة في مساعدة الآخرين ولم تطلب من أحد في يوم من الأيام أن يساعدها. قلت لها: «إذا كنت ترغبين في الترشيح، لا بد أن تكوني مستعدة للهزيمة». لقد خسرت سباقين. ولا بد أن تكون مستعداً للهزيمة، وينبغي أن يكون السبب وراء رغبتك في الفوز أكبر من مجرد تولي المنصب. وبعد ذلك عليك أن تسأل نفسك إن كنت ترغب في دفع ثمن الفوز أم لا، وأن تعمل بجد حقاً أم لا، وأن تتلقى الضربات أم لا؟ وإذا أجابت تشيلسي عن هذه الأسئلة الثلاثة كلها بنعم، فحينئذ سوف أشجعها.

إيفانز: كيف غيرت نظرتك بشأن الرؤساء الآخرين، بما أنه كان عليك أنت كذلك أن تكافح من أجل التوفيق بين قيمك وضرورة تسيير الأمور؟

كلينتون: إن لي تقييماً أكثر حدة ودقة لما فعله غيري من الرؤساء؛ ولتحديات هؤلاء الذين أنجزوا الكثير في ظل الظروف المعاكسة أمام من كان لديهم كونجرس يعينهم وبيئة صحفية مُعينة في مجملها. كما أنني أدرك الآن أهمية ما حال الرؤساء دون حدوثه، أكثر من إدراكي له في أي وقت سبق.

إيفانز: مثل؟

كلينتون: كراهية ايزنهاور لجو ماكارثي. فمع أنه كان يمكنه أن يكون أشد قسوة، فإنه لم يحتضنه ولم يمنحه الشرعية بالطريقة التي كان ينبغي عليه منحه إياها كجمهوري.

إيفانز: هذا سلوك نبيل، لأنه يُنتقد دائماً لعدم دفاعه عن الجنرال جورج مارشال ضد هجوم ماكارثي.

كلينتون: كان لا بد أن يدافع عنه. ولكن المسألة هي أن المرء يرى في الأمر جانباً إيجابياً بجوار الجانب السلبي. فإذا كنا نرجع الفضل إلى كنيدي في حله أزمة الصواريخ الكوبية، فينبغي في الوقت ذاته إرجاع الفضل إليه فيما لم يقم به، وهو مهاجمة كوبا. إذ كان من الممكن أن يقصفها بالقنابل وربما أمكنه بذلك حل الأزمة، وكان من المحتمل ألا يطلق خروشوف الأسلحة النووية.

إيفانز: وما هو المثال الثاني؟

كلينتون: من بين موروثات الحكومة المهمة أننا هزمنا ثورة جنجريتش ورددناها على أعقابها - وهذه الثورة محاولة قام بها في المقام الأول الأيديولوجيون اليمينيون والمصالح الاقتصادية القوية بهدف تحريك البلاد بطريقة دراماتيكية نحو اليمين، وزيادة تفاوت الدخول بطريقة دراماتيكية، وإضعاف الحكومة الفيدرالية كعامل توحيد بطريقة دراماتيكية.

إيفانز: ولكن قيل لنا إنك خرجت بانطباع عن جنجريتش أفضل من الذي دخلت به.

كلينتون: كانت تربطني بجنجريتش علاقة شخصية جيدة، لأنه كان يعرف ما يفعله. ولكنه هو الذي أطلق تلك القوى، التي التهمته في نهاية الأمر، من عقالها. وأعتقد أنه كان يصدق بعضاً مما يقوله ويفعله، إلا أن كثيراً من الأشياء المثيرة للغضب التي قالها وفعلها كان يظنها ستقوي قبضة اليمين الجمهوري على السلطة في البلاد. وحسبما لمسته، كانت السلطة هي ما يهمهم، في المقام الأول. ولكننا هزمناهم عندما عطلوا الحكومة وحاولوا فرض مشروع ميزانيتهم على أمريكا. أما الفصل الثاني فكان توجيه الاتهام. والفصل الثالث هو ذلك التخفيض الضخم في الضرائب الذي أقر هذا العام بتأييد منهم. والآن إذا فاز بوش فإنهم قد يعودون ويفعلون الكثير مما كانوا يحاولون عمله.

إيفانز: متى منعك أحد من القيام بما كنت تريد عمله؟ هناك ضمان اجتماعي محكوم عليه بالانهيار من الناحية الديموجرافية، وسوف نكون مدينين في حياة تشيلسي.

كلينتون: لو أمكنني أنا وبيل آرشر (رئيس لجنة الأساليب والوسائل) نحن اللذان في سبيلنا لترك منصبينا - القيام بذلك بمفردنا، لعقدنا اتفاقاً بشأن الضمان الاجتماعي وربما بشأن قابلية تطبيق الرعاية الصحية لأمد طويل. ولكنه كانت هناك قوى في كل من حزبينا تقاوم ذلك. وواقع الأمر أنني فكرت منذ عامين في إنهاء موضوع الضمان الاجتماعي قبل تركي للرئاسة، وإن لم يكن ذلك فلتكن الرعاية الصحية. وقد قطعنا شوطاً كبيراً فيما يتصل بالرعاية الصحية. وقد بلغ عمر البرنامج الآن ٢٧ عاماً، وهو أطول بكثير مما كان. (في سنة ١٩٩٢ كان متوقعاً أن تعاني الرعاية الصحية من الإفلاس بحلول ١٩٩٨؛ والآن يمكن للبرنامج تلبية الالتزامات المالية حتى سنة ٢٠٢٥) وبالنسبة للضمان الاجتماعي، ليست السبع والثلاثون سنة بالعمر الطويل، فذلك أقل مما كانت. وسيكون عليهم إجراء المزيد من التعديلات على ذلك في المرة المقبلة.

إيفانز: هل الرعاية الصحية منطقة كنت تود لو أمكنك تحقيق المزيد من التقدم بشأنها؟

كلينتون: لقد قللنا عدد غير المؤمن عليهم مرة أخرى. وما يقوله جورج بوش (المرشح للرئاسة) عن عدم قيامنا بأي شيء عار تماماً من الصحة. وقد أحسن جور الحديث عن الرعاية الصحية في المناظرة الأولى.

وهناك منطقتان أخريان كنت أتمنى لو أنجزت فيهما أكثر مما أنجزت: إحداهما خاصة بالبيئة والطاقة. فهناك ثمار ضخمة العدد بدأنا للتو في جنيها. وعما قريب سوف نعتمد أكثر على أنواع الوقود البديلة والمحركات البديلة. وكنت أتمنى كذلك لو أمكنني إقناع حزبي وبلدي بفوائد التجارة الأكثر انفتاحاً.

وفي الوقت نفسه كنت أتمنى لو حققنا المزيد من النجاح فيما يتصل بسلامة الأسلحة النارية. وأنا أدرك أننا أحدثنا بحراً من التغيير في المواقف العامة باستعدادنا لمواجهة الاتحاد القومي للبنادق، وهو ما لم يفعله أحد بصورة منظمة منذ تبني ليندون جونسون لأول تشريع حديث للحد من الأسلحة النارية، في أعقاب اغتيال روبرت كنيدي. وقد ظنوا أنه مرتد، ويظنون أنني وآل جور مرتدان.

وأحد أسباب كل هذا العداء الذي يكنه لنا الاتحاد القومي للبنادق هو أننا اثنان من البيض الجنوبيين كنا نخرج للصيد ونحن صغيران. وعليه فأنا أفهم هذا، غير أني أرى أنه من غير المنطق أن يتمكن شخص ما من شراء مسدس دون أن يحمل ترخيصاً يبين أنه خضع لفحص الخلفية ويعرف كيف يستعمل المسدس بشكل مأمون. ولا يعقل بحال من الأحوال أن تكون لدينا تكنولوجيا لتأمين الزناد ضد استعمال الأطفال ونقول «نأمل أن تطبقوها؛ فنحن لن نشترط وجودها». إن وجود حظر على الأسلحة الهجومية سوف يجعل الناس يتحايلون عليه باستيراد أمشاط ذخيرة ذات سعة كبيرة ويعدلون أسلحتهم. وكنت أتمنى لو استطعت تحقيق المزيد من التقدم. فلنا في الريف أغلبية، أغلبية كبيرة، وربما أغلبية في الكونجرس، ولكن القيادة الجمهورية لا تسمح بطرح الموضوع على بساط البحث.

إيفانز: نسمع أن من بين ما تأسف عليه هو عدم تدخلك في مذابح رواندا. كما أنك ترددت قبل تدخلك في البوسنة، وتركت البريطانيين يتحملون اللوم في سيراليون. إلا أنك تدخلت في كوسوفو. فما هي إذن المبادئ التي كانت ترشدك إلى ما اتخذته من قرارات - هل هي النزعة الأخلاقية والويلسونية، أم مبدأ توازن القوى الخاص بتيدي روزفلت؟

كلينتون: لا بد أن تضع عدة عوامل في اعتبارك. أول هذه الاعتبارات هو الأفكار التقليدية الخاصة بالمدى الذي تنطوي عليه المصلحة الأمريكية. وثانيها طبيعة المشكلة: كم عدد الأبرياء الذين سيموتون؟ ما الشكل الذي سيكون عليه العالم أو المنطقة عندما ينتهي الأمر؟ أما الثالث فهو هل يمكنك أن تفعل شيئاً حيال الأمر؟ ما هو الثمن الذي سيكون على الولايات المتحدة أن تدفعه من الأرواح وغيرها؟ والعامل الرابع هو إن كانت هناك آلية متعددة الجنسيات أم لا - وما الذي سيفعله حلفاؤنا.

لقد ذهب البريطانيون إلى سيراليون لحماية أهلهم. وقد كانوا على أتم الاستعداد لأن يكونوا في المقدمة. ولكني كنت أعتقد أن علينا مسئولية. ولذلك فنحن نعمل بجد على تدريب قوات أفريقية للذهاب ضمن بعثة تابعة للأمم المتحدة ونقدم لها الدعم الخاص بنقل الجنود وإيوائهم وإمدادهم بالتموين. وفعلنا الشيء نفسه في تيمور الشرقية، حيث كان الأستراليون وغيرهم على استعداد لتولي دور ريادي. أما في كوسوفو، فلو لم نفعل ما فعلناه، لما كان هناك من يقوم به. وينطبق الشيء نفسه على البوسنة. لقد استغرق الأمر مني عامين ونصفًا لتكوين تحالف دولي، واحتاج إلى ذكرى سربرينيتسا الفظيعة والمؤلمة كي تثير انتباه الجميع. وفي رواندا، التي كانت مذبحة، انتهى الأمر برمته خلال مائة يوم. وقد كنا - نحن بصفة فردية والأمم المتحدة كمؤسسة - غير مجهزين التجهيز الكافي، بالمعنى الحرفي للكلمة، للتعامل مع مذبحة بهذه الضخامة وتمت بهذه السرعة.

ما يحدث الآن هو أنني أشركت الولايات المتحدة في أفريقيا إلى حد يزيد عما كان عليه الأمر من قبل بكثير. كما

أعتقد أن الأمم المتحدة لا ترغب في أن تكرر رواندا ما حدث. ولكنها لا تستطيع وقف كل الحروب.

وإحدى الأفكار التي قدمتها للبنتاجون ولكنني لم أتمكن من إقناعهم بقبولها - وقررت ألا أفرضها عليهم - هي إنشاء فرقة حفظ سلام منفصلة، يتم تدريبها على حدة ويكون أفرادها من المتطوعين تطوعاً مضاعفاً. فهم لن يتطوعوا لدخول الجيش وحسب، بل سيكونون على استعداد بعد ذلك لأن يكلفوا بمهمات حفظ سلام. وكان موقف الجيش من ذلك هو أنه لابد أن تكون الوحدات مترابطة. وظني أن الرئيس القادم سيكون عليه القيام بمزيد من العمل لتسريع إعادة التنظيم التي بدأت في عهد الوزيرين بيري وكوين اللذين يسعيان إلى التكيف مع متطلبات القرن الحادي والعشرين. وأعتقد أنك سترى الأمريكيين مدربين تدريباً أكثر تخصيصاً من أجل هذه المهمات وأكثر مشاركة فيها.

إيفانز: ماذا كان أصعب قراراتك باعتبارك قائداً أعلى؟

كلينتون: هذا سؤال صعب. ولكني سأذكر لك قرارين. أحدهما هو البوسنة. أما الثاني فقد كان على الدوام هو الصراع من أجل اتخاذ قرار بشأن متى نضرب صدام حسين ومتى لا نضربه.

إيفانز: وماذا عن قرار ضربه عندما كانت جلسات الاستماع الخاصة بالاتهام على وشك البدء؟ فقد اتهموك بتنفيذ سيناريو فيلم Wag the Dog (أي شن حرب تصرف الانتباه عن المشاكل الداخلية).

كلينتون: إنهم هم الذين كانوا يفعلون ذلك. فقد أغضبهم بقائي رئيساً. ولو لم أفعل ذلك لتجمع الحشد نفسه لإلقاء تلك الخطب التي يتحدثون فيها عما أصابني من شلل وعن كوني لم أعد صالحاً للدفاع عن البلاد.

إيفانز: عندما خرج الرئيس أيزنهاور من البيت الأبيض ألقى خطبة وداع تحدث فيها عن الأخطار الشديدة الكامنة في المجمع الصناعي العسكري التي تتعرض لها الديمقراطية. هل لديك بعض الملاحظات التحذيرية للشعب الأمريكي، بغض النظر عمن سيخلفك؟

كلينتون: الواقع أنني أفكر الآن فيما إذا كنت سألقي مثل هذه الخطبة أم ستكون هناك سلسلة من الخطب. والشيء الذي يشغلني، ضمن غيره، هو أنه ينبغي للشعب الأمريكي أن يعرف أن نظامه مستمر في انفتاحه على التغيير. لقد بلغنا شيخوخة أمريكا، وبلغنا تغير المناخ - وهي المشكلة التي يرفض الكونجرس مواجهتها.

لقد فاق الشعب نظامه السياسي بطريقة مقلقة بعض الشيء. وستكون هناك باستمرار مصالح ثابتة في جعل البلاد أكثر تحفظاً ومعارضةً للتغيير، غير أن العالم يتغير بسرعة كبيرة في الوقت الراهن.

إيفانز: لقد خمّنا مقدماً أن من بين همومك بالنسبة للمستقبل المحكمة العليا المعادية للفيدرالية التي تصدر من المبادرات القومية ما يزيد على أية محكمة منذ محكمة روزفلت.

كلينتون: هذه محكمة على قدر كبير من المحافظة. ويدرك معظم الناس أن مصير رو ضد ويد (قرار المحكمة العليا سنة ١٩٧٣ الذي أجاز الإجهاض) سوف تحدده انتخابات الرئاسة، ولكن كثيرين لا يدركون أن التعيينات المستقبلية يمكن أن تؤدي إما إلى استمرار هذا الاتجاه المعادي للقومية أو تقضي عليه. بل إنهم أبطلوا قانون العنف ضد المرأة.

والجدل الذي يقولون به الآن (بشأن النزعة المعادية للقومية لدى المحكمة) هو ببساطة الصورة الجديدة من ذلك الجدل الذي يدور منذ تشكيل ورثة جورج واشنطن للحزب الفيدرالي. وقد كان واشنطن وهاملتون في جانب وجيفرسون على الجانب الآخر. وفي رأيي أنه أمر طيب أن يكسب جون مارشال (قاضي المحكمة العليا في القرن التاسع عشر) المعركة في نهاية الأمر. وهناك دور في مجتمعنا لحكام الولايات الذي يتمتعون بقدر كبير من النشاط. وقد كنت حاكماً لمدة اثنتي عشرة سنة. ولكن لابد من حل الأمور الأساسية لهوية أية أمة على المستوى القومي.

إيفانز: قرأت كثيراً. فما هي الكتب التي أثرت فيك؟

كلينتون: لقد قرأت الكثير من الروايات البوليسية. ولكني أحب التاريخ والسير والكتب التي تتناول المسائل الدينية. ووصلني مؤخراً كتاب عن مذكرات توماس ميرتون. وأنا متشوق لأن أبدأ في قراءته. وفيما يتصل بالتأثير، لا أدري. لقد قرأت مئات الكتب منذ مجيئي إلى هنا. وقد تأثرت كثيراً بسيرة جون مارشال التي كتبها جان إدوارد سميث. كما قرأت سيرتي ألكسندر هاملتون وواشنطن بعد وصولي إلى هنا، وسيرتي الرئيسين آدامز[٣] (إلا أن كتاب سميث أوضح لي كيف أن مارشال، باعتباره كبير القضاة في قضية ماربري ضد ماديسون (القضية التي نظرت سنة ١٨٠٣ ووضعت الأساس لنهائية أحكام المحكمة العليا) وكل تلك القضايا، كان نبراساً للأمة الأمريكية).

إيفانز: سيرة مارشال وثيقة الصلة بالوقت الراهن.

كلينتون: إنها بالنسبة لي واحد من أهم كتب التاريخ الأمريكي، لأن كل جيل كان مطالباً بإعادة رسم صورة الأمة. فقد كان على إبراهام لنكولن أن يفعل ذلك. وكتب جاري ويلز ذلك الكتاب المدهش عن خطاب جيتيزبرج[٤]. وأهم ما قاله هو أن لنكولن أعاد تفسير الدستور لنا بحيث يكون أقرب لما تعنيه الكلمات، على عكس ما كانت عليه الحقائق عندما كتب. وحينذاك لم تكن الأمة بحاجة إلى أن يعاد رسم صورتها إلى أن جاء تيدي روزفلت وودرو ويلسون. وبعد ذلك كان على ترومان أن يعيد رسمها من جديد، في الداخل وأمام العالم. وأعتقد أننا الآن في المرة الخامسة لإعادة رسم صورة الأمة.

وكنت أستشعر على الدوام التشابه بين هذا الوقت وتحول البلاد من زراعية إلى صناعية، ومن مجتمع ريفي إلى مجتمع حضري في بداية القرن تقريباً. وبعد ذلك اندماج أمريكا مع العالم، إلى جانب بناء مجتمع الطبقة الوسطى مع وجود شبكة أمان اجتماعي في عهدي روزفلت وترومان.

إيفانز: هل أصبحت أكثر روحانية وأنت في المنصب؟

كلينتون: نعم. وأعتقد أن أي إنسان يصبح أكثر روحانية وهو في المنصب. فهذا ما حدث لكل رئيس تقريباً. وساهمت في ذلك الظروف غير العادية التي عملت في ظلها. ومع أن هذا شيء يصعب قوله، ويكاد لا يصدقه أحد، فأنا أعتقد أنه كان مفيداً لي كإنسان أن أجرد من أوهام الحياة وأن أضرب علناً بالطريقة التي ضربت بها. وهذا الأمر إن لم يقض عليك فإنه من الممكن أن يجعل منك إنساناً أفضل. ومن الممكن أن يجعلك أقل اهتماماً بالمظهر ويزيد اهتمامك بالجوهر، ويمكن أن يفرض نوعاً من إعادة النظر في الحياة التي أعتقد أنه ينبغي على الناس دوماً المشاركة فيها بطريقة أو بأخرى.

وعليه فإنني مدين لخصومي بالشكر إلى حد كبير لمنحهم إياي تلك الفرصة. ولم تعد لدي جبهات أعمل على تقويتها، ولذلك فليس لدي إلا ما هو خاص بي بالفعل وما هو حياتي بحق، وما أحبه، وما أهتم به، والناس الذين أخلص لهم، والقضايا التي أقاتل من أجلها. وليست لدي أية شكوى بهذا الخصوص. وما حدث كان فيه ضرر كبير لأمريكا وللمجتمع الأمريكي. ولكن بالنسبة لي شخصياً، فلا يمكن أن أقول إنه كان بالأمر الضار. وقد ساعدني مانديلا على التعامل مع هذا. وهو صديق لي وتحدثت إليه مراراً.

إيفانز: هل تحدث إليك أثناء توجيه الاتهام؟

كلينتون: نعم، طوال الوقت. لقد كان شديد الإخلاص لي. بل إنه جاء إلى هنا. جاء يوماً مبكراً، عندما قدم له الكونجرس الوسام الذهبي، وجاء إلى البيت الأبيض وهاجم ما كانوا يفعلونه معي. كما أنه ساعدني في طريقة تفكيري في الأمر وكيف أتعامل معه - وهو شيء لن أنساه أبداً.

إيفانز: كانت له سنواته الطويلة التي أمضاها في السجن. فهل كانت نصيحته عملية فيما يتعلق باجتياز المحنة أو كونك أصبحت روحانياً؟

كلينتون: كلاهما. كلاهما. فإنك إذا قرأت سيرته الذاتية سوف ترى ذلك. إذ قال لي أول ما قال إن الطريقة الوحيدة التي تمكن هذه الأمور من القضاء عليك هي أن تسمح لها بأن تقضي عليك.

إيفانز: هل تشعر بمرارة؟

كلينتون: لقد قال ما دمت لا تشعر بذلك - أي ما لم يجعلك هذا تشعر بالمرارة، وما لم تكن غاضباً على الدوام، وإذا تركت الأمور تسير، وأن تمضي في سيرها - فسوف تكون على ما يرام.

إيفانز: من المدهش أن كل هذه السنين لم تشعره بالمرارة.

كلينتون: سألته ذات مرة، ومضينا في كلامنا لأقول له: «أنت رجل عظيم، ولكنك سياسي عظيم كذلك، تدعو سجانيك إلى خطاب توليك وما شابه - ولكن ألم تكن تكرههم بالفعل؟» فقال إنه كرههم فترة طويلة، إلى أن أدرك أنهم أخذوا منه الوقت الكثير. وقال: «لقد أسيء إليّ جسمانياً وعاطفياً. لم يتح لي رؤية أطفالي وهم يكبرون. فصلت عن زوجتي، وهو ما أدى في نهاية الأمر إلى إنهاء زواجنا. وبعد ذلك أدركت أنه يمكنهم أن يأخذوا كل شيء ما عدا عقلي وقلبي. واتخذت قراراً بألا أتخلى عنهما. ذلك هو القرار الوحيد الذي يجب عليك اتخاذه في مواجهة كل هذه الأمور التي تحدث لك. عليك أن تقرر ما الذي ستتخلى عنه وما لن تتخلى عنه. لقد أخذوا منك الكفاية، وأنا لن أعطيهم أي شيء آخر. فلماذا تعطيهم أنت؟ إنك لست مضطراً لذلك».

لقد ساعدني ذلك بالفعل. وقلت: «إنني سأنهض من فراشي وأذهب إلى عملي كل يوم وأدع الشعب الأمريكي يضع استنتاجاته. لدي أناس يدافعون عني، وأومن بأن الأمور ستسير بالطريقة التي يفترض أن تسير بها». وهكذا بدأت في الذهاب يومياً إلى العمل - وتركت الأمور تجري في أعنتها. ■



الهوامش

(١) يقصد السيرة الذاتية التي كتبها المؤرخ الأمريكي هنري بروكس آدامز بعنوان The Education of Henry Adams سنة ١٩١٨ وهي السنة التي توفي فيها. (المترجم)

(٢) كان هذا بعد ظهور نتيجة انتخابات الرئاسة الأمريكية لسنة ٢٠٠٠، وقد أقام الديمقراطيون أنفسهم دعاوى قضائية لإنجاح مرشحهم آل جور لكنهم فشلوا وفاز المرشح الجمهوري جورج بوش بالرئاسة. (المترجم)

(٣) ثاني رئيس للولايات المتحدة جون آدامز (١٧٩٧-١٨١١) وسادس رئيس جون كوينس آدامز (١٨٢٥-١٨٢٩). (المترجم)

(٤) ألقاه الرئيس إبراهام لنكولن في بلدة جيتزبرج جنوبي ولاية بنسلفانيا في نوفمبر ١٨٦٣ عقب معركة فاز فيها الاتحاديون وحالت دون غزو الجنوبيين للشمال. (المترجم)

حوار أجراه هارولد إيفانز مع الرئيس كلينتون، ونشرته جريدة «التايمز» البريطانية يومي ١١و١٣ نوفمبر الماضي.

ترجمة: أحمد محمود

مصـــر قبـــل الثـــورة

يختلف المؤرخون حول طبيعة الدور الذى لعبته الطبقة العليا فى مصر قبل الثورة، وبالتحديد بين ثورتى ١٩١٩ و١٩٥٢.. هل كانت طبقة مستغلة تمثل مجتمع النصف فى المائة، وأنها كانت من أعوان الاستعمار وأذنابه؟ أم أنه كان لها دور اجتماعى وثقافى واقتصادى؟ حول هذه القضية قدمت الدكتورة ماجدة بركة رؤيتها من خلال تاريخ مصر الاجتماعى. وليس من خلال مفهوم الصراع الطبقى الذى لجأت إليه كثير من الكتابات للذين استخدموا مصطلح «البرجوازية» فى وصف هذه الطبقة. وركزوا على دورها من المنظور الاقتصادى فحسب. وهذا ما حاول الدكتور عاصم الدسوقى أن يوضحه فى مقال مستقل.



فى أحد صالونات نادى السيارات الملكى فى الثلاثينيات

لفظة «برجوازية»، هذه اختلف مدلولها حتى أوروبياً. فكانت تستخدم فى فرنسا فى القرن الثامن عشر للدلالة على فئات تتضمن كبار ملاك الأراضى الزراعية الذين يعيشون على ريع أراضيهم، بينما جاء مدلولها فى إنجلترا مغايراً تماماً حيث جاءت دالة على طبقة من سكان المدن تعمل «بغير الزراعة»، وتعد طبقة متوسطة بين أرستقراطية الأرض وبين فقراء الريف والمدينة.

تختلف «الطبقة العليا» فى مصر عما سمى بالأرستقراطية فى أوروبا. نعم كان لديها نزعة أرستقراطية، ظهرت فى حب الإنفاق وكثرة الاستدانة اللذين اتسم بهما أرستقراطيو أوروبا، كما ظهرت فى ولعها بالحصول على الألقاب. إلا أن حداثة أصولها التى تعود فى أحسن الأحوال إلى القرن التاسع عشر بينما تعود بعض الأسماء الأرستقراطية فى مجلس الشيوخ البريطانى ستة قرون إلى الوراء، وكذلك انعدام توريث الألقاب كما لدى الأرستقراطية الأوروبية، وقبول الطبقة العليا المصرية إثراء نفسها بالعناصر الناجحة من الطبقة المتوسطة والمسافة التى تفصلها اجتماعياً وسياسياً عن البلاط (باستثناء أعضاء بعض الأحزاب السياسية التابعة للقصر وفى مقدمتها حزب الاتحاد) كانت جميعها من الأمور التى ابتعدت بها عن «النموذج الأرستقراطى الغربى». وبعكس هذه الأرستقراطية (أو نظام الكاست الهندوكى)، لم يكن هنالك فى مصر تعريف قانونى للطبقة العليا بخلاف الشروط الضمنية لعضوية البرلمان.

واتساقاً مع المنهج الأنثروبولوجى الذى يتقصى الأمور «من الداخل» ويهتم بالتعريفات الذاتية والذى أرى أنه يمكن أن يفيد فى إثراء أو تجديد دماء الدراسة التاريخية، يمكن لنا أن نتبنى التسميات التى أطلقها المجتمع المصرى ذاته على هؤلاء حين أشار إليهم بتعبير «الأعيان» للملاك الريفيين، و«الذوات» لكبار رجال الدولة فى الجيش والحكومة والذين كانوا غالباً من أصول تركية شركسية. وبانضمام فئة «المهنيين» من أطباء ومهندسين ومحامين وكذلك «رجال الأعمال» من المشتغلين بالصناعة والتجارة الحديثة إلى هؤلاء ممن لا ينطبق أى من التعبيرين عليهم يمكننا أن نطلق على هذه الفئات الثلاثة تعبير «الطبقة العليا» المصرية.

ولكن وبما أن الثروة هى العنصر الثابت فى تعريف الطبقة، ما هو حد الثروة الذى كان يؤهل صاحبه لكى يصبح فى عداد أبناء الطبقة؟ دعونا نبدأ بمراجعة التوصيف الكلاسيكى جداً لتعبير كبار الملاك وهو توصيف «جابرييل باير» لهم بأنهم من كانوا يملكون خمسين فداناً فأكثر[1].

كان «باير» قد تبنى هذه «العتبة» بناءً على تحديد اللورد كرومر لها فى عام ١٨٩٤ لأسباب ضريبية إحصائية. وكان هذا بدوره قد توصل لهذا التحديد بناءً على أن ملكية بهذا الحجم مزروعة بالقطن كان يمكنها فى ذلك التاريخ أن تدر دخلاً سنوياً مقداره خمسة آلاف جنيه مصرى، وهو ما اعتبر «دخلاً كبيراً» بمعايير ذلك الزمان. ولذا فإن المهم ليس هو حجم الملكية بل ما يمكن أن تدره من دخل. مما يعنى أن هذا الحجم لا يمكن أن يتسم بالثبات طوال المدة حتى قيام ثورة يوليو. وهكذا فإن الحد الأدنى الذى تم اعتباره يوصف ملكية كبار الملاك كان هو ٢٠٠ فدان، سواء كان ذلك فى مضابط البرلمان التى ناقشت انتشار وباء الملاريا سنة ١٩٤٤ بشكل ملحوظ فى مزارع «كبار الملاك» ممن حددهم النحاس باشا بأنهم من يملكون مائتى فدان فأكثر، أو حتى وفق قانون الإصلاح الزراعى الأول الذى أصدره الضباط الأحرار الذين سعوا بشكل واع إلى تصفية نفوذ هذه الطبقة.

وبما أن الأمر يتعلق بحجم دخل معين تدره مائتا فدان فى الأربعينيات، فإن من يدخل فى عداد الطبقة من المهنيين أو رجال الصناعة أو التجارة هم من يحصلون على هذا المقدار من الدخل أيضاً - وهؤلاء حددهم برلمان ١٩٤٤ - بأنهم من كانوا يملكون منشآت صناعية أو تجارية يعمل بها ثلاثون شخصاً فأكثر.

والحال أنه من الصعوبة بمكان تحديد عدد أسر الطبقة العليا، لأنه وإن أمكن استخلاص عدد من الأسر من الإحصاءات وفقاً لمقياس المهنة والدخل أو الملكية، فإنه يصعب تصفيتها أكثر بمزج ما سبق بالعنصر الثقافى، أى معرفة من تمتع إلى جانب الثروة بشرط الثقافة (متضمن على نحو ما فى المهنة) وخاصة النسب. فهذا ما لم توفره الإحصاءات بشكل كامل، وغاية ما يمكننا التوصل إليه عن طريقها هو عدد من الأسر بلغ خمسة عشر ألف أسرة عام ١٩١٩ (٣٪ من عدد الأسر القاطنة فى المدينة) وزاد إلى خمسة وعشرين ألفاً عشية ثورة ٥٢. وأن «صفوة» هذه الطبقة ربما لم تزد على ألفى أسرة استناداً إلى أعداد سائقى السيارات الخاصة والمربيات الأجنبيات والمقارنة بمن تم إدخالهم فى كتاب (The Egyptian who is who)، الصادر عام ١٩٤٧ (يتضمن حوالى ١٣٠٠ شخص فقط) وهو عدد من الأسر تراوح بين ألفين وخمسة آلاف عشية قيام ثورة ٥٢، زادوا بزيادة أعداد من انضم إلى طبقة كبار ملاك الأراضى الزراعية خلال تلك الفترة من رجال الصناعة وكبار موظفى الدولة وكبار أصحاب المهن الحرة.

إننى أعتبر دراسة الطبقة أحد المداخل لدراسة مصر ومن خلالها وددت التعرف على الآليات التى يحدث بموجبها التغيير الاجتماعى والأنماط والأشكال التى يتخذها هذا التغيير. ولا يمكن إغفال ما حدث من تغيير بفعل «قوى اجتماعية»، كان الأفراد والطبقات صناعها وصنيعها فى آن واحد. فالتزايد السكانى هو الذى ضخّم الطبقة المتوسطة التى ضغطت بدورها باتجاه مجانية تدريجية للتعليم وانتهت بإزاحة الطبقة العليا القديمة عن قمة الهرم الاجتماعى سياسياً واقتصادياً. والتعليم والطبقة المتوسطة هما اللذان أدّيا معاً إلى تغيير الثقافة السياسية الغالبة من المطالبة بالاستقلال والدستور خلال العشرينيات والثلاثينيات إلى المطالبة بالاستقلال والعدالة الاجتماعية خلال الأربعينيات. والتعليم وازدواجيته أدّيا إلى كسر احتكار الثقافة التقليدية الدينية عندما كسر احتكار الكتّاب والأزهر لصالح المدارس الأميرية والأهلية والأجنبية. وهو ما أدّى من بعد إلى شرخ فى المجتمع اسمه البلدى والإفرنجى الذى طال كل شيء. ففى السكن هناك أحياء «بلدية» وأخرى إفرنجية وفى الملبس وفى التعليم، وحتى فى القانون كانت هناك المحاكم الشرعية والمحاكم المدنية ثم المحاكم المختلطة (الإفرنجية). وطال الانقسام أثاث المنازل وأصناف الخضر والفاكهة حتى لم يكد ينج منه شيء، بل ربما أمكننا أن نقول أنه أدّى إلى نوع من فصل عقل مصر عن جسدها. فالمثقف العلمانى نازع المثقف الشيخ دوره فى أن يصبح عقل الأمة وضميرها، على حين بقيت الجماهير المتدينة تائهة لوهلة بين الاثنين.

كذلك أدى مزيج الزيادة السكانية مع محدودية الرقعة الزراعية وعدم وجود صناعة كافية لامتصاص الأيدى العاملة الناتجة عن الزيادة السكانية، أدى كل ما سبق إلى استمرار تخلّف الريف. فنمط الاستغلال الزراعى ظل نمطاً كثيف العمالة.

وظلت هذه العمالة ضعيفة الأجر بالرّغم من ظاهرة الهجرة المتزايدة إلى المدينة. وأدّى ما سبق بدوره إلى زيادة حدة الانتقادات لكبار الملاك الزراعيين فى صحافة الأربعينيات بل وفى برلمان الأربعينيات.

وبخلاف التعليم هنالك الاستيعاب المتزايد للرأسمالية على النمط الغربى. فلولاها لما انتقلت الطبقة العليا بصفة خاصة ومن خلفها الطبقة المتوسطة بدرجة أقل إلى أنماط الاستهلاك الغربية. فبدلا من الملابس التقليدية الثابتة الطراز والتى تصنعها الخيّاطات فى المنازل أصبحت هناك الموضة التى تتغير موسمياً عندما يعطى «ملوك الموضة» من أصحاب تلك الصناعة أوامرهم بذلك حتى تبقى عجلة تلك الصناعة دائرة فيبلى الطراز دون أن تبلى الأثواب.

وبدلاً من الخياطة أصبحت هناك بيوت الأزياء الراقية والبوتيكات التى تمتلك امتياز دور الأزياء الكبرى مثل «بالمان» و«جاك فات». أى أن الثوب لم يعد «وطنياً» ولا تقليدياً وإنما مستورد من الخارج. وهو منطق يجعل من الطبيعى تفضيل المستورد على الأصلى. واستند تحديد الصناعة الغربية والغربية الطابع لنفسها فى مجال الأزياء على أسس طبقية فأصبحت الطبقة العليا تهجر «الموديل» القديم عندما ينتشر - وبمفهومها يبتذل - بين الطبقات الأدنى.

ثم كان هناك التقدم التقنى الذى أدى إلى اختراع السيارة والكهرباء والتليفون وإمدادات المياه النقية بمواسير داخل البيوت. فأسهم ما سبق فى هجرة «الطبقات العليا» الحارة القديمة الضيقة إلى الأحياء الجديدة بشوارعها الواسعة التى تسهل فيها حركة السيارات ومجهزة بيوتها منذ البداية بشبكات المياه والكهرباء، تاركة أحياءها القديمة تعانى من الشيخوخة والإهمال.

هذا التقدم التقنى هو الذى أدى إلى الإعادة الشاملة لتنظيم المكان وتغير أنماط السلوك حيث ترجم فيما ترجم إلى سبل مواصلات حديثة كان لها تأثير بالغ على تطور القيم وأشكال الحياة الاجتماعية. فقد خفت حدة «الرقابة الاجتماعية» بعد أن أصبح من الصعب على الأهل مراقبة أبنائهم أو حتى مراقبة أهل الحارة أو الحى وضبطهم لسلوك سكانه الذين لم يكونوا من قبل يذهبون بعيداً قبل ظهور المترو والأومنيباص.

وسمحت المواصلات بارتياد وبالتالى ازدهار أنواع جديدة من الترفيه مثل السينما والمسرح «والصالات» وظهور أنواع جديدة من التسوق بظهور المحلات الكبرى. فكما عرفت باريس لافييت و برانتون والبون مارشيه عرفت مصر صيدناوى وشيكوريل وافيرينو وعمر أفندى. وبين هذا وذاك انتهى التداخل القديم بين مكان السكن والعمل والترفيه الذى كان موجوداً فى الحارة القديمة قبل أن يهجرها أغنياؤها والذى ظل قائماً بالنسبة لعناصر كثيرة من الطبقات الدنيا فى المدينة.

واختلفت الرموز التى يدور حولها النشاط. كانت الرموز التقليدية للمدينة الإسلامية هى الجامع والسبيل (بكتّابه) والتكية والحمام. فجاءت الأحياء الجديدة برموز مخالفة. وإذا أخذنا هليوبوليس البارون «إمبان» مثالاً لوجدنا الرموز أصبحت هى الفندق والنادى وميدان السباق واللونابارك.

طال التغيير المدينة عموماً، ولكنى أحصر نفسى هنا فى تغير علاقة الطبقة «بالمكان» على عدة محاور. وبالتغيّر النوعى الذى حدث داخل كل منها. ولنبدأ بالسكن فنقول أن «سقوط الحارة» لم يكن نهاية المطاف. بل انطبق منطق «الموضة» والتغيير نوعا ما على الأحياء. فسقطت بعض الأحياء التى كانت متميزة سابقاً كلما فقدت هدوءها بغزوها من الخارج. مثلا فقدت الأزبكية مكانتها السابقة لقربها من مراكز الترفيه والتسوق. وشهدت السنوات من ١٩١٧ إلى ١٩٢٧ صعود العباسية التى ضمت الكثيرين من ملاك الأرض المهاجرين من الريف. ومصر الجديدة التى ضم الجزء المتميّز منها أعضاء من الأسرة المالكة والبلاط. كما شهدت تلك السنوات الهبوط النسبى للسيدة زينب وشبرا وغيرها. ثم ابتداء من سنوات الثلاثينيات أصبحت الزمالك وجاردن سيتى والمعادى وأجزاء من هليوبوليس والشريط المحاذى لنيل الجيزة هى الأحياء الراقية بامتياز.

وقد تغيّر الفكر الحاكم للتفضيل السكنى نحو مزيد من الانفتاح على الخارج فمن تفضيل الحارة السد التى لا تفضى إلى شىء إلى تفضيل الطريق المفتوح. ومن تفضيل المشربية التى يرى من خلالها أصحاب البيت ولا يُرون إلى الشبابيك ذات الشيش الذى يمكن أن ينفتح على مصراعيه، ومن الإطلال على الفسحة الداخلية إلى الفاراندة المطلّة على الشارع ومن الحوارى الضيّقة المنحنية الظليلة إلى الشوارع المستوية الفسيحة المشمسة.

وقد ظهر تيّار عربى معمارى تمثّل فى فيلات أمثال عطا عفيفى باشا وبهىّ الدين بركات باشا ومبنى بنك مصر (١٩٢٧) والجمعية الهندسية المصرية (١٩٣٠)، إلاّ أنّ غالبية المبانى والبيوت كانت على الطرز الغربية «الباروك» و«الآرنوفو» و«الآرديكو» والحديث..الخ. ولم ترُق دعاوى معماريين مصريين من أمثال حسن فتحى ورمسيس ويصا واصف للطبقة العليا (أو حتى المتوسطة) رغم وجود كثرة من المهندسين المصريين البارزين من أمثال: سيّد كريم وعلى لبيب جبر وفريد نجم وغيرهم.

أمّا المنزل فقد تأثر أيضاً بالتغيرات الاجتماعية فانقرض الحرملك والسلاملك وانقرض البئر وغرف الخزين والإسطبل الذى تحول إلى جراج فى مرحلة مبكرة نسبياً، وفى مرحلة لاحقة انكمش حجم البيت وأعداد الخدم بانكماش حجم الأسرة بل شهدت نهاية الأربعينيات تحولاً متنامياً للطبقة العليا من الفيلات إلى الشقق وظهرت العمارات الفاخرة مثل عمارة صدقى باشا وعمارة على لبيب جبر وعمارة لوبون فى الزمالك.

وفى مجال « الترفيه » انفصلت الطبقة تدريجياً عن الشكل الموسمى القديم للترفيه القائم على الاحتفالات الدينية كالمحمل والموالد والأعياد، وعلى دورات الطبيعة والزراعة (وفاء النيل، شم النسيم، فتح الخليج) والمناسبات الأسرية (الزواج، الخِتان...الخ) وهى أشكال قائمة على «المشاركة» وتحوّلت إلى نمط أكثر قياماً على المشاهدة وأسرع تواتراً وأقل موسمية تنشد الترفيه فى ذاته دونما الاحتفال بحدث خارجى.

وفى مجال «التسوّق» كان الشكل القديم هو الأسواق المتخصصة فهناك الصاغة وسوق السلاح والمغربلين ومختلف أنواع الحرف والصناعات تتجاور ولا تختلط. فجاءت فكرة «الوسط التجارى» (Le centre-Ville) الذى تتجاور فيه محلات ذات تخصصات متباينة بل



فيلا البدراوى عاشور بالقاهرة..

نشأت المحلات الكبرى كصيدناوى وشيكوريل وأفيرينو وغيرها ببضائعها من كل لون وصنف، وهى التى كانت هذه الطبقة تؤمّها.

وفى مجال «التعليم»، ظهر تأثير المكان جلياً: فوقوع مدرسة الإبراهيمية الأميرية مثلا فى حى راق كحى جاردن سيتى جعل نسبة طلبتها من الطبقة العليا أعلى على سبيل المثال من مدرسة الناصرية التى كان موقعها السيدة زينب. وكذلك كان الأمر بالنسبة لمدرسة السعيدية التى لم تكن تقع فى الجيزة فحسب بل كانت أقرب مدرسة أميرية للزمالك. ولم تكن الفروقات بين أبناء هذه المدارس من الطبقة العليا وزملائهم من الطبقة المتوسطة داخل نفس المدرسة إلاّ انعكاساً لثراء الأثرياء مقابل تواضع إمكانات الآخرين حيث يؤدّى دوماً تجاور من يملكون النقود والثراء مع من لا يملكون إلى مشاعر متضاربة وقويّة. وإذا كان الفصل المكانى قد حدث تدريجياً بين أحياء السكن وأماكن الترفيه والتسوق فى المدينة، فقد بقى التجاور المنشئ للمشاعر القوية المتضاربة قائماً فى مكانين: فى المدينة كان محلّه المدرسة، وفى الريف كان محلّه «العزبة».

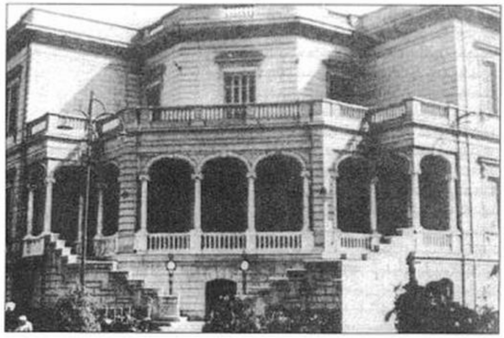
وبهذا ننتقل إلى المجال الثانى وهو مجال التصورات الطبقية، ولنبدأ بالريف. كانت العزبة شكلاً مهمّا من أشكال تنظيم العلاقة بين المالك الزراعى الكبير والفلاح. وفى هذا الإطار، كان المالك والفلاح يخشى أحدهما الآخر. انصبّت خشية الفلاح على إمكان طرده من العزبة التى كان المالك يعطيه فيها سكناً يقطنه وقطعة أرض صغيرة تلبّى الحاجات الغذائية لأسرته، كذلك انصبّت خشية الفلاّح على إمكان اتهامه بأنّه دوماً مدين بناء على سجلاّت يمكن للناظر التلاعب فيها، وصعوبة أن يجد هذا الفلاّح فى الدولة نصيراً له فطالما كان الملاك على صلة طيّبة بالمأمور، إن لم يكونوا على صلة صداقة أو تزاور.

وكان هناك إحساس من المالك بغدر الفلاح - فهذا الذى يحادثه بمنتهى الأدب وينزل عن دابّته إذا ما مرّ أمام المالك أو حتى داره - ربما يكون هو ذاته الذى سوف يحرق الزراعات أو السواقى أو يسرق من المحصول تحت جنح الظلام.

إن هذا الشكل الفردى الذى اتخذه رد فعل الفلاحين على الفقر هو الذى مكّن من اعتباره «جرائم» - مدانة أخلاقياً - أمّا حين يأخذ هذا التمرد شكلا جماعيا كما حدث فى كفور نجم فى أول الخمسينيات فقد اكتسب طابعاً سياسياً دون أن يمنع ذلك الدولة من محاولة قمعه على أية حال. وتجدر الإشارة فى هذا الصدد إلى أن سيطرة كبار الملاك على التشريع على المستوى الوطنى وعلى الإدارة على المستوى المحلّى أدت إلى منع إصدار أى تشريع ينظّم علاقة العمل الزراعية أو العلاقة الإيجارية حتى قيام ثورة يوليو. ولم يكن هنالك من حكم قانونى لهذه العلاقة حتى ذلك الحين سوى قانون الجنايات العادى.

فإذا ما انتقلنا إلى قيمة «العمل» لوجدنا أنه ينبغى أن نؤكّد من جديد على التنوّع ما بين مختلف فئات الطبقة فى بعض نواحى السلوك، فبالنسبة لمن كانوا أبناءً لكبار ملاك أرض على سبيل المثال وعاشوا على ريع أملاكهم، لم تكن قيمة العمل هى العليا، بل اعتبر الكثيرون من أبناء هذه الطبقة العمل عبوديّة. وامتلأت طبعات (The Egyptian who's who) بعبارة «من ذوى الأملاك» فى الخانة المخصصة للعمل. ومن المفترض أن يكون ذلك على النقيض مما آمن به قطاع آخر من الطبقة وهو قطاع أصحاب المهن الحرة، أو حتى قطاع الباشوات العصاميين الذين بلغوا ما بلغوه من شأن بالعمل والجهد. وهكذا كانت فئة ملاك الأرض «الصرف» هذه أقرب إلى أرستقراطية الأيام الخوالى الأوروبية بينما كانت القطاعات المرتبطة بالمهن الحرة والصناعة الحديثة أقرب إلى البرجوازية - على النمط الإنجليزى - والتى لم يكن لها من نسب سوى لعملها الناجح.

لم تكن امرأة الطبقة العليا استثناء على النظرة العامة للمرأة فى المدينة بوصفها «سيدة البيت»، وإذا كانت ظروف بعض النساء الفقيرات تجبرهنّ على العمل فإن امرأة الطبقة العليا لم يكن هناك ما يضطرها لمثل ذلك. أما



...أحد قصور أسرة البدراوى عاشور فى قرية دربن

فكرة تحقيق ذاتها من خلال النجاح المهنى فقد كانت بعيدة كل البعد. كان كل ما يحيط بها من آراء فى الأسرة والمدرسة وفى المجلات النسائية يعلمها أهمية تكريس كل وقتها لبيتها وزوجها وأبنائها مما سوف يستغرق منها ذلك الوقت الذى يستغرقه زوجها فى عمله - إذا كان يعمل. فكان يتم تلقينها بكافة الوسائل أن تحقق ملكاتها ونضوج شخصيتها فى بيتها وأن سعادتها إنما تكمن فى التضحية من أجل الآخرين والإيمان بقدسية هذا الواجب الذى تؤديه. أمّا المرأة التى تحلم بالخروج إلى الحقل العام فعليها أن تؤدى هذا العمل فقط قبل الزواج وتقنع بتركه حالما تزوجت وإلا تعرضت لما يكفى من المشاكل وربما المآسى لردها إلى صوابها. وكم من أفلامنا التى تنتمى إلى فترة الأربعينيات مثل «الأستاذة فاطمة» وغيرها يشهد على ذلك... على جانب آخر كان كبر حجم الكثير من بيوت أسر الطبقات العليا وارتفاع عدد الخدم والمربيات والمدرّسين الخصوصيين يعنى أن إدارة هذا البيت تساوى عملياً إدارة فندق متوسط الحجم، كما ذكرت عفاف لطفى السيد فى مقال لها عن سيدات الطبقة العليا المصريات. وقد ساعدت هذه الخبرة من تطوع منهن للأعمال الخيرية خاصة فى الأربعينيات التى قامت بديلاً عن العمل وشكلا من أشكال العمل العام الذى يخرجهن من النطاق المنزلى.

وبالنسبة للزواج فإن بقاء عدد الملكيات الكبيرة ثابتاً على مدى خمسين عاماً رغم عامل تفتت الملكية بالميراث إنما يشير إلى إعادة تكون هذه الملكيات عن طريق المصاهرة، وكان كبار الملاك كانوا أسرة كبيرة يتزاوج أعضاؤها فيما بينهم. وكان العنصر الذى يقوم الأهل دوماً بالتركيز عليه هو «النسب» بين أسرتين وليس «الحب» الذى كان بالنسبة لهم مفهوماً غريباً على الزواج. وتتعدد الشواهد على ذلك، فيقول وجيه غالى فى رواية (Beer in the snooker club) التى تضم سيرته الذاتية: «لم تحب أمى زوجها وقناعتها أنها تزوجته كى تمنحنا أباً محترماً». كما يتذكّر الدكتور مجدى وهبة أنه: «كان هناك هذا الشرخ الفظيع بين المرأة والرجل فى داخل الأسرة ذاتها. كانت النساء مصقولات، متفرنسات، يتحدّثن عربية ركيكة، بينما تحدّث الرجال بالعربية وحدها وبعض الإنجليزية ولم يتمكنوا من التوافق مع زوجاتهم. عاش الرجال حياتهم المنفصلة، ارتادوا المقاهى والنوادى بينما كان هناك فى البيت الصالون الأوبيسون والمرأة التى تسيطر على كل شيء، وأحياناً كانت للرجل حياة أخرى مع غانية أو راقصة..الخ، كانت هنالك هوة بين الرجل والمرأة وكانت الأسرة منقسمة فى التربية والأخلاق».

أما تربية الأبناء فقد تمت بأسلوب سلطوى، أثر بقاء الأب الطويل خارج المنزل على علاقته بأبنائه التى افتقدت لذلك الحميمية فى الغالب وكان الأبناء لهذا السبب أقرب إلى أمهاتهم اللواتى كان سلوكهن المستمد من التربية الغربية (الفرنسية فى الغالب) أول مدرسة اجتماعية لهم. كما تعزز هذا التأثير الغربى بالمربيات الأوروبيات اللواتى قمن على تربية الأطفال حتى يشبوا عن الطوق.

وبالنسبة لتربية الفتيات، فبالإضافة إلى تعلم اللغات الأجنبية، كان المتوقع من فتاة الطبقة الراقية أن تتعلم التصوير الزيتى والعزف على آلة البيانو وإجادة أعمال الإبرة. ولم تكن فى الواقع بحاجة إلى إجادة اللغة العربية والنحو، فاللغة العربية فى صورتها الصرفة ندر استخدامها إلا فى التعامل مع الخدم.

ولم ينج أبناء الذوات من رواج صورة سلبية عنهم يمكن رصدها فى مسرحيات يعقوب صنوع أواخر القرن التاسع عشر، مروراً بحديث عيسى بن هشام أوائل القرن العشرين والصحف السيارة فى الثلاثينيات والأربعينيات. تصور ابن الذوات منخرطاً فى حياة اللهو بما فيها من احتساء الخمور واللعب على موائد القمار. وانعكس هذا فى الصورة السلبية التى أخذتها عنهم «بنات الذوات» أنفسهن ممن استجوبتهن المجلات السيارة فى الأربعينيات، والتى يمكن اعتبارها نوعاً من النقد الذاتى. يضاف إليها ما قيل عن «فقدان الدافع» لدى أبناء الطبقة مما جعلها تلجأ للعناصر المكافحة الناجحة من أبناء الطبقة المتوسّطة «لتخصيب أراضيها». فكما ذكرت السيدة ليلى إبراهيم (ابنة الدكتور الشهير على باشا إبراهيم) أنها كانت تسمع تعبير «Il faut fumer nos terres» بالفرنسية» فى هذا السياق. ولفرز ابن الذوات الصالح حددت بنات الطبقة عنصرين هما حسن الخلق وألا يكون عاطلا عن العمل.

وإذا ما نظرنا إلى مساهمة عناصر الطبقة العليا فى الحياة العامة، فمن المهم أن نضع فى اعتبارنا فى هذا السياق تصارع عاملين متناقضين فى التأثير على أداء النواب من أعضاء الطبقة داخل البرلمان. كانت السياسة المالية المتبعة هى ضرورة ألا يكون هناك أى عجز فى الميزانية. وبما أن موارد الدولة كانت محدودة، كان من نتيجة هذا المبدأ تنافس جماعات المصلحة المختلفة من أجل الحصول على قدر أكبر من المزايا وتحمل قدر أقل من الأعباء.

إلا أن دخول هؤلاء النواب البرلمان لم يكن بصفتهم ممثلين لطبقتهم بل لأولئك الفلاحين والعمال الذين ساهموا فى انتخابهم والذين كثيراً ما تتعارض مصلحتهم مع مصالح ممثليهم. لذا تجشم هؤلاء الممثلون عناء بادياً فى تغليف الدفاع عن مصلحتهم الطبقية بلغة الساعة الرائجة: لغة الوطنية وصالح الوطن. وأحياناً صالح أولئك الفلاحين والعمال أنفسهم الذين كانت الدعوى أن مصلحتهم مرتبطة بمصلحة ملاك الأرض وأصحاب الأعمال.

وقد كان هناك زمن لسقوط الأقنعة أيضاً. سقطت الأقنعة فى أوقات الأزمة الطاحنة حينما عجز ملاك الأرض عن إخفاء مصلحتهم بستار من منطق يستلهم مرجعية أوسع من مرجعية المصلحة الطبقية الضيقة. حينئذ لجأ كبار الملاك إلى إعطاء صورة سلبية منحطة للفلاحين من خلال سرد «حكايات» يكونون هم رواتها وشهودها لاعبين بذلك دور الخصم والحكم.

وقد تركّزت المناقشات البرلمانية عن قضايا التعليم خلال الثلاثينيات حول علاقة التعليم بالزراعة حيث برز الخوف من أن يؤدى التعليم إلى هجرة أبناء الفلاحين للزراعة وثورتهم على وضعهم فى السلم الاجتماعى . أما خلال حقبة الأربعينيات فلم يكن الفلاحون هم مصدر التهديد بل الطبقة المتوسطة التى كانت تضغط باتجاه المزيد من فرص التعليم بما هدد فرص أبناء الطبقة العليا فى الالتحاق بالمدارس الأميرية المدعومة من الدولة - دون سابق منافسة تذكر - كما أثار المخاوف من السيطرة على آلية الصعود الطبقى وأيضاً من انتشار البطالة.

وقد تأثر خطاب هذه الطبقة باللحظات التاريخية كلحظة الوفاق الوطنى فى عام ١٩١٩ التى تم خلالها صياغة مختلف التعريفات للمصلحة الوطنية، حيث كانت الغلبة لمفهوم الطبقة العليا للفكرة الوطنية على المطالبات المحددة للقوى الشعبية الأخرى والتى اختزلتها الطبقة العليا فى إخراج المستعمر، محوّلة الفلاح المصرى فى أثناء ذلك إلى رمز لأبدية الأمة المصرية. ثم تأثر هذا الخطاب بأزمة «الديون العقارية» فى الثلاثينيات التى اتسمت بتصاعد حدة الآراء المسبقة التى تتسم بتحامل ملاك الأرض الزراعية على كبار موظفى الدولة من ذوى الدخول الثابتة المرتفعة وبدرجة أقل على رجال الصناعة والتجارة. كذلك فقد تأثر هذا الخطاب بذلك المزاج العام الأكثر حدة والأكثر استعداداً لإحداث تغيير فى الأفكار والعادات والمؤسسات السائدة الذى اتسمت به سنوات الأربعينيات التى شهدت تقدم الطبقة بطروح وحلول اقتصادية أكثر تطوراً مما سبق من خلال البرلمان.

ويمكن تلخيص معالم الصورة الإجمالية على النحو التالى: على مدى الفترة من ١٩١٩ إلى ١٩٥٢ اختلفت هذه الطبقة حجماً وتركيباً وأسلوب حياة وتصورات بتأثيرات متعددة مثل تصاعد اتجاه الهجرة إلى المدينة، والتأثيرات الغربية لمجتمع المدينة وبخاصة العاصمة، والشح فى الأرض الزراعية وضغط الزيادة السكانية وزيادة الدخل المتولد عن أنشطة اقتصادية «غير زراعية».

وكما اختلفت استجابة الطبقة باختلاف ما واجهته من تحديات. فقد اتسمت فى تكوينها وسلوكها بما يتسم به كل تكوين حى من الديناميكية والتغيير والتنوع، بل والتناقض. ومن آيات التغيير الذى ميز سلوك الطبقة كيف غيرت هذه الطبقة من صرعات ملابسها، وكيف غيرت الغالبية «سكناها» من الريف إلى الحضر وكيف انتقلت من حى إلى آخر ومن «شاطئ مصيف» إلى سواه رداً على غزو هذه الأماكن من قبل الطبقات الأدنى وما يحمله ذلك من فقدان الطبقة لما تنشده من الهدوء والخصوصية.

وكنتيجة لما سبق، ازدادت المسافة بين الطبقات بمرور الزمن بسبب اختلاف أماكن وأساليب سكنى الطبقة وتسوقها وترفيهها عن نفسها. وعلى سبيل المثال، فإن «الاحتفالات الدينية» و«الإجازات الأسبوعية» تحولت من ممارسة جامعة للشعب إلى ممارسة مقسمة له. فلم تعد «صلاة الجمعة» أو الاحتفالات الدينية «الأكثر عمومية» كإرسال كسوة الكعبة المشرّفة إلى الأراضى المقدسة تضم الجميع. كما أصبح المصريون الأكثر تفرنجاً يأخذون عطلة نهاية الأسبوع يومى السبت والأحد بدلاً من الجمعة، كما يتضح من حرصهم على حضور «سباق الخيل» خلال هذين اليومين.

أما عن التنوع فى سلوك الطبقة العليا المصرية فقد تبدّى فى اختلاف التفضيلات. سكنيا على سبيل المثال، كان هناك من سكن العاصمة، ومن سكن الإسكندرية ومن فضل أن يقطن عاصمة الإقليم الذى تقع فيه أملاكه الزراعية. كان هناك من قضى الصيف فى أوروبا، وذاك الذى فضل التوجه إلى لبنان على حين فضّل آخرون الإسكندرية أو رأس البر أو حتى عزبتهم. كان هنالك من طرب لسماع «أم كلثوم» ومن فضل الموسيقى الغربية فاستعاض عنها بالمغنية البرتغالية «أماليا رودريجيز»، وكان هناك المبذرون ومن هم أقل تبذيراً، من اتسموا بعلوّ الثقافة ورقى السلوك، ومن كانوا أقرب إلى السلوك الريفى الخشن غير المصقول. وقد توقف الأمر على مدى بعد أو قرب هؤلاء من الأرض، أى على ما إذا كانوا من أعيان الريف أو من «ذوات» المدن.

أما التناقض والالتباس، فيتضح من تحليل أفكار عناصر الطبقة العليا عن فلاحيهم ومشاعرهم تجاههم،

فعلى الرغم من الاعتماد المتبادل لكلا الطرفين على الآخر، فقد حكم هذه العلاقة الخوف وفقدان الثقة. كان هناك التوتر الذى عبرت عنه إحصاءات الجرائم مثل قتل نظار العزب وسرقة وحرق المحاصيل الذى أشار إليه «توماس راسل» فى كتابه: "Egyptian Service".

ويمكن اعتبار هذا التوتر أحد أسباب التحول من «الزراعة على الذمّة» إلى «تأجير الأرض الزراعية» فى الأربعينيات. كذلك كانت طبيعة العلاقات داخل «العزب» حيث يتجاور المالك الغنى ذو النفوذ مع الفلاح الفقير الذى لا يملك أرضاً، كفيلة بخلق ردود فعل قوية ومتضادة على الجانبين. هكذا فإن الفلاح الذى تسبب فى هذه النسبة المرتفعة من الجرائم فى الريف المصرى هو ذاته الفلاح الذى عرف تاريخيا بمسالمته التى كانت محور الكتاب الشهير «للأب عيروط» بعنوان: "The Egyptian Fellah". أما المالك فقد أبدى من جهته مشاعر متضاربة تتراوح ما بين الاستهانة بالفلاح والخوف منه والمسئولية عنه والتماهى معه.

تبدى هذا التناقض فى تصور الطبقة لنفسها كذلك. فقد أراد أعضاؤها أن يقولوا أنهم مثلهم مثل الآخرين وأنهم مختلفون عنهم فى آن واحد. ظهر ذلك التناقض فى وصفهم لأنفسهم. فتارة يقولون: «أننا فلاحون ونحن والفلاحون أسرة واحدة»، وتارة أخرى يصفون أنفسهم «أننا أهم العائلات فى هذا البلد».

وفيما يخص «العلاقات الزراعية»، فقد كان المالك الزراعى أقرب إلى الحاكم منه إلى صاحب المشروع (entrepreneur). كانت له سلطة أبوية يتوجب عليه بمقتضاها فى أغلب الأحوال تقديم العون لفلاحيه وإسكانهم وتوفير نوع من الحماية الاجتماعية لهم، كما تقضى الأعراف السائدة. فكان ذلك بمثابة قفاز الحرير الذى يكسو الحقيقة القاسية للنظام



يوليو ١٩٥١. قوات البوليس المسلحة تتقدم لحصار قرية «بهوت» بعد هجوم الفلاحين على أملاك البدراوى باشا

الاجتماعى الذى يحافظ على التفاوت الصارخ بين الطرفين فى الثروة والقوة.

وقد تعدت سلطة المالك الأبوية تلك على الفلاحين علاقة العمل لتمتدّ إلى مجمل سلوكه الأخلاقى العام. صحيح أن «الإقطاع» على النمط التاريخى الغربى لم يوجد فى مصر (لفظة «إقطاعى» أدخلها الناشطون اليساريون إلى مصر فى سنوات الأربعينيات)، إلا أن الزراعة من أجل السوق تعايشت مع نمط «ما قبل - رأسمالى» من العلاقات الأبوية التى أدت فى المحصلة إلى حرمان الفلاح فعلياً من حق الترشيح ومن بعض «حقوق المواطنة»، كحقه فى تعميم التعليم الابتدائى المجانى. وكانت الحجة المستخدمة هى جهل الفلاح، وعدم استعداده للتعلم، وبصراحة أكثر الرغبة فى الحفاظ على الزراعة باعتبارها عماد ثروة الأمة.

ومن ناحية أخرى، لم تكن العلاقة بين العامل وصاحب العمل فى المدينة بعيدة تمام البعد عن نمط «السلطة الأبوية» هذا. إلا أن هذا النمط ميز علاقة أصحاب الأعمال المتوسطة والصغيرة بالعاملين لديهم بينما انخرط أعضاء الطبقة العليا المصرية من الصناعيين ورجال الأعمال فى نشاط واسع وأكثر حداثة. وربما فسر هذا أنهم كانوا أكثر استعداداً لقبول التشريعات العمالية ولعلاقة أكثر تنظيماً وأقل مباشرة بينهم وبين العاملين لديهم.

وفى مجال «التعريف الذاتى»، اعتبر الكثيرون من أعضاء الطبقة العليا أنفسهم «طبقة متوسطة»، على حد تعبير فرغلى باشا، أحد أقطاب تجارة القطن المصرية قبل ثورة ١٩٥٢. لم يكن الأمر مجرد تصور مغرق فى الذاتية، بل تصور ينطوى على قدر من الموضوعية. فقد احتلت هذه «الطبقة العليا» المحلية بالفعل مكانا وسطا فى منظومة السلطة والثروة فى مصر. فهى لم تكن تشعر - على الصعيد السياسى - بأن لها ما للملك والمحتل البريطانى من النفوذ فى إدارة الشئون السياسية للبلاد. أما على الصعيد الاقتصادى فقد ظلت غالبية النشاط الصناعى والتجارة الحديثة (الاستيراد والتصدير) فى أيد أجنبية، بما فى ذلك تجارة القطن المحصول الرئيسى لكبار ملاك الأراضى المصريين. وهكذا نظرت لنفسها عن حق بوصفها فى «موضع وسط» بين الأسرة المالكة والأجانب، من جهة، وبين

«الشعب» بطبقته المتوسطة وما دونها، من جهة أخرى.

وقد عانت الطبقة شعوراً عميقا بافتقاد الأمان (Insecurity)، ربما غذاه تفتت الملكية بفعل تقسيم الميراث وفق الشريعة الإسلامية، وسابق التجربة بمصادرة الحكام لأملاك المغضوب عليهم، وتكرار الأزمات التى هددت الطبقة مثل «أزمة البورصة» عام ١٩٠٧، «وأزمة الديون العقارية» التى بلغت ذروتها ما بين أعوام ١٩٢٩ و ١٩٣٣، «وأزمة بنك مصر» عام ١٩٣٩، وأخيرا فقد فاقمت موجة الغضب الشعبى التى عبرت عنها الطبقة المتوسطة والعمال والفلاحون فى العقد السابق على قيام ثورة ٥٢ من هذا الشعور بانعدام الأمن والطمانينة.

وقد عمد أعضاء الطبقة العليا فى مواجهة هذا الشعور إلى محاولة تدعيم وضعهم الطبقى من خلال آليات أربعة هى: أولاً: مؤسسة الأسرة والمصاهرة، وثانياً: دخول معترك السياسة لحماية وتحسين الوضع الطبقى، وثالثاً: إلحاق العناصر التى نجحت فى تكوين ثروة يعتد بها أو حققت نجاحاً مهنياً كبيراً بالطبقة، ورابعاً: العمل على موازنة تفتت الملكية بفعل الميراث عن طريق العمل على زيادة الملكية عن طريق شراء المزيد من الأراضى خلال حياة المالك.

لقد وعت الطبقة بكل تأكيد وجودها كطبقة تختلف عن الطبقات الأخرى فى المجتمع وذلك برغم كثرة الاحتكاكات الداخلية بين مختلف زوايا النظر الناجمة عن اختلاف درجات التغريب واختلاف الثقافة وعنصر القرب أو البعد عن حياة المدينة. وقد كان القاسم المشترك الأدنى بين أعضائها هو الثروة، فلم يكونوا ينظرون إلى أنفسهم كطبقة صلبة بقدر نظرتهم إلى أنفسهم كتجمع فضفاض للأسر المرموقة. كان مفهوم الأسرة عماداً مركزيا للهوية تم استخدامه على المستويين العام والخاص لتنظيم هيكل العلاقات الاجتماعية. وهكذا فقد تحدث أعضاء الطبقة فى خطابهم عن «الأسر الكريمة» (De bonne (famille) وعن «العزبة» كأسرة واحدة وعن مصر باعتبارها الأسرة الأكبر.

وفى خضم ما سبق صيغت الديمقراطية على المقاس كى تستثنى غير المرغوب فيهم وتتسع لأبناء الطبقة. ويمكن القول بأن نظرة الطبقة العليا للسياسة كانت على أنها مجال عمل يقتصر على الساسة. فقد كانت النظرة إلى كل من هم من غير الذكور البالغين من أعضاء الطبقة هى أنهم دخلاء متطفلون، اللهم إلا عندما تدعو الحاجة إلى توظيفهم سياسياً كما فعل حزب الوفد مع الطلبة والعمال وكما فعل حزب الأحرار الدستوريين مع الطلبة. والخلاصة هى أن الطبقة العليا أرادت ديمقراطية تحد من سلطات الملك، لا ديمقراطية تسمح للطبقات الأخرى بأن تشاركها حكم البلاد.

هكذا فإن تشكيل البرلمان المصرى بمجلسيه جاء وفقاً لدستور وإن لم يشر إلى لفظة «طبقة»، إلا أنه حدد صراحة الفئات التى يتشكل منها مجلس الشيوخ، كما حدد الفئات التى يتشكل منها مجلس النواب ولكن بأسلوب ضمنى بتحديد من يحق له الترشيح لانتخابات المجلس أصلاً. وقد استبعد العمال والفلاحون بذلك من عضوية أى من المجلسين واقتصر دورهم على الإدلاء بأصواتهم فى الانتخابات. وبمقتضى ذلك الوضع صار مفهوماً أن من يتم انتخابه متفوق على من انتخبوه وأن على الناخب لا أن يرشح نداً له بل من هو أعلى منه مركزاً أى أكثر منه ثروة وثقافة ومكانة اجتماعية.

ويتعلق وجه آخر من أوجه النظرة السياسية للطبقة بموقفها من «التغيير»، كانت تدعو إلى «التغيير التدريجى» إذ توجّس غالبية أعضائها من أى تغيير ضخم وسريع فى آن واحد. كما ظهر هذا التوجّه فى تكرار مطالبة أعضائها فى البرلمان بضرورة «التريث» كلما كانت هناك مطالبة بتغيير يرونه سريعاً أو غير مطابق لمصالحهم.

ثم كانت هناك العلاقة بالغرب، إذ استفادت الطبقة فى نشأتها وتكوين ثروتها من دخول النظام الرأسمالى على النمط الغربى إلى مصر، ولكنها ثارت على وضعها الهامشى فى هذا النظام واستخدمت فى ذلك خطاباً وطنياً. وكانت الطبقة ترى فى الغرب نموذجاً للتطور والحداثة. وعلى الجملة، فإنها لم تر تناقضا بين بعض توجهاتها الثقافية الغربية وبين هويتها المصرية وإن اختلفت نظرة آخرين لها فى هذا الخصوص. كما أسهمت الثقافة الغربية لنسبة متنامية من أعضائها فى اتساع الهوة التى فصلت بين طبقات المجتمع المصرى. وإذا كان هناك من وجد أن الطبقة أبدت قدراً أكبر من التسامح والليبرالية فى إطار مقارن، فإنها كذلك كانت أكثر ازدواجية فى السلوك. وبتأثير تعدد ما تعلمه أعضاؤها من لغات، فقد كانوا أكثر استعداداً لأن يحملوا بين جوانحهم أفكاراً متناقضة ومشاعر متضاربة لتباين ما تحمله اللغات المختلفة التى تعلموها من ثقافة. ويمكن استخلاص أنهم فشلوا فى صهر تلك «المكونات الثقافية» المتنوعة فى سبيكة جديدة تعبر عن ثقافة خالصة لطبقة عليا مصرية. إذ كان ما توصلوا إليه فى الحقيقة هو موزاييك تجاورت فيه أجزاء - متنافرة أحياناً - مستمدة من أساليب حياة وثقافات مختلفة.

وقد كانوا من حيث الأفكار والتصورات الطبقية يعتقدون بمسئولية الصفات الشخصية عن المصير الطبقى (أى أن من لم يصعد طبقياً حرمه من ذلك نقص فى ملكاته وليس النظام الاجتماعى العام)، وهى فكرة نجد جذورها لدى أفلاطون. وهذه الفكرة لم تكن بدورها ببعيدة عن نوع من الداروينية الاجتماعية التى آمنت بأن البقاء للأصلح، وقد مكنهم ذلك من القول بوجود نظام قائم على التحيز للكفاءات (Meritocracy) يمنح فرصة الصعود الاجتماعى من خلال التعليم للعناصر المتفوقة من الطبقة المتوسطة. وقد اعتقد الكثيرون من عناصر الطبقة العليا بأهمية وضرورة وجود «الطبقة الوسطى» كطبقة عازلة. أما فرص صعود فقراء الريف والمدينة فلم تكن ذات بال. وانتشرت دعاوى ضرورة عدم التوسع فى التعليم بما يفوق حاجة السوق إلى العمالة المتعلمة، ووجد من عبر عن القناعة بأنه لا ينبغى أن يسمح لتعليم الفلاحين بعرقلة الإنتاج الزراعى أو المساس بالعلاقات الزراعية.

وهكذا فإن الصورة التى يسفر عنها النظر فى خطاب الطبقة وأسلوب حياتها يخالف «التصور المثالى» لكتابات ونقاشات كثيرة استهدفت رد اعتبار هذه الطبقة التى أسقطها «نظام يوليو». وهى فى ذات الوقت لا تتفق والتقييم التبسيطى الذى يدينها بشكل مطلق والذى هيمن على الكتابات التاريخية باللغة العربية التى كتبت فى أعقاب ثورة يوليو. ■

---

(١) راجع:

Gabriel Baer, A History of Land Ownership in Modern Egypt, 1800-1950, (London: Oxford University Press, 1962).

الأعيان والذوات

في مطلع ١٩٤٦ نشر الدكتور أحمد نظمي عبد الحميد والدكتور راشد البراوى كتابًا بعنوان: «النظام الاشتراكي، عرض وتحليل ونقد»، تضمن فصلاً عنوانه: «النظرية المادية فى تفسير التاريخ - تحليل ثورة مصر سنة ١٩١٩» (الفصل الحادى عشر)، فكان أول تناول أكاديمي لتاريخ مصر الاجتماعي على أساس الصراع الطبقي، وهي إشارة جريئة حقًا بالنسبة للمناخ السياسي فى مصر آنذاك، وإن لم تكن معزولة عن التطورات التى حدثت فى مصر منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وانفجار المظاهرات وتكوين اللجنة العليا للطلبة والعمال، وإثارة المشكلة الاجتماعية والتفاوت الطبقي.

ولم تشهد ساحة الفكر الاجتماعي بعد ذلك كتابات تتناول هذه الزاوية بدرجة أوسع لفهم تاريخ مصر الاجتماعي إلى أن قامت حكومة ثورة يوليو بتأميم قناة السويس ١٩٥٦، وعند ذاك بدأت المدرسة الماركسية فى مصر خارج الجامعة فى تناول تاريخ مصر من وجهة نظر الصراع الطبقي بين «الإقطاع» والرأسمالية والعمال والفلاحين. وكانت أول الأعمال الرائدة فى هذا الخصوص كتاب إبراهيم عامر «ثورة مصر القومية» الذى صدر فى ١٩٥٦، وكتابه الثانى «الأرض والفلاح، المسألة الزراعية فى مصر» الذى نشر فى ١٩٥٨، ثم كتاب شهدى عطية الشافعي «تطور الحركة الوطنية المصرية ١٨٨٢ - ١٩٥٦» الذى نشر فى ١٩٥٧، وكذلك كتاب فوزى جرجس فى ١٩٥٨ «دراسات فى تاريخ مصر السياسي منذ العصر المملوكي».

ثم استقطبت هذه الكتابات كتابًا ودارسين آخرين أسهموا بدرجة أو بأخرى فى تجريب معالم الفكر الماركسي فى تناول تاريخ مصر الاجتماعي، وكان ذلك بفضل المناخ السياسي الذى صنعته ثورة يوليو ضد النظام القديم القائم على التحالف الطبقي بين رأس المال الزراعي والصناعي والتجارى ضد الفلاحين والعمال. وكان هذا التجريب أساس بعض الأطروحات الجامعية لدرجتي الماجستير والدكتوراه التى تناولت مختلف الشرائح الاجتماعية فى تاريخ مصر الحديث، بل لقد انسحبت المحاولات على فترات التاريخ المصرى كله منذ عصر الفراعنة.

غير أن دراسة تاريخ مصر الاجتماعي من وجهة نظر المادية التاريخية قابلته دراسات أخرى «مضادة» لا تعترف بالتصنيف الطبقي فى مصر، بل ترى أن مصر غير قابلة للتصنيف الاجتماعي أصلا (الكل فى واحد)، واعتمد أصحابها بدرجة كبيرة على ما أنتجه الفكر الرأسمالي فى الجامعات الأوروبية والأمريكية الذى يذهب إلى أن المجتمع لا ينقسم إلى طبقات اجتماعية Social Classes وإنما ينقسم إلى مجموعات اجتماعية Social groups، وأنه فى حالة وجود طبقة اجتماعية فليس شرطًا أن تتحدد بملكية وسائل الإنتاج كما تذهب الماركسية، وإنما تحددها علامات أخرى مثل أسلوب الحياة، ولغة التخاطب، والتنشئة المنزلية، ونوع التعليم ومدارسه.. إلخ.

وفى هذا الإطار تأتى محاولة ماجدة بركة فى تناول تاريخ مصر الاجتماعي وهى محاولة مفهومة سلفًا من العنوان الذى اختارته لدراستها وهو «الطبقة العليا»، وهو عنوان يبدو محايدًا حتى لا تتورط فى استخدام عناوين تكشف التزام الكاتب من نوع «كبار الملاك» أو «الرأسمالية» أو «البورجوازية».

ومن باب تبرير المصطلح الذى اختارته عنوانًا قالت: إن الكتابات قبل ثورة يوليو لم تكن تعنى بالطبقة الاجتماعية ومن ذلك كتابات شفيق غربال، ومحمد صبرى السوربوني، وعبد الرحمن الرافعي. ومن الواضح أنها لم تعثر على كتاب أحمد نظمي

The Egyptian Upper Class Between Revolutions 1919-1952

(الطبقة العليا المصرية بين ثورتي ١٩١٩ - ١٩٥٢)

Magda Baraka

Ithaca Press,1998, 328pp.



أحمد عبود باشا يتذوق قصب السكر فى مزارعه بمدينة قنا ومساحتها خمسة آلاف فدان.

محاولة لرد الاعتبار!

عاصم الدسوقى

والبراوى الصادر فى ١٩٤٦ كما سبقت الإشارة. وأما الكتابات بعد الثورة، فقد خضعت - كما تقول - للتأثير السياسى ومن ذلك كتابات محمد أنيس (جامعة القاهرة) وأحمد عبد الرحيم مصطفى (جامعة عين شمس) وتلاميذهما، وهى كتابات فى رأيها تتجه إلى إدانة طبقة الملاك واتهامهم بالإقطاع والاستغلال. وتذهب إلى أنه من الأفضل تناول الطبقة العليا ثقافيًا من حيث البحث عن الكيفية التى عاشت بها، وكيف صنعت التحولات الكبرى، وكيف استقبلت التقلبات الاقتصادية والسياسية وفهمتها وقاومتها أو تكيفت معها. وهى فى هذا المنحنى متأثرة بمفاهيم جوديث توكر فى مقالتها «ما التاريخ الاجتماعى» والبرت حورانى فى كتابه «كيف نكتب تاريخ الشرق الأوسط».

ورغم اعترافها بأن العامل الاقتصادى يلعب دورًا كبيرًا فى خلق الطبقة ومن ثم جاء استعراضها للأوضاع الاقتصادية فى مصر عند مطلع القرن العشرين التى أفرزت هذه الطبقة، إلا أنها ترفض التطبيق الماركسى بشكل آلى لتحديد الطبقة العليا فى مصر كما فعل كل من سمير أمين ومحمود حسين وماريوس ديب. كما أبدت عدم ميلها إلى استخدام مصطلح البورجوازية أيضًا لأسباب تتعلق بالنشأة التاريخية لهذا المصطلح فى التاريخ الأوروبى معتمدة فى ذلك على كتابات طلال أسد (١٩٨٧)، وزيتلين (١٩٨٧)، ووالرشتين (١٩٨٨) التى تقول فى مجملها بخطأ البحث عن البورجوازية فى مصر فى القرن العشرين قياسًا على إنجلترا فى القرن التاسع عشر. ولأن البورجوازية تعنى شريحة وسطى بين نبلاء الأرض والفلاحين والحرفيين فى أوروبا. وفى هذا الخصوص تنبغى الإشارة إلى أنها لم تلتفت إلى اجتهادات لمؤلفين مصريين سبقوا أولئك الأوروبيين بسنوات فيما ذهبوا إليه، ومنهم كاتب هذه السطور فى كتابه «نحو فهم تاريخ مصر الاقتصادى الاجتماعى (١٩٨١) الذى اعتمدت عليه كثيرًا فى بعض التفاصيل. وكتابه «البحث فى التاريخ - قضايا المنهج والإشكالات» (١٩٨٦)، ومن قبل كتابه «كبار ملاك الأراضى الزراعية فى مصر (١٩٧٦).

وعلى هذا الأساس تفضل المؤلفة استخدام مصطلحى «الأعيان والذوات» للتعبير عن الطبقة العليا، وهما مصطلحان كانا مستخدمين فى الثقافة الاجتماعية فى مصر منذ مطلع القرن التاسع عشر. ولو أن «الأعيان» فى دراستها لا يدخلون جميعًا تحت مظلة الطبقة العليا ويقتصر المصطلح على كبارهم فقط.

وكبار الأعيان عندها هم «نبلاء الريف من المصريين الذين استفادوا من سياسات محمد على باشا فى تخصيص أراضى، والمشايخ هم أصل صفوة رجال الأعمال وأصحاب المهن الحرة فيما بعد. وأما «الذوات» فهم ذوو الأصول التركية - الشركسية أصحاب الأبعاديات والوسايا حاملو لقب الباشوية والبكوية من لدن السلطان العثمانى حتى خضعت مصر للحماية البريطانية (نوفمبر ١٩١٤)، ثم من الملك بعد عام ١٩٢٢ مع بعض الاختلافات فى أساس المنح. فحتى عام ١٩٤٢ كان الملك يمنح هذه الألقاب لرجال الجيش والإدارة والأعيان حسب ما يقدمه كل واحد من خدمات للدولة أو للبلد. وكان يشترط للباشوية دخلاً سنويًا لا يقل عن ١٨٠٠ جنيه، وللبكوية من الدرجة الأولى ١٢٠٠ جنيه، و٨٠٠ جنيه للدرجة الثانية. ولكن بعد عام ١٩٤٢ تم التوسع فى الألقاب لأسباب أخرى غير التى قررت من أجلها سلفًا إذ كانت الباشوية تمنح مقابل ٢٠ ألف جنيه إلى ٣٠ ألفًا والبكوية تمنح مقابل خمسة آلاف



سيد بدراوى عاشور باشا
ابن بدراوى باشا الكبير
من أهم رموز طبقة
كبار ملاك الأراضى
فى مصر.

إلى عشرة آلاف جنيه تقدم بصفة «تبرع»، وهو وجه آخر للرشوة لم تشأ المؤلفة أن تقوله حرصًا منها على أحاسيس الطبقة.

أما ما يفرق الذوات من الأعيان في رأيها، فهو أن الذوات من أصول عرقية وافدة تولت الوظائف القيادية في الحكم، وأثرت ثراء كبيرًا، وأقامت في المدن. وعندما توقف إمدادهم بدماء جديدة من تركيا منذ أواخر القرن التاسع عشر تناقص وجودهم في الإدارة، فبدأ الأعيان وأبناؤهم في الحلول محلهم. وعندما أقبل الأعيان على شراء أراضي الدولة منذ مطلع القرن العشرين والزواج من بنات الذوات ظهرت صفوة جديدة مصرية ـ تركية.

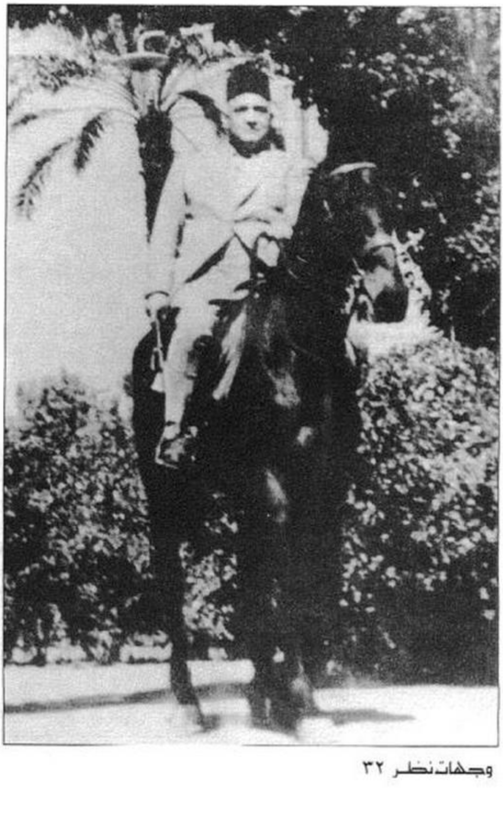
وفي تحديدها للطبقة العليا في مصر بين عامي ١٩٢٠ ـ ١٩٥٠ ترفض المعيار الاقتصادي الواسع الانتشار بين الدارسين، وتأخذ بمعيار يجمع بين الاقتصاد والاعتبارات الثقافية الاجتماعية وتصفه بأنه الصحيح والضروري للتحديد. ووفقًا لهذا المعيار تكون عوامل التحديد هي: الثروة (ليس شرطًا ملكية وسائل الإنتاج!..) والمولد، والقرابة، والتنشئة المنزلية، والتعليم، والسلوك. وبناء على هذا التداخل فإن الطبقة العليا في مصر بين ثورتين تتمثل في كل من: ملاك الأراضي الزراعية أكثر من ٥٠٠ فدان، وكبار أصحاب المهن الحرة، وكبار رجال الإدارة، والشريحة العليا من المستثمرين في الصناعة والتجارة وقطاع المقاولات.

وتخلص من كل هذه الإشكالات إلى القول بأن استخدام مصطلح «الطبقة العليا» والحال كذلك يصبح مناسبًا ولائقًا نظرًا لعدم كفاية مصطلح «أرستقراطية» و«بورجوازية»، ولأن مصطلح «أعيان وذوات» اصطلاح جزئي. ووفقًا للمصطلح الذي اعتمدته ذكرت أن عائلات الطبقة العليا في مصر بلغت ٢٥ ألف عائلة عشية ثورة ١٩١٩ زادت إلى ٤٣ ألف عائلة عشية ثورة ١٩٥٢ بزيادة قدرها ٧٢٪ وبنسبة ٥٦٪ من إجمالي العائلات المصرية في الحضر والريف.

وعلى هذا بدأت ماجدة بركة في تعقب أوجه تمايز الطبقة العليا ثقافيًا واجتماعيًا من حيث أماكن الإقامة والسكن، وأماكن التسوق وشراء الحاجيات، وأماكن تمضية وقت الفراغ، وأماكن التعلم. وفي الجملة كانت هذه الطبقة تعيش حياة مختلفة عن غيرها، فقد تركت الأحياء القديمة إلى الضواحي الجديدة التي نشأت بصفة خاصة بين عامي ١٨٩٥ ـ ١٩٠٧ وأقيمت مبانيها على الطراز الأوروبي (الإيطالي بصفة خاصة)، فضلاً عن دور السينما والمقاهي الفاخرة، وصالات الموسيقى والبارات، وبقيت الحارة رمزًا لكل ما هو بلدي الطابع. وتقضي هذه الطبقة وقت فراغها في لونا بارك بمصر الجديدة التي أسسها مقاول إنجليزي عام ١٩١١ على نمط Earls Court Park في لندن تاركة روض الفرج لأولاد البلد وملاهي عماد الدين للطبقة الوسطى. وتعيش حياة أفرنجية a la Franka في الملبس والمآكل ابتداء من الجبن الرومي وانتهاء بتربية القطط الرومي. وقد قدمت المؤلفة في ذلك إحصاءات معتبرة من حيث عدد المحلات والفيلات والقصور (١٩٣٧ ـ ١٩٤٧) لتأكيد العلاقة داخل التطور الجديد.

أما التعليم فرغم أنه كان عاملاً أساسيًا في خلق طبقة وسطى جديدة في مصر منذ سياسات محمد علي ودوره في الحراك الاجتماعي باعترافها، إلا أنها ترى أن التعليم عكس بشكل أكثر التمايز الطبقي، وأوجد التوترات الاجتماعية. وفي هذا تذكرني بموقف كبار ملاك الأراضي الزراعية في الثلاثينيات ضد زيادة ميزانية التعليم الإلزامي حتى لا ينسى أولاد الفلاحين طبيعتهم الخشنة.

وطبقًا لهذه الدراسة فإن شخصية الطبقة العليا في مصر خلال هذه الفترة تتحدد بالأندية التي يختلف إليها أفرادها مثل نادي محمد علي ونادي السيارات التي بلغت ٢٦ ناديًا بين عامي ١٩٣٧ ـ ١٩٤٧،



أحمد عبود باشا على حصانه في عزبته



من الشمال أحمد ماهر باشا، أحمد عبود باشا وفؤاد أباظة باشا في نزهة بعزبة عبود باشا ١٩٤٧

صورة خاصة لمصور مجلة الاثنين، تاجر القطن الشهير أحمد فرغلي باشا يهدي ابنته باكينام ساعة يد ثمينة يونيه ١٩٥٢.. شهر واحد قبل قيام الثورة



والاستمتاع بإجازة نهاية الأسبوع شأن الغرب الأوروبى ومتابعة سباق الخيل فى الجزيرة ومصر الجديدة، ومشاهدة السينما فى دور معينة موزعة على أيام الأسبوع: رويال (الاثنين) ومترو (الثلاثاء) وتريموف (الأربعاء) وديانا (الخميس) والكورسال (الجمعة)، وحضور حفلات الشاى الراقصة فى بعض الفنادق (سميراميس وميناهاوس)، وقضاء الصيف على شواطئ الإسكندرية ورأس البر وبدرجة أقل فى بلطيم وبورسعيد.

وما يميز هذه الطبقة أيضًا ثقافيًا واجتماعيًا أوجه الصرف والإنفاق على طراز المبانى والملابس والمجوهرات ووسائل الرفاهية وأدوات الزينة. وفى ذلك تذكر المؤلفة أنه تم استيراد عطور من فرنسا (بارفان) بمبلغ ١٠٥٩٦٨ جنيهًا مصريًا، فى عام ١٩٢٢ بلغت ١١٧٠٠٠ فى عام ١٩٢٤. وفى عام ١٩٢٥ تم استيراد ٣٢٣٢ بيانو من ألمانيا لزوم بنات العائلات، وكذا شراء أنواع السيارات التى يعلن عنها فى صحافة هذه الفترة كما لاحظت المؤلفة «للنبلاء فقط». وكذلك قيام محلات الملابس الجاهزة فى مصر مثل شيكوريل وشملا باستيراد أفخر الثياب من بيوت الأزياء فى باريس.

ومن مميزات الطبقة اجتماعيًا كما تقول المؤلفة أنها أحاطت نفسها بسياج طبقى يمنع تسرب الأدنى منها إليها من خلال الزواج والمصاهرة. والزواج عند هذه الطبقة هو اختيار عائلة. وفى هذا الخصوص فإن بنات العائلات يتم إعدادهن ليكن سيدات صالون ومجتمع، ويتطلب هذا تعلم أكثر من لغة وإتقان الإتيكيت عن طريق الأم أو المربية الأجنبية، وتعلم التريكو والرسم والبيانو. ولا تكون الواحدة منهن بحاجة إلى تعلم اللغة العربية لأن المحيط الذى سوف تخرج إليه لا يتكلمها.

ورغم أن وعى الفرد بطبقته أحد الأبعاد المهمة فى بلورة شخصية الطبقة اجتماعيًا لتأثيره فى حركة الطبقة نحو مصالحها، إلا أن المؤلفة رأت فى التأكيد على الوعى مسألة غير موضوعية، وتتبعها تفسيرات ذاتية لدور الطبقة وعلاقاتها، فضلاً عن صعوبة التعرف على هذا الوعى إن لم يكن مستحيلاً. وفى هذا تقول: إن البحث عن الوعى من خلال الخطاب السياسى للطبقة وصناعة القرار أمر صعب بشكل عام، ولكنه ممكن من خلال الأحاديث الخاصة التى كانت تدور همسًا فى الصالونات الخاصة وفى البيوت والأندية ولكنها لم تسجل.

وقد حاولت المؤلفة أن تتغلب على هذه الصعوبة باللجوء إلى المقالات المعاصرة التى كتبها أبناء هذه الطبقة فى حينه حول مسائل معينة، أو من خلال أحاديث صحافية أجريت معهم، وكذلك من خلال المذكرات السياسية التى تركوها. وقد اتبعت فى ذلك منهج جاريث ستيدمان جونز فى بحث «لغة الطبقة: دراسات فى تاريخ طبقة العمال الإنجليز ١٨٣٢ ـ ١٩٨٢». وفى رأيها أن البحث عن الوعى من خلال مفردات اللغة المستخدمة من شأنه تجنيب التعامل مع الطبقة العليا فى مصر من وجهة نظر المفاهيم الاجتماعية التى رفضتها من البداية.

ومن باب نفى الوعى الطبقى عن أفراد الطبقة العليا وتصويرها إياهم بأنهم فلاحون مصريون، امتزجت دماء بعضهم بدماء تركية ـ شركسية. تنتقل المؤلفة إلى الخطاب السياسى لقيادات هذه الطبقة فى البرلمان لتنتهى إلى القول بأن البرلمان لم يكن يوجد فيه أحد من طبقة العمال والفلاحين أو من يمثلهم، وبالتالى فإن خطاب هذه الطبقة موجه إلى ذاتهم. وتؤكد أن الدفاع عن مصالحهم لم يشغل جانبًا من المناقشات فى البرلمان خلال العشرينيات بسبب ازدهار كبار الملاك الذين لم يكن أمامهم ما يشكون منه فضلاً عن ضغط المسألة السياسية الخاصة بالعلاقات مع بريطانيا!!. وفى الثلاثينيات لم يكن رأس المال الصناعى والتجارى بحاجة إلى اتخاذ موقف دفاعى حيث تم تعديل التعريفة الجمركية لصالح الإنتاج المحلى!!. وفى الأربعينيات لم يكن غير حكومات الوفد تناصر مطالب العمال وخاصة فى الوزارة الأخيرة (١٩٥٠ ـ ١٩٥٢) من خلال أصوات الطليعة الوفدية.

وعلى هذا المنوال تنفى المؤلفة ببساطة شديدة ومتناهية وقوف الطبقة العليا موقف الدفاع عن مصالحها فى البرلمان. والحال كذلك تصبح حركات العمال والفلاحين من أجل العدل الاجتماعى التى قامت فى الثلاثينيات والأربعينيات من قبيل وسوسة الشياطين!

بهذا المدخل الثقافى الاجتماعى لفهم الطبقة العليا فى مصر، وبعيدًا عن زاوية الوعى الطبقى، تعتقد ماجدة بركة أنها تأتى بمفهوم جديد واف لتناول تاريخ الطبقة الاجتماعية فى مصر لا يستند إلى التحليل المادى للتاريخ، ولا يقوم على استعارة مصطلحات تطور المجتمع الأوروبى من حيث الأرستقراطية والإقطاع والبورجوازية. غير أنها لا ترى فى الطبقة العليا فى مصر إلا جماعة من الناس من أصول معينة يشتركون فى نوع واحد من الحياة الاجتماعية بما تشمله من مأكل وملبس ومشرب، وتمضية أوقات الفراغ فى أماكن معينة وفرتها لهم ثروة مالية تكفى تلبية هذه الاحتياجات، وغفلت أو تغافلت عن أن الذى حدد هذا المستوى الاجتماعى المعين من الحياة هو المال الذى يأتى من امتلاك وسيلة من وسائل إنتاج الثروة سواء كانت أرضًا زراعية أو شركة صناعية أو تجارية.

وتعترف فى النهاية أن الصورة التى تقدمها عن هذه الطبقة صورة مثالية كما تصورها بعض الكتابات المعاصرة حاليًا فى محاولة لإعادة الاعتبار لها، وتؤكد أن التحليل الذى اتبعته لا بد أن يزيل التقويم الفج لدور هذه الطبقة كما يظهر فى الكتابات «العربية» التى نشرت بعد ثورة ١٩٥٢. ثم تنهى كتابها بالقول إن هذا العمل ليس مدحًا فى الطبقة العليا فى مصر وليس قدحًا فيها، ولكنه محاولة لبناء وجهة نظر «متوازنة» فى تقويم دورها وإسهامها السياسى والاجتماعى والثقافى فى تاريخ مصر الحديث. وهذا فى تقديرى انطباع ذاتى تريد أن تقنع به القارئ سلفًا وتصادر على حريته فى الاستنتاج.

ثم إنها تقع فى تناقض دون أن تدرى بقولها إن الشىء الواضح فى كل هذا أن إسهام هذه الطبقة فى الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية فى مصر خلال النصف الأول من القرن العشرين كان له مغزاه، على حين أن موقفها من الديمقراطية والإصلاح الاجتماعى كان قاصرًا، ولو أنها ربطت بين النشاط الاقتصادى «الإيجابى» لهذه الطبقة وموقفها السلبى من الديمقراطية والإصلاح الاجتماعى لاكتشفت وعى هذه الطبقة بمصالحها الذى لم تؤمن به واجتهدت لإخفائه فى دراستها.

ورغم أنها أدانت الاعتماد على الأحاديث الشفهية من خلال المقابلات الحية نظرًا لضعف ذاكرة المتحدث وللموقف الدفاعى والتبريرى الذى يأخذه، إلا أنها اعتمدت على هذه الأحاديث الشفهية بشكل واضح عند تصوير الحياة الاجتماعية والثقافية لهذه الطبقة ولم تداخلها ذرة شك فى تلك الأحاديث المتعالية.

وأخيرًا.. إذا كانت المؤلفة قد انتقدت الكتابات التى تناولت تاريخ مصر الاجتماعى تحت تأثير المناخ السياسى الذى صنعته ثورة ١٩٥٢، مما ينفى عنها الموضوعية التى تنشدها، فهل لنا أن نقول أنها أيضًا وقعت تحت تأثير مناخ سياسى آخر يسعى إلى إعادة الاعتبار لهذه الطبقة بطريقة أو بأخرى، ذلك أنه عندما بدأت دراستها فى اكسفورد ـ كما تقول ـ سقط حائط برلين وتفكك المعسكر الشيوعى، وتم التبشير بنهاية التاريخ وانتصار الليبرالية، وبالتالى وجب إعادة النظر فى هذا «الزمن الجميل» الذى ظلمته أقلام غير منصفة فكان ما كتبته!!.

صورة الفلاح كما رآه رسامو الكاريكاتير قبل ثورة ١٩٥٢ (كاريكاتير للفنان عبد السميع ١٩٥١)



بعيدا عن الجدل حول القبيلة ومدى صلتها بالدولة اليمنية، فهى الحقيقة الكبرى، وهى كتلة الجماهير وفى غياب الصناعة والزراعة الحديثة هى فى الحقيقة الشعب والبروليتاريا

رمال اليمن المتحركة!

معارك بناء الدولة الحديثة فى اليمن

حسن أبو طالب

خمسون عامًا في الرمال المتحركة.. قصتي مع بناء الدولة الحديثة في اليمن
محسن العينى
القاهرة: دار الشروق، بيروت: دار النهار (طبعة مشتركة) ٢٠٠٠، ٣٥٦ صفحة

على وقع أزمات وقضايا عدة، تقود إحداها إلى الأخرى، يتنفس اليمنيون حياتهم ليلا ونهارا. فمن سعى الحكومة إلى تعديل الدستور، واللهاث وراء معلومة هنا أو بيان هناك لكشف أسرار لغز تفجير المدمرة الأمريكية «يو اس كول» فى ميناء عدن، وما تلاها من سُحب غيّمت قليلا على العلاقات الأمريكية اليمنية، ونفى قاطع لوجود فلول من الإرهابيين العرب أو بقايا خلايا نشطة من زمن الأفغان العرب واليمنيين أيضا، عاش اليمن أياما عصيبة مثيرة. وبالتوازى جاءت دعوة عابرة إلى الحرب: حرب ضد إسرائيل لنصرة الفلسطينيين فى انتفاضاتهم، ثم تحولت لاحقا إلى دعوة للجهاد بكل أشكاله لتحرير القدس.

ومن قبل وفى مسلسل لم يقل إثارة عن أفلام الرعب الأمريكية كانت قضية المواطن السودانى الجنسية والغامض الأصل، والمعروف بسفاح مشرحة كلية الطب فى جامعة صنعاء، وما تلاها من حيث الزمن من تهديد بحل الحزب الاشتراكى بعد أن نجح فى العبور بمؤتمره العام الرابع مطلع سبتمبر الماضى بسلام إلى بر الانعقاد، وأعاد تشكيل مكتبه السياسى ومستوياته القيادية المختلفة فى سيناريو ديمقراطى حزبى داخلى لم يعرفه الحزب نفسه من قبل، ولا أية أحزاب يمنية أو عربية أخرى. وبين كل هذه القضايا الكبرى ثارت قضية رواية «صنعاء مدينة مفتوحة»، والتى قيل فيها ما قيل فى رواية الروائى السورى حيدر حيدر «وليمة لأعشاب البحر» فى بر مصر، ثم كان الحكم القضائى بالبراءة لمن نشروا أو بالأحرى أعادوا نشر الرواية.

ولا تستقيم إثارة اليمن ومُشوقاتها إلا بعد المرور على حوادث خطف السائحين الأجانب، وتفجيرات لأنبوب النفط اليمنى، قيل أن وراءها مخربين ومعادين للوحدة . وثبت أن بعضها على الأقل تم بواسطة قبائل يمنية تعيش فى الداخل ولا علاقة لها بقوى فى الخارج، ويمر الأنبوب النفطى فى مناطق نفوذ لها، وكان غرضها الحصول على «إتاوة » دائمة من شركة النفط الأمريكية أو الفرنسية حسب الحالة، وتوظيف لعدد من أبنائها فى مصافى الشركة وآبارها. ووصل الأمر إلى قمته مع خطف بعض مهندسين لإحدى الشركات النفطية لغرض الابتزاز نفسه، وهو ما حمل رئيسها إلى التهديد بوقف كل العمليات ما لم يتم وقف تلك الاعتداءات، وتوفير حماية مناسبة للعاملين بالشركة ومنشآتها. وبعدها جاء الحزم الشديد من أجهزة الدولة المختلفة.

تسوية الحدود وتوقعاتها:

لكن الأبرز على الأقل فى حدود الشهور القليلة الماضية ما تم فى سياق العلاقات اليمنية السعودية، ففى ١٢ يونية الماضى وبعد ستة وستين عاما من العلاقات الصاعدة حينا والهابطة أحيانا أخرى تم توقيع معاهدة شاملة للحدود تنص على ترسيم كافة نطاقات الحدود بين البلدين الجبلية والصحراوية والبحرية، بطول يصل إلى ١٨٥٠ كم مترا . وتبدأ شرقا من نقطة الحدود الثلاثية المشتركة مع عمان والمعروفة بنقطة ١٩،٥٢ وحتى رصيف البحر (رأس المعوج شامى) لمنفذ رديف المطل على البحر الأحمر وامتداده فى البحر نفسه غربا ثم إلى الجنوب الغربى.

وانتهى بذلك الجدل الذى استمر طويلا حول مدى إلزامية معاهدة الطائف للعام ١٩٣٤، والتى تحدد خطا فى منطقة جبلية يصل طوله إلى ٢٩٤ كم من إجمالى ٥٤٠ كم تفصل بين الجزء الشمالى من اليمن والسعودية، وتقر بتنازلات المملكة اليمنية المتوكلية عن أى ادعاءات بالسيادة أو بالوحدة على مناطق الأدارسة فى عسير ونجران حسب نتائج حرب ١٩٣٢ . وتفرض ـ أى معاهدة ١٩٣٤ ـ عدم السماح باستعمال أي طرف لبلاده كقاعدة ومركز للاعتداء على الطرف الآخر، وعدم القيام بأى نشاط دعائى ضد الطرف المقابل . وأخيرا التمسك بمبدأ التوفيق قبل اللجوء للتحكيم حسب ما هو منصوص عليه فى معاهدة الطائف.

أما بشأن الحدود نفسها فقد اتفق حسب المعاهدة الأخيرة على تشكيل عدة لجان: عليا وسياسية وفنية وعسكرية لتحديدها بريا وبحريا فيما هو غير منصوص عليه فى معاهدة الطائف، ولمنع أى استحداثات عسكرية فى مناطق الحدود المشتركة، إضافة إلى لجنة وزارية مشتركة لتطوير العلاقات الاقتصادية والتجارية والثقافية.

وما أن وقعت المعاهدة، وإذا بثورة توقعات كبرى تفرض نفسها. وجاءت من الجانب اليمنى حيث تمنى كثيرون أن تفتح المعاهدة أبواب الرزق مرة أخرى أمام العمالة اليمنية فى ربوع السعودية، كما كان الحال قبل حرب الخليج الثانية التى أغلقت هذه الأبواب أيما إغلاق. وذلك رغم أن المعاهدة لم تتضمن أى شىء محدد حول مسألة العمالة اليمنية، ولكنها التوقعات والآمال.

كما أن المعاهدة لم تتضمن أى شىء بشأن مجالات للتعاون والاستثمارات السعودية داخل الأراضى اليمنية، بيد أن الأعتقاد السائد بين اليمنيين أن ثمة تفاهما ضمنيا اتفق عليه بين القيادتين السياسيتين اليمنية والسعودية، وبمقتضاه تنصح الرياض الشركات السعودية بالاستثمار فى اليمن، وفى المقابل تقدم صنعاء التسهيلات والضمانات المناسبة. وعلى أية حال هو تفاهم وليس اتفاقا مكتوبا. ومع ذلك قال مسئولون يمنيون كبار ـ ربما من باب التمنى ومسايرة الرأى العام اليمنى ـ أن المعاهدة تفتح مجالا لعلاقة شراكة دائمة ومستقرة وواسعة الآفاق، أكثر من كونها علاقة جيرة تنزلق أحيانا إلى احتكاكات عابرة، أو ترتفع أخرى إلى تعاون قوى.

هذه الآمال اليمنية العريضة المشروعة على كل حال، تعكس تطلعا مشتركا نحو المستقبل وتجاوزا عمليا لمرحلة حرب الخليج الثانية ونتائجها ، كما تعبر عن جديد السياسة السعودية فى موضوع الحدود مع الجيران حيث العمل على إغلاق هذه الملفات نهائيا ـ كما حدث أيضا مع الكويت بشأن الجرف القارى بعد عشرة أيام من التوصل إلى المعاهدة مع اليمن ـ عبر الحلول الودية والتنازلات المتبادلة، كجزء من مسعى شامل يؤدى إلى التركيز على الداخل ومواجهة التحديات المتولدة عن التغيرات العالمية، وإغلاق النوافذ المحتمل أن يتولد عنها التورط فى نزاع عسكرى من قبيل النزاع الكويتى العراقى، ومحاصرة الشكوك الموجودة لدى البعض والناتجة عن كون المملكة الدولة الأكبر فى إقليم الجزيرة العربية والخليج. وبذلك تكتمل حلقات الحدود السعودية مع كل جيرانها، وتهدأ هواجس الجيران.

والثابت أن المعاهدة حسب قول الأمير نايف بن عبد العزيز وزير الداخلية السعودى تفتح الباب أمام منافع أمنية متعددة للبلدين، تشمل التنسيق وتبادل

هذه الآمال اليمنية العريضة المشروعة على كل حال، تعكس تطلعا مشتركا نحو المستقبل وتجاوزا عمليا لمرحلة حرب الخليج الثانية ونتائجها ، كما تعبر عن جديد السياسة السعودية فى موضوع الحدود مع الجيران حيث العمل على إغلاق هذه الملفات نهائيا . كما حدث أيضا مع الكويت بشأن الجرف القارى بعد عشرة أيام من التوصل إلى المعاهدة مع اليمن . عبر الحلول الودية والتنازلات المتبادلة



العيني مع الملك فهد بن عبدالعزيز والرئيس الأمريكي جورج بوش والأمير بندر بن سلطان



مع الرئيس أنور السادات



مع الزعيم عبدالكريم قاسم



مع انديرا غاندي



مع الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو



مع الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر



مع الرئيس أحمد بن بلا



مع الدكتور عزيز صدقي

المعلومات الأمنية وحفظ حدود البلدين من المتسللين ومنع جرائم التهريب. وهو الأمر الذي أثار المخاوف لدى بعض العناصر الجنوبية المعارضة التي تعيش في السعودية منذ حرب صيف ١٩٩٤.

الثابت أيضا أن المعاهدة لم تتطرق بشكل مباشر إلى الأمور التنموية على جانبي الحدود واستغلال الموارد الطبيعية الموجودة في المناطق الجبلية والساحلية والبحرية، وما يتعلق بها من مسائل تخص التنمية السياحية والحفاظ على البيئة. ومن المفارقات القدرية، إنه لم تمض سوى بضعة أسابيع على توقيع المعاهدة وانزواء الهواجس المتبادلة وإذا بحمى الوادي المتصدع، وهو مرض خطير ينتشر بسرعة في الأماكن غير المعتني بها، وتنتج عنه وفيات سريعة، وإذا به يفرض نفسه على مناطق يمنية وسعودية على جانبي الحدود المشتركة ويصيب عددا من أهل البلدين ، ولم يكن هناك مفر من التنسيق الثنائي لمحاصرة المرض ومعالجة المصابين. وكان لافتا للنظر أن تطلب اليمن من السلطات السعودية أن تقوم طائراتها برش المناطق اليمنية الحدودية كما تفعل في المناطق السعودية نفسها. إنها الأقدار على أي حال.

القات .. بداية مواجهة

لقد أغلقت المعاهدة أبوابا. في حين بقيت الأبواب الأخرى على حالها. الأولى أبواب لها علاقة بالخارج، والثانية لها علاقة بالداخل اليمني الذي يتميز بها عن غيرها من الدول والمجتمعات. ولعل أكثر ما يميز اليمن تلك العادة الاجتماعية المعروفة بجلسات القات التي تستهلك أكثر من ثلث دخل الإنسان اليمني، وما بين سبع إلى عشر ساعات يوميا من عمره، رجلا كان أو امرأة ، مسئولا كبيرا أو مواطنا عاديا، مثقفا كبيرا أو إنسانا جهولا.

إنها - أي جلسات القات - لقادرة دون منازع على إفساد وتعطيل كل الأمنيات الطيبة والمقولات الكبرى، جنبا إلى جنب إفساد الاقتصاد وتهميش الزراعة من بن وفواكه التي اشتهرت بها بلاد اليمن عبر قرون، فضلا عن تغييب العقل الفردي والجمعي معا لساعات طويلة.

ففي تلك الجلسات يلوك اليمنيون حاضرهم كما يلوكون الأوراق الخضراء الندية ومعها رشفات من المياه العادية أو الغازية، ويدخنون معها أنواعا من الدخان والنارجيلة التي تنفث في المكان دخانا أزرق يهيم في المكان المغلق، يثير الأخيلة والأدمغة ويدغدغ الأعصاب، ويلوكون معها الأحاديث والذكريات، يلعنون فيها واقعهم ويرمونه بكل كلمات الغضب والعنف وعدم الرضاء. وتحت سحب الدخان الزرق ولحظات الوعي الأولى، فلا بأس من تبادل المنافع بين الزائرين، أو إنهاء مهمة لا يسعف الزمن أي امرئ يمني أو غير يمني أن ينهيها في مصلحة حكومية، أو حتى مؤسسة تشريعية أو كيان حزبي. ولا تعز على الحاضرين تبادل الآراء الكبرى في الخروج باليمن من نفقها الكبير، ولعن العولمة ومواجهة الأعداء في فلسطين، أو تأسيس حزب سياسي جديد، أو إنشاء منظمة شعبية تطوعية تحمي الديمقراطية الوليدة في اليمن، أو صياغة بيان قوي للاحتجاج على ارتفاع أسعار سلعة ضرورية، أو المطالبة بتوسيع هامش الحرية في البلاد، أو الاتفاق على تنظيم مظاهرة شعبية، أو مؤتمر جماهيري حاشد، أو مراجعة اتفاق دولي أو معاهدة حدودية.

ولا بأس أيضا في جلسات القات ذاتها أن يجتمع الأساتذة مع بعض طلابهم لتبادل آراء علمية في الطب والسياسة والتجارة والاقتصاد والهندسة أيضا. أما في الأدب فالكل يجود بما لديه من شعر أو نثر وقصة صغيرة. وفي نادر الجلسات يشارك أحد السفراء الأجانب الذين يجيدون العربية ويتبادل مع الحاضرين همومهم والرأي حول علاقة بلده باليمن ومستقبلها.

وتمر الساعات سريعة في أولها وبطيئة في آخرها. وبعدها يشعر الجميع بالراحة مما قبل. فقد أنجز الجميع كل الذي أمامهم من أوراق خضراء، وأفكار كبرى وانتقادات ومبادرات. ولم يبق إلا النوم لإراحة الجسد والعقل. وللاستعداد ليوم جديد، تكرر فيه نفس الدورة العبثية.

نمط حياة كفيل بأن يُهلك الموارد، ويضيع الطاقات، وينتج الشائعات، ويبقى الوضع على ما هو عليه لسنوات وسنوات. فلا حركة إلى الأمام رغم الشكوى المستمرة المتكررة، ولا تخلص من عادة اجتماعية مدمرة بكل معنى الكلمة.

والحق يقال أن الحكومة اليمنية سعت في مراحل مختلفة لمعالجة سطوة القات على الحياة الاجتماعية والاقتصادية. لكن سطوة العادة وقيمتها الاقتصادية الكبرى لقبائل نافذة وشيوخ أقوياء ذوي سطوة ، وقفت حائلا دون أي إنجاز ملموس. ومنذ نهاية عام ١٩٩٧ بدأت منظمات شعبية وجهات حكومية في الترويج للمخاطر الصحية لهذه العادة ، وتدعو الناس إلى تغيير سلوكها. وفي الخلفية قرارات حكومية بمنع الموظفين ورجال الشرطة والجيش من مضغه في الأوقات الرسمية أو نوبات أداء الواجب.

وهي صورة قريبة من القرارات التي كانت قد اتخذت قبل ٢٧ عاما، أي عام ١٩٧٠ في ظل إحدى حكومات العيني ، وشملت منع موظفي الدولة ورجال القوت المسلحة من تعاطي القات، ومنع زراعته في أراضي الوقف والأملاك العامة للدولة، ومنع تقديم أي مساعدات إلى المناطق التي تواصل زراعة القات، والقيام بحملة إعلامية تحض المواطنين على الامتناع عن تعاطيه. وذلك في محاولة من الحكومة آنذاك لوقف تلك العادة الاجتماعية المكلفة اقتصاديا وتنمويا.

وصحيح القول أن ثمة اقتناعًا آخذا في التبلور بضرورة المواجهة، لكن أيضا الكل مقتنع أن ما ثبت عبر آلاف السنوات، لن تقل فترة علاجه عن عقود متواصلة من الجهد والطاقة والسياسات البديلة للترويح البريء عن النفس ، والزراعة المجزية، وقبل كل ذلك مزيد من الوعي الجمعي بمضار عادة القات وضرورة الإقلاع عنها.

معارك شتى

عناوين كثيرة من الإثارة والتشوق، تجمع بين الماضي والمستقبل، وتشكل ساحة اليمن السياسية والثقافية والاجتماعية، وتعكس كلها معركة كبرى، عادة ما تُختصر ببناء الدولة اليمنية الحديثة بمؤسساتها وقيمها وسياساتها. وفي كثير من الأزمات الكبرى تثور الأحداث مقرونة باتهامات إما جنائية أو سياسية. وفي الأخيرة تختلط الاتهامات بالعمالة للخارج، مع السعي لإعادة الإمامة فعلا لا مجازا، أو إعادة عقارب الساعة للوراء، أو إحداث التخريب المادي والمعنوي، وتجاوز تراث الشعب اليمني دينيا واجتماعيا. وهو تقليد يبدو أنه يمني أصيل، يعود إلى ما قبل بناء الدولة اليمنية الحديثة، والتي يبدأ التاريخ لها مع ثورة سبتمبر ١٩٦٢.

ففي عهد الإمامة كان المعارضون متهمين دائما بالخروج عن الدين الإسلامي الأصيل الذي يمثله الإمام أيا كان جوره وظلمه، وبالمجازفة بتراث الشعب وتقاليده العريقة مهما ثبت أنها تقاليد بالية تعوق التقدم وتضع اليمن في مصاف الدول المتخلفة، وايضا بالخروج على حكمه أو بالأحرى حكم الشيوخ المنتشرين في كل

رمال اليمن..

لبقاع اليمنية وكأنهم حراس للماضى لا بوابات للمستقبل. وكثيرا ما يختفى تحت هذه الاتهامات صراع سياسى / قبلى، وأحيانا مذهبى، يمكن تلخيصه بصراع الحداثة والتخلف، أو التجديد والجمود.

لم يختلف الوضع كثيرا بعد القضاء على الحكم الإمامى فى آلياته الكبرى، وإن اختلف فى تفاصيله اليومية، على الأقل فى لسنوات الأولى للثورة. وكيف يستقيم الوضع الذى استقر لقرون إلا بعد معاناة ومجاهدة وفتح أبواب كثيرة دونها عقبات ومغاليق عدة، ويحتاج علاجها عقودا تتغير فيها وخلالها العقول والنفوس والأشخاص والسياسات؟

إنه اليمن بتاريخه العريق، وشعوبه وشعابه الكثيرة، وتقاليده القبلية الراسخة، التى تجتمع جميعا لتشكل مساحة هائلة من الرمال المتحركة - والتعبير لصاحبه محسن العينى رئيس الوزراء اليمنى الأسبق - تبدو من بعيد وكأنها بلور منثور، تُغرى الآخرين بالتحرك إليها سريعا. وفى وسطها كما فى أطرافها تغوص الأقدام سريعا، وترتفع الأثمان، أثمان الحياة والنجاة بالنفس، وتعلو الأصوات طالبة العون والسند. وغالبا ما يأتى العون ولكن متأخرا، وبعد فدية كبيرة من الأرواح والأموال والسمعة والجهد.

إنها رمال اليمن المتحركة، التى يُراد لها الاستقرار والثبات، فحركتها دائمة وآفاقها مفتوحة بلا حدود أو قيود. والمطلوب عمل دائم وكثيف، لكن العوائق كثيرة جدا. تتمثل إحداها فى التشكيلة الاجتماعية وما يتفرع عنها من عادات ونظم ذات جذور ومصالح كبرى تمتد بطول الوطن وعرضه. فالقبيلة، ذلك النظام الاجتماعى الراسخ منذ آلاف السنين استنادا إلى الطبيعة الجغرافية لليمن نفسها، ما زال - فى اعتقاد البعض على الأقل فى الداخل والخارج - يتحدى فكرة بناء الدولة الحديثة رغم التعايش الذى استقر منذ المصالحة الوطنية الأولى عام ١٩٦٨، بعد ست سنوات من الحرب الأهلية الأولى التى يؤرخ لها بفترة قصيرة من قيام ثورة سبتمبر ١٩٦٢ - بامتداداتها المصرية والسعودية.

لكن المدافعين عن القبيلة لا يرون فيها شرا، أو تحديا لفكرة الدولة الحديثة. فهى نظام اجتماعى ومثال للعادات الحميدة، والتعارف والتمييز بين الجماعات المختلفة، ولا تعنى تعصبا أو مناطقية. وتتوالى الحجج: فالقبيلة تعايشت مع مؤسسات الدولة ولم تعترض عليها، بل تعايشت مع الحزبية ولم تنفر منها، والدليل على ذلك الأحزاب التى تشكلت بعد إقامة دولة الوحدة ١٩٩٠ ورأسها شيوخ ورؤساء قبائل بارزون، فيما كان أفراد من القبيلة ذاتها أعضاء بارزين فى أحزاب أخرى.

وبعيدا عن الجدل حول القبيلة ومدى صلتها بالدولة اليمنية، فهى الحقيقة الكبرى، وهى كتلة الجماهير - كما يقول العينى - وفى غياب الصناعة والزراعة الحديثة هى فى الحقيقة الشعب والبروليتاريا.

تاريخيا اختلف الوضع جزئيا فى جنوب اليمن قبل قيام الوحدة ١٩٩٠ عن شماله فى مسألة دور القبيلة فى الحياة العامة، نظرا للدور الذى لعبه الحكم الاشتراكى بعد الاستقلال فى نوفمبر ١٩٦٧، إلا أن الجذور نفسها لم تتأثر كثيرا. ولذلك فمع قيام دولة الوحدة وضعف قبضة الحزب الاشتراكى وانزواء الأضواء عن سياساته ومجمل تجربته فى الحكم، أعادت الجذور إثبات الفروع مرة أخرى، وساعدها على ذلك الدعم المعنوى والفعلى من الوضع المستقر فى الشمال. وكما حدث مع القبيلة حدث الأمر نفسه مع عادة مضغ القات التى كان يُمنع مضغها فى كل الجنوب أوقات العمل وطوال الأسبوع.. اللهم إلا ظهيرة الخميس والجمعة فقط من أجل الترويح وقتل الوقت والتقارب الاجتماعى بين الأصدقاء والمعارف بعيدا عن دوائر الحزب ولجانه المختلفة. ومع الوحدة لم تعد هناك القوانين أو المؤسسات المهتمة بهذا المنع فى الجنوب، وامتدت عادات الشمال إلى الجنوب.

البحث عن التوازن

والطريف هنا - وإن كنت أعتقد أنه أمر يدعو للرثاء - أن أحد ثلاثة مبادئ كبرى استقر عليها منفذو الوحدة اليمنية ومُقيموها حين كان التفاوض السلمى هو الاقتراب المتفق عليه، هو الحفاظ على مكتسبات كل شطر والعمل على مدها إلى الشطر الآخر. وكثير من اليمنيين يرون بعد مرور عقد على قيام الثورة، أن ما حدث هو العكس تماما، إن لم يكن فى كل القضايا ففى معظمها. وربما كان العيب فى مبدأ الحفاظ على المكتسبات، أن أحدا لم يُعرِّف أو يحدد ما هى تلك المكتسبات فى هذا الشطر أم ذاك، وما هى تلك التى يجب الحفاظ عليها من تلك التى يجب القفز فوقها وإهمالها. ولذا فقد ظهر أن الأمر فى النهاية مرهون بتوازن اجتماعى / سياسى / ثقافى / مصلحى يُفرض بحكم الواقع والعادة وأمور أخرى رؤيته وسياسته وتعريفاته للأمور. ولا عجب فى ذلك فتلك سنة الحياة، فالمنتصرون هم الذين يفرضون رؤيتهم ويسودون، وما حدث بعد الحرب الأهلية الثانية صيف ١٩٩٤ مثل حى على تلك السُّنة الأبدية. فالحزب الاشتراكى المغلوب أُقصى عن كل شىء، والمنتصرون فازوا بكل شىء. وذلك على عكس تلك التسوية السياسية التى جرت وقائعها عام ١٩٦٨، حين استقر الرأى بعد معاناة وجهد، على أن الخروج من نفق الحرب الأهلية مرهون بقبول الجميع للجميع دون استثناء أو تمييز، وهكذا كان استيعاب الملكيين فى المؤسسات الجمهورية.

إن وضع اليمن التعددى بحكم الطبيعة الجغرافية والتشكيل الاجتماعى وميراث التاريخ اليمنى نفسه، لا يمكن تجاوزه بطريقة المنتصر أبدا والفائز كلية، فهذا ما يحدث لفترة، وبعدها تتضح ضرورات البحث عن إقامة توازن معقول يساهم فيه الجميع ولو بدرجات ونسب، وبحيث تغيب عنه - أى التوازن الجديد - لغة المنتصر أبدا والفائز كلية. وما يحدث فى اليمن منذ أربعة أعوام هو نوع من البحث عن نقطة التوازن الجديدة تلك، وهو بحث يواجه بمعارضة وتعالٍ من قبل أطراف وسعى حثيث من قبل أطراف أخرى.

فالذين يدعون إلى مصالحة وطنية شاملة وإعادة نظر فى تجربة ما بعد حرب صيف ١٩٩٤ يدخلون فى زمرة الباحثين عن توازن جديد يواجه به اليمن تحديات الواقع التى لم يفلح المنتصرون فى إيجاد حلول مناسبة لها عبر السنوات الست الماضية. والذين يدعون إلى التريث ويرفضون مجرد مبدأ النظر فى المصالحة الشاملة، يرون فى ذلك تخليا عن مكاسب وانتصارات تحققت، ولا مبرر موضوعيًا فى إهدارها أو التنكر لها.

الفريق الأول يجمع عناصر من الحزب الاشتراكى وأحزاب المعارضة الأخرى، والفريق الثانى يجمع من فى السلطة والموالين لها من أحزاب صغيرة هامشية وقطاعات اجتماعية استفادت من نتيجة حرب ١٩٩٤.

وبين هذين الفريقين فى الداخل، توجد معارضة فى الخارج تصدر البيانات والصحف والتحليلات، وتصر على أن لها امتدادا فى الداخل. وبعض هذه المواقف يذهب إلى طرح ما يُسمى بالمسألة الجنوبية، ومواجهة الاستعمار

إنها - أى جلسات القات - القادرة دون منازع على إفساد وتعطيل كل الأمنيات الطيبة والمقولات الكبرى، جنبا إلى جنب إفساد الاقتصاد وتهميش الزراعة من بن وفواكه التى اشتهرت بها بلاد اليمن عبر قرون، فضلا عن تغييب العقل الفردى والجمعى معا لساعات طويلة


مع العقيد القذافى

الداخلى الذى تلى فترة الاستقلال التى تلت بدورها فترة الاستعمار الخارجى. وعلى كل حال فهذه المعارضة توصف داخليا بأنها عناصر معادية للوحدة ولفظها الشعب، فى حين ترى نفسها طليعة لتصحيح الوضع. ولكن أى وضع؟

وفى خضم البحث عن توازن فى الداخل، ومواجهة - تظهر حينا وتخفت آخر - سياسية إعلامية مع قوى فى الخارج، تتبلور مواجهة من نوع آخر عنوانها البحث عن الدولة الحديثة. وما حوادث خطف السائحين الأجانب، التى عانى منها اليمن طوال العامين الماضيين، وأثرت على موارده من السياحة، وجرت وقائعها فى بعض المناطق الجبلية والطرق الوعرة فى وسط وشمال البلاد، إلا تعبير عن سخط الخاطفين لعدم توافر الحد الأدنى من الاهتمام التنموى بمناطقهم. إنها التعبير عن التحالف بين تجذر القبيلة الغاضبة فى المكان النائى الذى لم تصل إليه بعد يد الدولة الحديثة. ولنلاحظ تلك المساومات التى كانت تجرى بين الخاطفين وممثلى الدولة، إذ شملت مطالب أقل ما توصف به أنها تعبير عن السخط لغياب الدولة الحديثة برموزها البسيطة الأولية من مخفر للشرطة ووحدة صحية وطريق مُعبدة ومدرسة ومسجد للعبادة، ولن نقول ساحة للعب البرىء.

رمال العينى المتحركة

ومرة أخرى إنها رمال اليمن المتحركة، والتعبير مُعار - كما ذكر من قبل - من صاحبه الأصلى محسن العينى، ذلك السياسى اليمنى الذى ارتبط بتلك الرمال لمدة نصف قرن، غاص فيها ومعها فى محاولات دءوب لجر اليمن بعيدا عن ميراث التخلف. واصطدم خلالها - أى السنوات الخمسين - بعقبات الفكر التقليدى ومغاليق القبلية وسطوة الشيوخ وندرة الشباب المؤهل، وحرب أهلية وتدخلات خارجية، وتجاهل دولى.

وفى قصة العينى الذى نشأ يتيما فى دار أسسها الإمام أحمد لرعاية الأيتام من أجل تخريج كتبة للديوان، وفيما بعد فى مواجهة الإمام كنقابى معارض ومُجاز من حقوق القاهرة ١٩٥٩ ثم كحزبى بعثى لم ينخرط فى أطر الحزب التنظيمية، ثم مع الثورة كوزير للخارجية ثم رئيس للوزراء أربع مرات فى فترات مختلفة، وسفير لليمن فى كثير من البلدان الأوروبية والولايات المتحدة وممثلا دائما لليمن فى المنظمة الدولية، ومثقف يمنى بارز، فى تلك القصة ملامح أساسية من رمال اليمن المتحركة. ففى الكتاب المعنون «خمسون عاما من الرمال المتحركة .. قصتى مع بناء الدولة الحديثة»، لا يثير الكاتب ذكريات شخصية بقدر ما يلقى الضوء على جزء عزيز من تاريخ اليمن الحديث فى مراحل مختلفة ومحطات بارزة إن لجهة الدور المصرى العسكرى فى اليمن أو احتواء الحرب الأهلية أو بناء المؤسسات والعلاقة مع القبائل فى الداخل ومع الجيران فى الخارج، ويدعونا معه للغوص فى بعضها واكتشاف ما فيها من إثارة وتشويق.

وفى بعض الوقائع التى يدلى بها العينى تتأكد قناعات معروفة مسبقا مثل الواردة عن صعوبات الوجود المصرى وتعقيداته فى اليمن، وفى بعضها الآخر تهتز قناعات شائعة كتلك التى وردت بشأن المقدم إبراهيم الحمدى الذى قاد انقلابا عسكريا يونيه ١٩٧٤ استولى بعده على الحكم وكانت سمته الغالبة قومية

ناصرية. لكن العيني «يرى أن الأبواب السعودية ـ وكان ذلك عام ١٩٧٢ ـ قد فتحت له ليكون الرجل الأول في أول فرصة تسنح» (ص ٢٢٨). وهي الفرصة التي تمثلت في انقلاب يونيه ٧٤.

وفي البعض الثالث يذكر الكاتب بعض التفاصيل ذات الدلالة التي ربما لا تلغي الإطار العام للأحداث التاريخية المعروفة ولكنها تفيد في كشف بعض ما هو مستور. كالملابسات التي قادت إلى تعريب المواجهة اليمنية بين شماله وجنوبه سبتمبر ١٩٧٢. وما أفرزته من اتفاقية للوحدة أكتوبر ١٩٧٢. كانت وقتها خروجا على مألوف تداعيات الصدام العسكري الذي جرى بين الشطرين في سبتمبر على الخطوط الفاصلة بينهما. لكن حقائق الوضع اليمني وغياب وجود الجيش والأفراد كانت مبررا للعيني لكي يوقع الاتفاق ويترك له فرصة التحقق لاحقا وعلى نار هادئة. بما في ذلك احتواء المعارضة الداخلية بقيادة قادة القبائل وشيوخها. والتي رفعت شعار «لا وحدة مع الماركسيين والشيوعيين». والذي تكرر كثيرا لاحقا. لاسيما أثناء قيام الوحدة عامي ١٩٨٩ و١٩٩٠.

كل ذلك والهدف الأكبر. أي بناء دولة يمنية حديثة بعد قرون من التدثر في عباءة من التخلف والجهل. ينظم التفاصيل ويوجه الكاتب والكتاب معا.

وفي قراءة بعض تلك الوقائع ما يفسر أوضاعا قائمة بالفعل. رغم مرور عقدين أو أكثر عليها. فالدولة اليمنية الحديثة والمواطنة وقيم المؤسساتية لم تترسخ بعد. رغم كل الجهد الذي بذل الذي لا يمكن القفز عليه أو تجاهله. وفي الإشارات الموجزة لبعض ما يجرى في اليمن حاليا ما لا يمكن فصله عن التاريخ القريب قبل عقدين أو ثلاثة.

وفي كثير من المحطات الواردة في الكتاب شيء من الماضي القريب. وحاضر قائم رغم تباين المواقع والأماكن واختلاف الأسماء. فالجوهر ما زال حاضرا.

محطة أولى

من نافلة القول أن مصر لم تكن بعيدة عن ثورة اليمن. فاهتمامها بنسج علاقات مع عناصر في جيش الإمام تم تدريبهم على أيدي البعثات العسكرية المصرية التي ذهبت أيام طيب العلاقة الناصرية مع الإمام أحمد منتصف الخمسينيات. شكل إلى جانب عوامل أخرى نواة لثورة سبتمبر ١٩٦٢. ومعروف أن الرغبة في الثورة والإطاحة بحكم الإمام كانت موجودة منذ فترة سابقة. وقد برز في سياق تلك الرغبة والعمل على تنفيذها تيارات وقضاة وشخصيات يمنية كثيرة ذات مقام عال كأحمد محمد النعمان ومحمد محمود الزبيري وأحمد عبد الرحمن المعلمي ومحمد على الأكوع وغيرهم من الأحرار اليمنيين. الذين كانوا يعارضون حكم الإمام ويبثون في نفوس اليمنيين ضرورة الثورة والتغيير والإطاحة بالنظام الحاكم الذي أضر بالبلاد والعباد طويلا.

وحتى قبل الثورة لم تكن علاقات العيني طيبة مع القاهرة لأسباب عدة: منها أنه انضم إلى الحركة البعثية التي كانت تثير الشكوك والهواجس لدى القيادة الناصرية. وعدم تحبيذه ـ أي العيني نفسه ـ للدور الذي لعبه الدكتور عبد الرحمن البيضاني كزعيم للأحرار اليمنيين بمساندة مصرية واضحة نظرا لأنه لم يعرف عنه أي دور معارض للإمام كالأدوار التي لعبها القادة اليمنيون الأحرار الآخرون. وهنا يشير العيني إلى علاقة خاصة بين البيضاني والسادات نشأت بينهما حين كان السادات في ألمانيا للعلاج او للنقاهة. حيث اهتم أفراد عائلة البيضاني به اهتماما كبيرا.

وربما جاء وقوف القاهرة وراءه في اليمن كنوع من رد الجميل لهذا الموقف الشخصي.

المهم أن الثورة قامت. وأُطيح بالإمام أحمد. في حين أن ابنه البدر ظهر لاحقا دون أن يُمس بسوء. فيما أيدته السعودية والتفت حوله بعض القبائل والتي شكلت المعارضة الحقيقية للثورة وللدور المصري المساند لها عسكريا وسياسيا. وفي غضون ذلك عين العيني وزيرا للخارجية في أول حكومة للثورة رأسها عبد الله السلال وكان نائبها الأول ووزير الاقتصاد فيها والنائب العام للقائد العام للقوات المسلحة د. عبد الرحمن البيضاني. وبعدها بدأت المتاعب على اكثر من جبهة.

كانت عضوية العيني في البعث مثار شكوك مصرية كثيرة. في الوقت الذي تعاملت فيه القاهرة مع الثورة اليمنية باعتبارها مصدر قلق وفزع لكل من دمشق وبغداد وعمان. وهو ما ينفيه أو على الأقل يشكك فيه العيني. الذي بذل محاولات لدى المعنيين في القاهرة لتقديم تفسير مختلف لموقف بغداد من ثورة اليمن. لكنها بدلا من أن تزيل الشكوك زادتها. وبدلا من أن تحسن العلاقة بين القاهرة وبين العيني شخصيا فإذا بها تضاعفها أضعافا. وتوالت بعدها مبررات الانزعاج المتبادل. منها سعي العيني في الفترة الأولى للثورة إلى كسب ود وتأييد القبائل للثورة وضبط النفس. الأمر الذي تصادم مع الاتجاه الذي كان سائدا بقوة في مجلس الوزراء اليمني داعيا إلى العمل العسكري الصريح واتهام الجيران والتهديد بإرسال أفواج المجاهدين لتحرير عدن والجنوب. وهو الاتجاه الذي قاده د. البيضاني. وكان في الواقع صدى لما هو سائد في القاهرة.

ويذكر العيني أن السادات الذي كان رئيسا لمجلس الأمة آنذاك في مقابلة معه. قال له ردا على ملاحظة تضمنت تنبيها بقوة وشراسة القبائل اليمنية وعظم مواجهتها «لا تكن منزعجا إننا نعد لكل أمر عدته .. ألا تعرف أننا الآن في سبيل إرسال الصاعقة إلى اليمن؟. إننا ندرب جنود الصاعقة على أكل الثعابين فمن يستطيع الوقوف أمامهم؟».

ويبدو أن الاستعداد لإرسال القوات المصرية لم يكن قاصرا فقط على القاهرة. فقد كانت هناك استعدادات مماثلة في اليمن نفسها. إذ أعلن السلال رئيسا وأبعد العيني من منصب وزير الخارجية وعين ممثلا لليمن في الأمم المتحدة. وتولى البيضاني منصبي نائب رئيس الجمهورية والقيادة العامة للقوات المسلحة. وأبعد عدد من قادة اليمن كالقاضي عبد الرحمن الإرياني واللواء حمود الجايفي والشيخ محمد على عثمان وأحمد المروني وغيرهم إلى القاهرة. ومع دخول القوات المصرية بدأ فصل جديد ليس لليمن فحسب. بل للمنطقة بأسرها.

لكن ظل هناك من يدعو إلى حل سياسي قبلي تجتمع اليمن حوله. ولاسيما أن الحل أو الحسم العسكري لم يتحقق بالصورة التي أملها مؤيدوه. فبعد مرور عامين ونصف تقريبا من الثورة تبلورت دعوة نادى بها القاضي محمد محمود الزبيري قوامها التخلص من حكم أسرة حميد الدين والانضمام إلى الجمهورية وأن يُعقد مؤتمر لرجالات اليمن للخروج من دائرة العنف والاقتتال. وهي الدعوة التي دفع حياته ثمنا لها بين القبائل التي كان يدعوها للاصطفاف وراء الجمهورية.

بيد أن توازن القوى الداخلي لم يكن يسمح بتمرير مثل هذه الدعوات ولاسيما أن شيوخ القبائل الذين تحالفوا مع الجمهورية كانت لديهم مبررات الانزعاج من عودة شيوخ القبائل الآخرين الذين عرفوا بتأييدهم لحكم أسرة حميد الدين ومعارضة الجمهورية. في الوقت نفسه كانت هواجس القاهرة من مثل هذه الحلول متعاظمة. إذ يعني التحول إلى صيغة حل قبلية بعد كل التضحيات المصرية أكثر من مجرد الإنكار. وربما يفتح الباب إلى المطالبة بالخروج كلية.

> قال السادات الذي كان رئيسا لمجلس الأمة آنذاك. له ردا على ملاحظة للعيني حول قوة وشراسة القبائل اليمنية: «لا تكن منزعجا إننا نعد لكل أمر عدته .. ألا تعرف أننا الآن في سبيل إرسال الصاعقة لليمن. إننا ندربهم على أكل الثعابين فمن يستطيع الوقوف أمامهم؟».



مع الرئيس جون كينيدي عند تقديم أوراق الاعتماد عام ١٩٦٣

الاستعمار المصري!

وما بين الانشقاقات اليمنية والهواجس المصرية تبلورت محاولات تحديد إطار واضح للتفاعل بين القاهرة وصنعاء. جاءت في صيغة إجابة يمنية على أسئلة مصرية بينت الرؤية اليمنية لطبيعة الدور المصري في اليمن. وكيف يُقر السلام وما هي وسائله. وجاءت الإجابات من محمد أحمد النعمان الذي تولى رئاسة الوزراء في أبريل ١٩٦٥. متضمنة الحرص على استمرار المساندة المصرية للثورة اليمنية حتى تستقر أوضاعها ويقوى عودها. أما سبل السلام فكانت عبر المساعي السلمية وليس بالحرب التي لم تحسم أمرا. وأن يُشكل لذلك مؤتمر وطني للسلام لا تقل مدة انعقاده عن شهرين ولا تزيد على أربعة أشهر. على أن يحضره الجميع ويخرج عنه ما يفيد رغبة المتمردين في الانضواء تحت لواء الجمهورية والرغبة في حل الخلاف مع السعودية بالطرق السلمية.

وانعكاسا لهذه الرؤية عقد مؤتمر «خمر» الذي لم تؤيده القاهرة تماما. وإن تركت له فرصة الانعقاد. وقد حضر المؤتمر ما يقارب خمسة آلاف مثلوا جميع مناطق اليمن وقبائله وفئاته. ثم تشكل بعده وفد للسلام برئاسة القاضي عبد الرحمن الإرياني. زار عدة دول عربية منها الكويت ولبنان وسوريا والأردن للترويج لنتائج المؤتمر التي تضمنت إصلاح الحكم الجمهوري ووضع دستور للبلاد وإنشاء تنظيم شعبي وتشكيل لجنة للمصالحة الداخلية. ثم ختم الوفد زياراته تلك بالقاهرة التي يبدو أنها لم تكن متحمسة للسير في هذا الطريق.

جاء الفتور المصري لنتائج المؤتمر انطلاقا من اقتناع بأن السير في هذا الطريق يعني تجاهل التضحيات المصرية وعدم تعاون القبائل الجمهورية في الجهود العسكرية والاتكال الكبير على القوات المصرية. وهو ما لخصه الرئيس عبد الناصر للوفد اليمني بالقول «ليست لنا مصلحة في البقاء في اليمن. هو فيه حد يرضى يستعمركم!» ـ والعبارة الأخيرة كانت بمثابة رد على الادعاءات العربية والغربية باستعمار مصر لليمن ـ فلا مانع لدينا من التفاهم مع السعودية. اتصلوا بفيصل».

لكن حقيقة الموقف لم تكن بمثل هذه البساطة. فمطالب اليمن بالمساعدات المصرية التي بدت غير مقررة وغير محبذة مصريا. ووجهت بموقف صريح قوامه أن لا تعاون مصريا مع أي حكومة يمنية بها بعثي واحد. وحسب رواية العيني فقد قال الرئيس عبد الناصر أمام وفد يمني تشكل من رئيس الوزراء أحمد محمد نعمان والعقيد محمد الرعيني وزير الحربية والعيني نفسه وزير الخارجية آنذاك «ما دمتم تريدون الصراحة، فأحب أن أقول لكم إني لا يمكن أن أتعاون مع حكومة فيها بعثي واحد. مش بس حتعاون معها بل سأحاربها. سأقاتلها .. أنا في حرب مع البعثيين في غير اليمن. ومن غير المعقول أن أسمح بحكومة فيها بعثي واحد في بلد لي فيه أكثر من خمسين ألف عسكري. هذا موضوع يجب أن يكون واضحا تماما .. القضية بالنسبة لنا قضية مبدأ». (ص ٩٩)

رمال اليمن..

وفى اللقاء نفسه أنكر عبد الناصر أن يقول أحد أن مصر قد تعبت أو زهقت، مشيرا إلى الاستعداد التام بعدة خطط، سواء للانسحاب من المناطق أو التجمع فى صنعاء، أو التجمع فى الجنوب، أو الحديدة. وفى نهاية اللقاءات بدت الصورة واضحة، فالقاهرة تريد ـ حسب رواية العينى ـ التخلص من عدد من الوزراء وبعض المحررين فى الإذاعة والصحافة اليمنية، والذين وصفتهم بأنهم مزعجون وطائشون، وإلا سيكون البديل عدم التعاون.

وبعد محاولات أخرى ظهر أن القاهرة غاضبة أيضا من عدم تعاون الوزراء اليمنيين مع المستشارين المصريين الذين اتفق على قيامهم بتصريف الأعمال على أن يكون الوزراء اليمنيون على سبيل المظهر (ص ١٠٢)

وأيا كان سبب غضب القاهرة آنذاك، بسبب الحرب مع البعث، أو فلتان الوضع فى الداخل أو النزعة الاستقلالية لدى بعض الوزراء اليمنيين، أو بسبب السير فى طريق سياسى سلمى قبلى. فإن المسألة برمتها تعطى نموذجا على الطريقة التى كانت تدار بها الأزمة اليمنية من القاهرة ومردودها فى صنعاء. وكيف أن الضغوط العربية من قبل البعث وغيره كانت عنصرا لا يمكن تجاهله فى اتخاذ القرارات المصرية المتعلقة باليمن.

أما يمنيا فقد مثل الوضع محاولة للسير فى طريقين متضادين بحكم الطبيعة: أحدهما التسوية من خلال مدخل قبلى لغرض الحفاظ على الجمهورية، وثانيهما التمسك بالوجود والدعم المصرى لأنه يجعل التوازن العام فى صالح الجمهوريين وهو ما يفيدهم فى أى تسوية مع منافسيهم الإماميين. ومن هنا كان الاختلاف بين الرئيس عبد الناصر وبين الوزراء اليمنيين مؤيدى السير فى الطريقين. حيال تقييم الوضع فى الداخل أمرا حتميا. ولما كانت القاهرة فى موقف أقوى، كان طبيعيا أيضا أن يخرج من الصورة هؤلاء الذين يريدون منها الدعم وحسب، وأن يبقى المناصرون لكل الأفكار الواردة من القاهرة.

جمهوريون فى موقع المعارضة

وهكذا تغيرت الوزارة، وتشكلت وزارة جديدة سميت بحكومة الحرب يوليو ١٩٦٥، ورأسها الفريق العمرى، والتى ركزت على تصفية المعارضين فى الداخل. فكان أن توجه بعض الجمهوريين إلى الطائف بالسعودية. ثم جاء اتفاق جده بين الرئيس عبد الناصر والملك فيصل، وبعدها دخل الجميع فى محاولة للتسوية السلمية برعاية مصرية سعودية مشتركة، تمثلت فى مؤتمر حرض نوفمبر ١٩٦٥، والذى فشل لأسباب عدة من بينها غموض الأسس التى بنى عليها، وعدم رضاء الجمهوريين أو الملكيين على التفسيرات التى قدمت لهم من قبل لجنة المراقبة المصرية السعودية.

وتوالت بعدها الخلافات المصرية اليمنية من جانب، والمصرية السعودية من جانب آخر. لكن الأمر الذى أدركته القاهرة لاحقا ـ مطلع ١٩٦٦ ـ أن السعودية لم تكن متحمسة فى خروج الجيش المصريين بسرعة كما كان الأمر من قبل. ولحق ذلك تدهور الوضع فى صنعاء، لاسيما بعد استقالة حكومة العمرى، وعودة عبد الله السلال، والذى تم فى مرحلته تلك محاكمة الكثيرين من العناصر اليمنية الوطنية، بل إعدام بعضهم. وفى القاهرة كان كثير من الرموز اليمنية إما فى السجن أو تحت الإقامة الجبرية كالقاضى عبد الرحمن الإريانى. وتسارعت الأحداث سواء داخل اليمن الذى شهد انقسام الجمهوريين على أنفسهم وخروج

كم حاول المسئولون فى صنعاء إقناع الرئيس عبد الناصر بإبقاء عدة آلاف من الجنود المصريين بحجة الخوف على الجمهورية، ولكنه كان حاسما، وقال لهم: «يبدو أنكم فى واد آخر، ولا تدركون ما نحن فيه».



مع الرئيس بيل كلينتون



مع الرئيس على عبدالله صالح فى أمريكا

البعض ومنهم العينى إلى الخارج لقيادة معارضة لما أسموه بـ«سياسات الحاكمين فى صنعاء مع الدفاع عن الجمهورية»، والتى ظلت فى مواجهة حرب استنزاف تابعتها القبائل الملكية بإصرار وقوة. فيما ظلت القوات المصرية بكثافة فى اليمن فى الوقت الذى تصاعدت فيه الأزمة بين مصر وإسرائيل فى سيناء، والتى انتهت بهزيمة ١٩٦٧.

الخروج من اليمن

بعد الهزيمة تغيرت أشياء كثيرة فى اليمن. فالخروج المصرى أصبح أمرا حتميا غير قابل للنقاش، والجمهوريون صاروا يخشون مغبة الخروج المصرى، والاتجاه العام عربيا يدعو إلى حل للأزمة اليمنية ومصالحة مصرية سعودية حتى يمكن التفرغ لمواجهة أزمة الاحتلال الإسرائيلي وتحرير الأرض العربية. وكم حاول المسئولون فى صنعاء إقناع الرئيس عبد الناصر بإبقاء عدة آلاف من الجنود المصريين بحجة الخوف على الجمهورية، ولكنه كان حاسما. وقال لهم: «يبدو أنكم فى واد آخر، ولا تدركون ما نحن فيه» (ص ١٢٣)

ولم يكن أمام اليمنيين الجمهوريين إلا طريق واحد: التضامن وإعادة تنظيم الصف الجمهوري والاستقواء بالداخل. وجاءت الخطوة فى صورة عودة من كانوا بالخارج، والتغاضى عن التجاوزات والإهانات التى تعرض لها البعض على يد البعض الآخر، والاتفاق على بعض خطوات مثل تشكيل مجلس استشارى ومجلس شورى وإعلان التمسك بمبادىء الجمهورية.

بيد أن أسلوب الرئيس السلال لم يكن ليرضى بعض الشباب من العسكريين لاسيما فى قوات الصاعقة والمظلات، الذين قاموا بالفعل بانقلاب أطاح بالرئيس السلال، فيما يعرف بحركة ٥ نوفمبر ١٩٦٧، أى بعد خمسة أشهر فقط من نكسة يونية. وهنا يؤكد العينى أن الذين قاموا بالانقلاب هم ضباط الصاعقة والمظلات وهم على صلة بحركة القوميين العرب وبحكومة عدن. وأن الذين كانوا خارج صنعاء وعادوا إليها قبل الانقلاب أو بعده مباشرة لم يشاركوا فيه، لأنهم كانوا أضعف من أن يحدثوا تغييرا عسكريا يذكر، وأنهم شاركوا بأسمائهم وتولوا المناصب الهامة تسليما بالأمر الواقع وأداء الواجب ليس إلا. وهكذا قبل العينى المسئولية مرة أخرى من موقع رئيس الوزراء.

لقد كانت الحركة سلمية الطابع ومتسامحة فى آن، واكتفت بإعفاء السلال من منصبه، ولم تنتقم للمعتقلين ولا للمعذبين فى السجون ولا للمطرودين من وحداتهم. وجاء ذلك كله «لكى يبقى الجمهوريون صفا واحدا، لا ينشغلون ببعضهم البعض، بل ينشغلون بما هو أخطر عليهم جميعا وعلى ثورتهم» (ص ١٣٣)، ولم يكن أمام القاهرة التى كانت قواتها موجودة فى الحديدة استعدادا للعودة إلى أرض الوطن إلا قبول الحدث دون تدخل. وبعدها بدأ فصل جديد من العلاقات المصرية اليمنية، هذه المرة دون وجود عسكرى ودون تدخل ودون رفض لمشاركة أى يمنى، سواء بعثيا أم غير بعثى.

أما فى الداخل، فلم يكن الواقع اليمنى بمثل هذه البساطة، إذ سرعان ما اندلع الاقتتال الأهلى، وهذه المرة بين الجمهوريين أنفسهم. وهكذا لم يثمر التسامح الذى تدثرت به حركة ٥

نوفمبر. إذ سرعان ما تطورت الأحداث مطلع ١٩٦٨ ، وتخلى العيني عن رئاسة الوزراء لصالح الفريق العمرى ، وعاد إلى موقعه القديم مندوبا لليمن لدى الأمم المتحدة. وفى صنعاء بدأ فصل آخر من الصراع بين العسكريين أنفسهم، الذين قاموا بالحركة من صغار الضباط والذين تولوا المواقع الكبرى من كبار الضباط ، وبعض الرموز القبلية الجمهورية.

ومرة أخرى تدفع الأحداث إلى الطلب من العينى رئاسة حكومة مرة أخرى، ولم يكن الصراع بين العسكريين قد حسم نهائيا، إذ ظلت هناك ذيول من الصراع القديم الجديد معا. ولم يكن أمام العينى إلا محاولة مأسسة الحياة السياسية فى البلاد ، ووضع دستور وضبط موقف القبائل وتحديد الدور الذى ينبغى أن يكون للحكومة، ودور الساسة والشباب وهكذا.

كان الوضع عسيرا مليئا بالأشواك، فهناك الشائعات والمنشورات والعرائض وعمليات الإثارة والتهييج ، وهناك الأفكار التى تباحث عليها العينى قبل تشكيل حكومته الجديدة ومن بينها وضع دستور واضح المعالم وتشريعات قانونية ولوائح إدارية ، ونيابة عامة ومحاكم ، وتنظيم شعبى وتأكيد الارتباط الإدارى والمالى للقوات المسلحة والجيش الشعبى والأمن بالجهاز التنفيذى فقط ، وتوحيد القوات المسلحة، وتشكيل مجلس شورى ، ومحاولة تهدئة العلاقات مع السعودية ، والاهتمام بالتعليم والاقتصاد.

ولما جاءت نتائج المشاورات على غير المأمول ، اعتذر العينى أغسطس ٦٩ ، إذ اكتشف «أن الدولة الحديثة القوية الجادة لاتزال فى نظر البعض خطرا على مصالحهم ، وتهديدا لنفوذهم ، وعند الحديث عن الإصلاح والتصحيح والبناء يتبارى الجميع ويتسابقون فى الإشادة والتعبير عما يجب وما لايجب ، وعندما يبدأ وضع النقاط على الحروف تظهر حقائق أصحاب المصالح واضحة جلية » (ص ١٤٤) . وكان ثلاثين عاما لم تنقض بعد.

وبعد ضغوط من الواقع ومن الأحداث ومن الرفاق ، عاد العينى عن اعتذاره السابق وقبل تشكيل الحكومة فبراير ١٩٧٠، والذى شهد فى منتصفه تماما سقوط صعدة فى الشمال فى أيدى القوات الملكية. فيما شكل كارثة وهزيمة كبرى مشينة فى حق الجمهورية والقوات المسلحة، وعاملا مشجعا للملكيين لمواصلة احتلال أجزاء أخرى من البلاد كما حدث فى المدرج ، ومن ورائهم دعم واندفاع سعوديان كبيران. أما فى الداخل فكانت ضغوط رجال القبائل وشيوخها على الحكومة من أجل طلبات المال لا تنقطع واحتكاكات العسكريين وبعضهم تتواصل رغم الهزيمة فى صعدة، وأعضاء المجلس الجمهوري لايقدمون المشورة أو الدعم السياسى اللازم للحكومة، إن لم يكن ممارسة الضغوط عليها.

المصالحة الوطنية

فى ظل هذه الظروف ، جاءت فرصة انعقاد المؤتمر الإسلامى فى جدة، وجاء قرار مشاركة اليمن فى المؤتمر بوفد رأسه العينى، الذى حاول أن يوظف تلك الفرصة فى الاتصال المباشر مع المسئولين السعوديين واستطلاع رأيهم بشأن الموضوع اليمنى من منظور حكومتين وبلدين شقيقين، وليس أى منظور آخر. كان يعقد اجتماع بين الجمهوريين والملكيين. وكانت الحجة أن المنظور الأخير يعنى أن الأزمة يمنية يمنية بما فيها ضرورة تحديد مصير أسرة حميد الدين. فى حين أن المنظور الأول يعنى أن الأزمة يمنية سعودية. وشتان بين المنظورين، الأول يصدر الأزمة وينفى أى مسئولية من الخارج الجار، والثانى يورط الخارج ويشركه فى الحل ولو بطريق غير مباشر، لاسيما من خلال وقف المساعدات والدفع إلى حوار سياسى. ويشير العينى أنه بعد أخذ ورد مع المسئولين السعوديين بصورة غير رسمية أمكن التوصل إلى اتفاق من ست نقاط أبرزها: وقف إطلاق النار، ووقف الحرب الإعلامية ، وتعيين أشخاص من ذوى النيات الحسنة فى المناطق القابلة للاحتكاك وبالأخص فى المناطق المجاورة للمملكة، وأن يعقد مؤتمر وطنى فى اليمن ، وأن تقبل الحكومة والمجلس الوطنى مشاركة عناصر من الملكيين بعد عودتهم. ورغم تعاون صنعاء والرياض لتطبيق الاتفاق ، فقد استمر التشكيك فى الداخل من قبل كبار القوم « إن استطاع بعضهم ببيع الجمهورية لما ترددوا ». وزاد القلق والخوف من قبل العسكريين ، وكانت حجة العينى للعسكريين « لقد تركنا لكم القضية ثمانى سنوات ، فلم تحسموها، أعطونا أشهرا لنجرب ، فإن وصلنا إلى سلام مشرف ، وإلا فالميدان أمامكم » (ص ١٦٨).

وبعد مناورات سياسية عدة، أمكن احتواء الموقف فى الداخل ، وجاء التعاون مع السعودية ليفسح المجال بدرجة أكبر لتطبيق بنود الاتفاق وتسهيل عودة الملكيين ومشاركتهم فى المؤسسات السياسية المختلفة، الأمر الذى فتح الباب أمام الاعتراف السعودى بالنظام الجمهورى فى صيغته المعدلة، وهو ما تحقق فى ٢٢ يوليو ١٩٧٠. وهو اعتراف فتح بدوره أبوابا أخرى من التعاون الثنائى واعتراف دول غربية كانت فى انتظار الخطوة السعودية أولا.

هموم الداخل

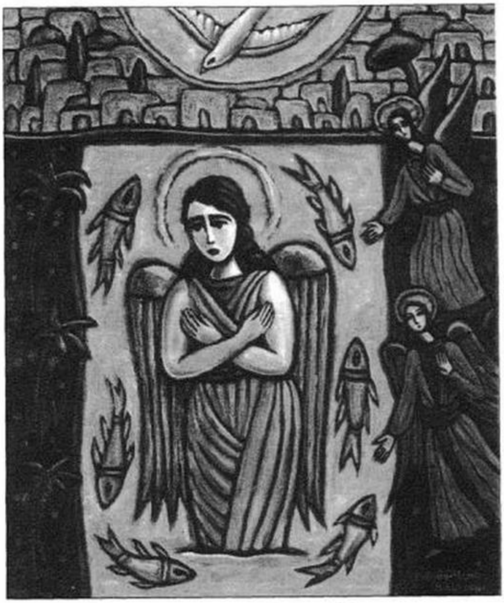
التخلص من عبء الحرب وعودة الرموز الملكية والاعتراف السعودى، رغم كونه خطوة مهمة على طريق بناء اليمن ، فالأمر لم يخل من صعاب وعقبات. فمن العلاقة مع الجنوب إثر استقلاله ، وتحديد صلاحيات واضحة لرئيس الوزراء ووضع الدستور، وإعادة هيكلة القوات المسلحة وتحديد معايير الصرف المالى فيها، والاستعانة بالضباط والجنود الذين سرحوا فى ظروف سابقة ، والعلاقة مع المشايخ النافذين وضبط المقررات المحددة لهم، واستيعاب القبائل فى بنية الدولة الحديثة ومؤسساتها، وإفساح المجال أمام الشباب الجديد ، وبناء تنظيم سياسى شعبى يتجاوز الطائفية القبلية والطبقية، وبناء المدارس وتنظيم الكادر الإدارى للدولة وتقنين الموارد المالية، وكيفية الاستفادة من تجارب الدول الأخرى ، ومدى رضاء الدول الكبرى المجاورة عن اتفاق هنا أو بيان هناك ..وكلها عناوين كبرى لأزمات متلاحقة متداخلة مع بعضها البعض من جانب، وتكشف صعوبات بناء دولة حديثة فى ظل منظومة قيم تقليدية لها السيادة والغلبة من جانب آخر، أو هى بالأحرى رمال متحركة غير ثابتة، لم ينقطع بعد امتدادها عبر الزمان والمكان.

والسؤال: هل كتب على اليمن أن يعيش دوما فى رمال متحركة ؟ .الجواب بيد اليمنيين أنفسهم.

في معرض حلمي التوني

«تحية إلى الفن القبطي»

الفنان والتراث



«النهر» زيت على قماش وخشب ٨٥ × ٧٠ سم



«الشقيقتان» زيت على قماش وخشب ٨٥ × ٧٠ سم

يظل تعامل الفنان مع التراث الفني للشعوب والحضارات أكثر القضايا تعقيدًا والتباسًا في مجال الإبداع، بالرغم مما يقدمه استلهام التراث للفنان من حلول سهلة لاجتياز الزمن وعقد الأواصر مع الماضي وتحقيق التواصل مع الحاضر، وخلق أرض مشتركة مع الجماهير، بما يحمله التراث من لغة خطاب مقبولة من الوجدان الجمعي.

ويمكن التعقيد والالتباس في اختلاف «المنظومة القيمية» للتراث عن مقابلها في الحاضر، وأعني بتلك المنظومة: المكونات العقائدية والأبعاد التاريخية والأنساق الثقافية وليدة البيئة الجغرافية والقيم الأخلاقية.. إلخ، وهي - في الغالب الأعم - تختلف عما يسود المجتمعات نفسها في العصر الحديث، من هنا: فإن اقتباس هذه الأنساق - مفصولة عن أرضها وزمنها وسياقها - قد يحمل التباسًا بنزعة سلفية بائدة، أو شعوبية ضيقة، أو قومية منعزلة، أو مظهرية سياحية، وذلك يضعها في موضع مناهض للحداثة والعصر، ومن ناحية أخرى قد يبدو اقتباس هذه الأنساق في إنتاج فني معاصر بمثابة تأكيد للهوية، وللقواسم المشتركة ثقافيًا وذوقيًا بين أبناء الأمة، وتلك تمثل ضرورة للثقافة القومية، خاصة في مراحل هبوب رياح التغيير العالمية (اقتصاديًا وسياسيًا وقيميًا) عبر فضاءات مفتوحة تسمح لموجات الحداثة، الملغّمة بمصالح وقيم الكيانات الكبرى المهيمنة على العالم، باختراق الغلاف الجوي - الثقافي والقيمي - لهوية الشعوب!

المعادلة الصعبة في سؤال الهوية

وبين الاتجاهين خيط وهمي لا يراه ولا يفك اشتباكه إلا قلة محدودة من الفنانين، جعلوا من ذلك الأمر قضيتهم الأساسية عبر مسار رحلتهم الإبداعية، ساعين إلى تحقيق المعادلة الصعبة بين الأصالة (بالمعنى الذاتي والقومي معًا) وبين الحداثة، آخذين في الاعتبار ذوق الجمهور الذي يتوجهون إليه، واستقطابه على أرض مشتركة معهم، اجتيازًا للعزلة المزمنة للفن عن المجتمع.

بين هذه القلة المحدودة من الفنانين التشكيليين يبرز اسم حلمي التوني بقوة عبر السنوات الخمس عشرة الماضية، باختياره التراث بمراحله المختلفة منبعًا لاستلهامه من خلال سلسلة من المعارض الفنية المتلاحقة، وكان يبدو خفيف الحركة والطيران كفراشة طليقة بين ثمار المنجزات الحضارية المختلفة، من فرعونية ومسيحية وإسلامية، لكن ذلك كله كان يتم من منظور الفنان الشعبي المصري الذي هضم وتمثل تلك المنجزات برؤى فطرية ذات مذاق خاص، رؤى تعايشت عبر مختلف العصور مع الحياة اليومية للشعب، وتحررت إلى حد كبير من هيمنة النمط الديني والقالب الطبقي، مكونة بلاغتها الجمالية الخاصة، التي تقارب بلاغة الشعر العامي مقارنة بشعر الفصحى، وهذا ما يسّر على «التوني» مهمة التعامل مع العنصر الجمالي التراثي بمعزل عن سياقه العقائدي والتاريخي، وتضفيره بالحياة المعاصرة وبما تطرحه من وظائف نفعية وضرورات جمالية مختلفة.



الفنان حلمي التوني في المرسم

الفن القبطي.. لماذا؟

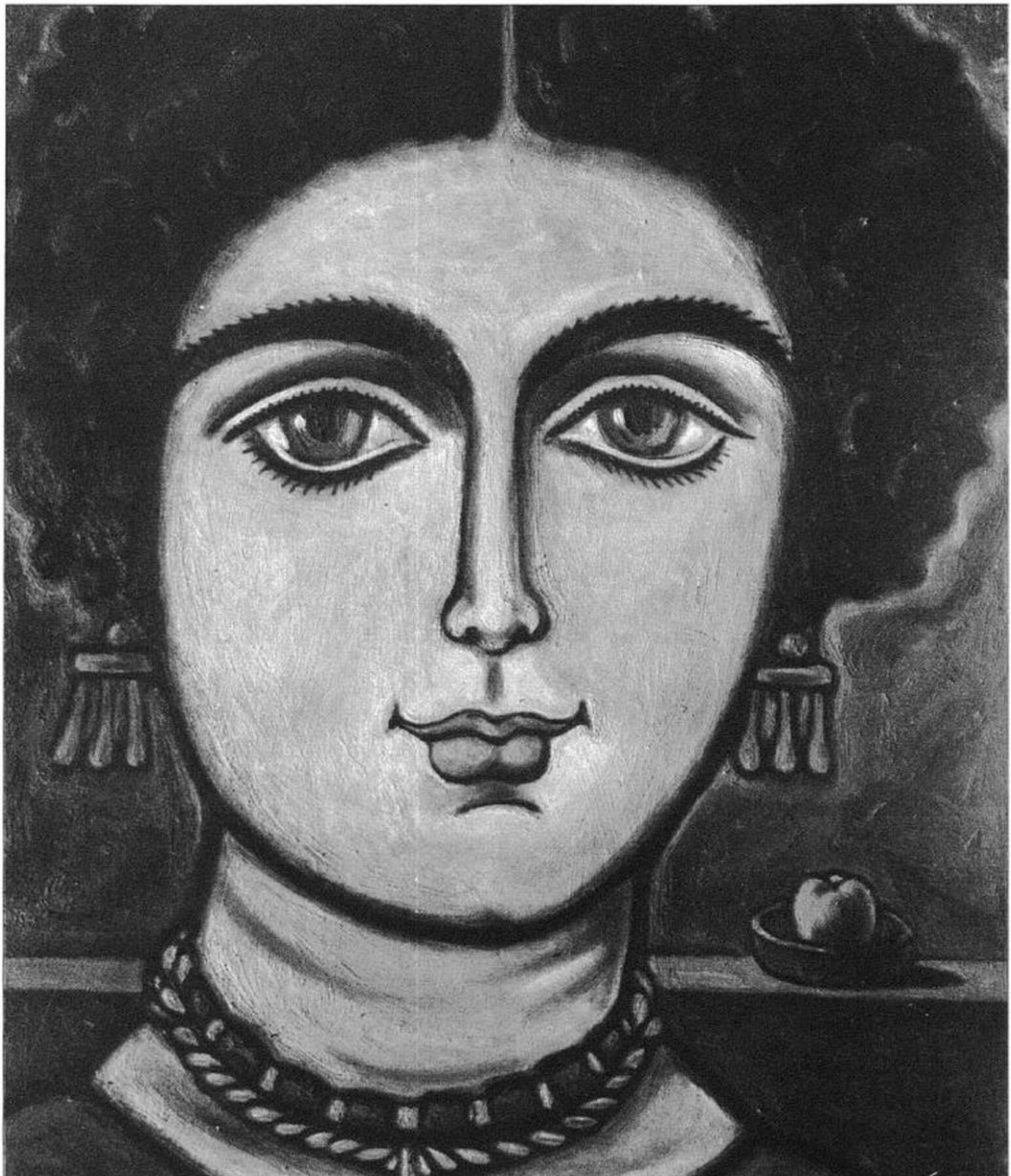
لكنه في معرضه الأخير بقاعة اخناتون، يمضي خطوة أكثر جذرية من خطواته السابقة، فبينما كان قبل يستقي رؤاه من «خلاصات» شعبية شبه مهضومة من التراث، بما في ذلك التراث القبطي، فإنه في تجربته الجديدة يعود إلى «منجم المادة الخام» للتراث القبطي، يدفعه إلى ذلك دافعان: أولهما فكري معنوي، يلخصه العنوان الذي أطلقه على المعرض وهو «تحية إلى الفن القبطي» من منظور رد الاعتبار إلى فن أحد عنصري الأمة،

تحية إلى الفن القبطي.. (معرض لوحات زيتية)
حلمي التوني
القاهرة: مجمع الفنون، من ٣١ أكتوبر، وحتى ١٩ نوفمبر ٢٠٠٠

عز الدين نجيب

وسؤال الهوية

«وجه وتفاحة» زيت على خشب ٨٥ × ٧٠ سم



«الملاك في الصحراء» زيت على خشب ٨٥ × ٧٠ سم



«المعجزة الأولى» زيت على خشب ٩٤×٧٠ سم



«الرحلة» زيت على خشب ٨٤×٧٠ سم





«العتبة»



«الحنو»

الذى يرى أنه جرى تهميشه وظلمه فى ثقافتنا المعاصرة لصالح الثقافة السائدة، تاركين للعنصر الآخر «الأقباط من أهل مصر» الشعور بالغبن والتهميش، أو حسبما يرى التونى فى كلمته بكتالوج معرضه - «ظلم حضارى وتهوين ثقافى وتاريخى لدور ونصيب أحد عنصرى الأمة فى صنع وتكوين ثقافتها»، ومن ثم يسعى الفنان بمعرضه إلى «محاولة لفت الأنظار إلى هذه الحضارة وفنونها» على حد قوله.

أما الدافع الآخر فهو «استكشاف - أو إعادة استكشاف - جماليات الفن القبطى ولغته البصرية، رغبة من الفنان فى مواصلة رحلة البحث فى جماليات الفن الشعبى المصرى - بالممارسة لا بالتنظير - انطلاقًا من أن الفن القبطى هو فن شعبى أساسًا ولم يكن فنًا رسميًا أو أكاديميًا مثل الفنون المسيحية فى الحضارات الأخرى».

فض اشتباك المصطلح

وقد أجد من الضرورى هنا أن أوضح أن الفن القبطى يتجاوز مفهوم الدين المسيحى، وقد سبق المسيحية فى مصر بقرون، و معلوم أن كلمة «قبط» تعنى مصر، كما تعنى المصريين فترة الاحتلال الرومانى لمصر وما بعدها، وكانت للمصريين قبل المسيحية فنونهم المتميزة التى تعد امتدادًا شعبيًا للفنون المصرية القديمة، وقد تأثرت لاحقًا بالفن الرومانى، بنفس القدر الذى تأثرت به اللغة القبطية فى بدايتها باليونانية، وآية ذلك التأثر بالثقافة الرومانية المسيطرة ما نجده فى الأزياء والفخار وبورتريهات الفيوم وعمارة «البجاوات» فى الواحات الخارجة (على الرغم من أن بناتها هم المسيحيون الأوائل الهاربون من بطش الرومان، بما يعنى أنهم كانوا أعداءهم وغاصبى أرضهم).. ثم تبلورت هذه الفنون مع الوقت بما يتوافق مع الأغراض والعقائد والمثل العليا للمسيحية، كما امتدت خصائص هذا الفن بعد الفتح الإسلامى لمصر بتجليات شتى من خلال الوحدات الزخرفية داخل منتجات الحرف التقليدية، مثل العمارة والرخام والمشغولات الخشبية والنسيج، ونعرف أن مدينة أخميم كانت أهم مركز لصناعة النسيج والمطرزات مما كان يسمى «القباطى»، وكانت تلك المنتجات الحرفية توظف لأغراض دينية وغير دينية فى العصور الإسلامية التالية، وإذا كان لكل ذلك دلالة فهى وحدة الشخصية المصرية فى الفن واستمراريتها عبر العصور متجاوزة حواجز الديانات، امتدادًا لعمق الخصائص الحضارية فى أعماق هذه الشخصية، ولايعنى هذا عدم وجود ملامح مميزة لفن كل حضارة أو حقبة تاريخية على حدة، وإنما المقصود هو تطور هذه الخصائص فى



«العرش» زيت على خشب ٨٥ × ٧٠ سم



«هز النخلة» زيت على خشب ٨٥ × ٧٠ سم



«بوابة النخلة» زيت على خشب ٨٥ × ٧٠ سم

سياق حضارى ممتد منذ عهود مصر القديمة حتى الآن، وكانت البوتقة التى انصهرت فيها هذه الخصائص بشكل طبيعى هى الفنون الشعبية، وذلك ما يعيه جيدًا الفنان التونى، الذى لم يتوقف ـ على امتداد العقد الماضى ـ عن محاولة رد الاعتبار إلى الفن الشعبى عامة، وليس الفن القبطى وحده.

منظور إنسانى وعالمى للتراث،

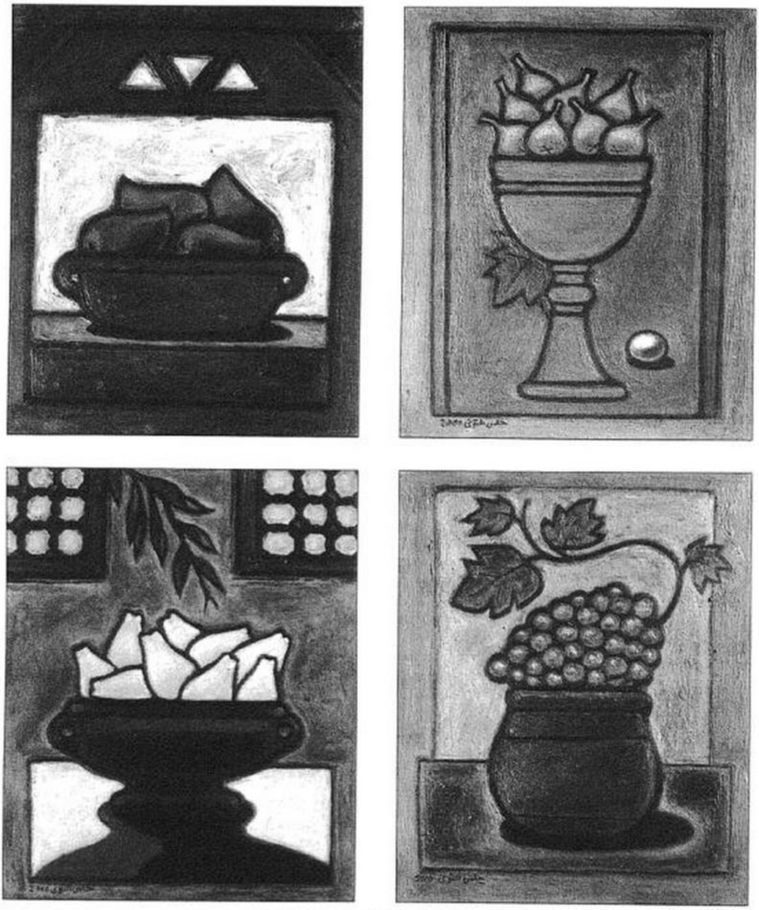
ماذا فعل التونى جماليًا لبلوغ هذه الرسالة؟.. هل استنسخ عناصر من التراث القبطى ورموزه الدينية كما هى؟.. أم استلهم منها قيمًا تشكيلية كأشكال بصرية تشبع حاجته إلى محركات جمالية؟..

الحقيقة أنه لم يفعل هذا ولا ذاك، وإنما أعاد إنتاج هذه العناصر والرموز، ليس من منظور دينى، بل من منظور إنسانى وعالمى، يحتفى بالحياة وبقيم الحب والأمومة والأخوة والتساند والتعاطف والخصوبة والاستمتاع بطيبات الدنيا، مع التحرر من طغيان مشاعر الحزن والاستشهاد والاستسلام السلبى للأقدار، لتحل محلها مشاعر الثقة بالنفس والعزة والكبرياء.. لقد زالت من عيون أبطاله النظرات المنكسرة الذابلة أو الغائمة التى كنا نراها فى وجوه الفيوم أو عيون الأيقونات، لنرى بدلاً منها نظرات قوية واثقة لامعة باسمة، وبات لدينا جو عام مشبع بشاعرية الحلم وبروح الفطرة الطفولية والأمومية، حتى لو جاءت التكوينات محاكية لنفس الصور والأيقونات المسيحية القديمة فى الكنائس والأديرة وعلى قطع النسيج ونوافذ الزجاج الملون والمعشق بالرصاص، لكنه يعيد تشكيلها بحسه الخاص.

أنظر ـ مثلاً ـ إلى لوحة «العذراء والطفل والنخلة» والتى سماها الفنان «الخطوة الأولى»، سترى بنفس اللون، جالسة على حجر وهى فى ثوب أبيض عاجى، وعلى رأسها طرحة بنفس اللون، تتماهى مع الهالة النورانية حول الرأس، فتبدو مثل العروس وهى تنظر نحونا بعيون يقظة محبة، فيما تمسك بيدى الطفل وترفعه واقفًا على ركبتيها، فيبدو أقرب إلى الدمية، وثمة طائر يرفرف بجناحيه أمامها، وسباط النخلة المحمل بالبلح الأحمر يدنو منهما، وبجوار الحجر الذى تجلس عليه السيدة تنبت شجيرة صغيرة مورقة.

وأنظر كذلك إلى لوحة القديسة، والتى سماها الفنان «القلادة»، تجدها أقرب إلى فتاة عصرية ذات شعر كثيف متماوج وفستان يميل إلى اللون الأبيض ويلتصق بجسمها مبرزًا مفاتنه، وفوق الهالة التى حول رأسها يقف هدهد فى فمه وردة، وفى عينيها نظرة تلتمع بالأمل، وكفها مضمومة فوق صدرها فى تعبير ينم عن العاطفة، وندف السحاب تتناثر فى فراغ النافذة المضيئة خلفها وتهفهف بالنسمات المنعشة!

وهذا وجه قمرى لفتاة يذكرنا بوجوه أقنعة الفيوم «لوحة وجه وتفاحة»، لكن عينيها العسليتين الحالمتين تسيلان عذوبة ووعودًا



من مجموعة الطبيعة الصامتة «تين»، «مانجو»، «عنب»، «جوافة»

بالحب، فيما ترفُ ابتسامة شهية على شفتيها مثل ثمار الفراولة!

وفي عدد غير قليل من اللوحات قدم الفنان تكوينات من «الطبيعة الصامتة» للزهور والفواكة والأسماك والأوانى الخزفية، مستقاة من فكرة القربان فى المسيحية، واستخدم فى رسمها نفس الحلول الفنية التى رسمت بها فى مشاهد الفن القبطى إلى حد كبير، لكنه هنا يضفى عليها حسًا دنيويًا خالصًا بجمال الطبيعة وطيباتها، فوق كونها تعبيرًا استطيقيا عن علاقات بنائية للشكل الفنى بعيدة عن المفهوم الدينى، وأكثر قربًا من ذاتية الفنان وقيم الفن الحديث.

حتى فى لوحته عن الملاك حاملاً الشمعدان الثلاثى «لوحة الملاك فى الصحراء»، نراه طفلاً ظريفًا بزى الفرسان الرومانيين، ينقل خطواته على الأرض بإيقاع ناعم رشيق، وطرف قدمه - بالكاد - يلامس الأرض وكأنه على أهبة الطيران أو الرقص، ناظرًا نحونا بعيون متالقة وابتسامة عذبة، وعلى الجانب الأيمن تتردد - فوق شريط طولى ممتد - وحدة الهلال وهو يحتوى الصليب بداخله، رمزًا لوحدة عنصرى الأمة.

الرؤية الجمالية.. طريق الخلاص

وغنى عن البيان أن الرسالة التعبيرية الرمزية وحدها لا تقيم دعائم عمل فنى، فالفيصل دائمًا هو القيم التشكيلية التى يقوم عليها العمل، والتى تنجح فى تغليف «الرسالة» فتنأى بها عن وسائط التعبير السياسى أو الأدبى أو الدعائى.

فماذا قدم التونى من قيم تشكيلية فى هذا المعرض؟.. وكيف فك الاشتباك مع قيم التراث وتواصل مع قيم الحداثة؟

لقد كان طريق الخلاص بالنسبة له هو نفس الطريق الذى سلكه فى معارضه السابقة، وهو المنظور الشعبى المصرى فى الحلول الفنية للوحة، ليس - فحسب - من خلال عضوية الفطرة والسذاجة البادية فى نسب التشريح والمنظور الهندسى والخط الصريح الذى يحدد كل الأشكال، بل الأهم من ذلك كله: منظور التعبير الرمزى والمجازى، الذى بين هذه العناصر - السابق الإشارة إليها - بالرؤية الداخلية لا الرؤية البصرية، فيعطى للأشكال أوضاعًا وأحجامًا بمنطق مختلف عن منطق الواقع، تبعًا لأهميتها ومكانتها بداخله وليس تبعًا لما يراها عليه بالنظر، وتندرج تحت ذلك المفهوم جميع العناصر التشكيلية الأخرى، من لون وخط وتكوين، فهى جميعًا عناصر رمزية بشكل أو بآخر، هذا مع الإقرار باختلاف المضمون الرمزى بين الرسالة التراثية التى استقى منها الفنان نماذجه، وبين رسالته الرمزية الجديدة.

واستطرادًا لهذا المنهج جعل التونى من الخط الأسود بطلاً رئيسيًا فى كل اللوحات، إنه لا يحدد المشخصات والعناصر فحسب، بل يجسّم أجرامها تبعًا لسمكه أو رقته، ويشارك فى تحديد الأبعاد الثلاثية للمنظور الهندسى، بما يستحدثه الفنان من إطارات داخلية تحيط التكوينات بوحدات زخرفية، قد تبدو أحيانًا على هيئة نوافذ أرابيسكية، وأحيانًا أخرى على هيئة براويز الصور العتيقة، ويقوده ذلك إلى إيلاء الوحدات الزخرفية أهمية مضاعفة، استجابة للإيقاع النغمى للخط المسترسل بحرية، وكذلك للمفهوم الشرقى والشعبى للتصوير، الذى لا يحبذ ترك فراغ على مسطح اللوحة، فيعمل على توشية كل الفراغات بعناصر خطية مساعدة، قد تكون زخرفية (مثل الوحدات الهندسية والنباتية) أو موضوعية (مثل الطيور والأسماك والملائكة.. إلخ).

ويبدو واضحًا استفادة التونى من رسوم الوشم الشعبية، ومن خطوط زخارف النسجيات القبطية، فى التنوع الإيقاعى للخط، وفى استخدامه العناصر الزخرفية المساعدة، وكذا استفادته من رموز الفن القبطى بالأسلوب التقليدى الذى عرف به، مثل السمكة والوردة والطائر والمثلث والنخلة والملاك والعذراء وفروع الشجر وثمار الفاكهة وأوانى الزهور وثنيات الملابس.. إلى جانب استدعائه رموزه الخاصة التى لازمته فى معارضه السابقة، مثل الهدهد والأهرام والعروسة والسمكة وأرضيات الورود.

ضــــوء.. أم نــور؟

يبقى ثمة عنصر تشكيلى حاسم فى هذه التجربة.. وهو الضوء، ونجد أنه استوحاه من الفنون الشرقية عمومًا، ومن الفنين القبطى والإسلامى خصوصًا، فبالرغم من انشغاله بتتبع انعكاس الضوء الخارجى على المجسمات أى ظلال متدرجة أو كثيفة حادة، تعمل على تأكيد الكتلة والبعد الثالث، فإن القانون الأساسى للضوء عنده يعود إلى مصدر داخلى فى اللوحة لا إلى مصدر خارجى، ونستطيع القول إنه يشع ولا يضىء، وإنه أقرب إلى النور منه إلى الضوء، فهناك سمة روحانية صوفية تجعلك تحار فى معرفة من أين ينبع، خاصة أن السمة الغالبة على جميع اللوحات هى الدرجات اللونية المعتمة، وبالرغم من وجود الكثير من النوافذ الجصية والخشبية خلف الأشخاص فى عدد من اللوحات، تتخلل زخارفها بقع ضوئية، فإنها لا تمثل مصادر للضوء، بل تضفى حالة نورانية شفيفة على جو اللوحة، خاصة مع ما يسودها من درجات ألوان الأزرق والبنفسجى والرمادى.

... إن التجربة الإبداعية المتصلة لحلمى التونى تمثل - فى المردود الأخير - إحدى الإجابات المهمة على سؤال الهوية المصرية فى الفن المصرى المعاصر، وكم يحتاج هذا السؤال إلى اجتهادات أخرى وإجابات متنوعة من الفنانين بمختلف اتجاهاتهم! ■

من أوراق قديمة

على مذهب ابن حنبل منع أوناسيس من احتكار

وديع فلسطين

هذه قضية لم تتناولها الصحف في حينها لأن طرفيها حرصا أشد الحرص على التزام السرية المطلقة بشأنها وعدم إفشاء أي من تفاصيلها، بل اعتبراها نزاعًا وديًا تتم تسويته بالتحكيم في كانتون جنيف بسويسرا.

أما وقد تغيّرت الظروف، وأصبح الطرفان المتنازعان طرفًا واحدًا بعدما اشترت الحكومة السعودية كامل رأس مال الطرف الآخر وهو شركة الزيت العربية الأمريكية (أرامكو)، وأما وقد لقي وجه ربه جميع الذين وردت أسماؤهم في هذا التحكيم، فلم تبق من هذه القضية إلّا عبرتها القانونية وحجيتها باعتبارها سابقة من سوابق التحكيم الدولي يُرجع إليها في القضايا المشابهة.

> **لما كان مذهب ابن حنبل هو المذهب الذي يراعى في إجراءات التحكيم، فقد استعانت أرامكو بفتاوى شرعية من الشيخ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول والشيخ فرج السنهوري وزير الأوقاف المصري الأسبق اللذين أنزلا حكم الشريعة على مذهب ابن حنبل على اتفاقية الامتياز والتزامات الطرفين بموجبها**

كانت حكومة المملكة العربية السعودية في عهد مؤسسها الأول الملك عبدالعزيز آل سعود قد منحت شركة أرامكو المملوكة لأربع شركات أمريكية كبرى، امتيازًا لإنتاج البترول في المملكة العربية السعودية في المنطقة التي حددت أبعادها في اتفاقية الامتياز. ونص في المادة الأولى من هذه الاتفاقية المبرمة في ٢٩ مايو ١٩٣٣ على منح أرامكو الحق المطلق exclusive right في «التحري والتنقيب والحفر واستخراج ومعالجة وصنع ونقل ومعاملة وأخذ وتصدير البترول». ونص في المادة الثانية والعشرين من الاتفاقية على أن «للشركة أن تستعمل جميع أنواع الوسائط لنقل الموظفين أو الأجهزة أو البترول ومستخرجاته».

واعتقدت الشركة أن هذه النصوص كافية لتأكيد حقها المطلق في نقل وتصدير البترول «وفي استعمال جميع أنواع الوسائط لنقل البترول ومستخرجاته» ولاسيما أن الشركة درجت منذ اكتشافها للبترول بكميات تجارية على ممارسة هذا الحق دون منازع.

ولكن حدث في ٢٠ يناير ١٩٥٤ أن عقد وزير المالية والاقتصاد السعودي باسم حكومته عقدًا مع المليونير أوناسيس (واسمه الكامل أرسطو سقراط أوناسيس) اليوناني المولد والأرجنتيني الجنسية والمقيم في باريس، ويقوم أوناسيس بمقتضاه بإنشاء الشركة العربية السعودية للناقلات البحرية (سكاتو) بأسطول من الناقلات يرفع العلم السعودي ولا تقل حمولته الإجمالية في أي وقت عن ٥٠٠ ألف طن ديدويت، كما ينشىء مدرسة بحرية في جدة لتدريب السعوديين على العمل على ناقلات الزيت، ومدة العقد ٣٠ سنة قابلة للتجديد. ونص في العقد على أن تكون لناقلات أوناسيس أولوية وأفضلية في نقل بترول أرامكو- وهي شركة البترول الوحيدة العاملة في السعودية في ذلك الوقت - على أن يؤدي للحكومة ريعًا royafty قدره شلن وستة بنسات عن كل طن من البترول ينقل بناقلاته. واختار أوناسيس الشيخ محمد عبدالله علي رضا وزير التجارة السعودي السابق، ممثلاً له. ومن مؤدّى هذه الاتفاقية أن يحصل أوناسيس على احتكار شبه تام في عمليات نقل بترول أرامكو، وأن يقوم هو بتحديد أسعار النقل بعملة الدولار الأمريكي بموجب هذه الاتفاقية.

وارتأت شركة أرامكو أن هذه الاتفاقية تتعارض مع اتفاقية الامتياز الممنوحة لها لأن الاتفاقية الجديدة سلبت منها حق النقل الذي نصّ في اتفاقية امتيازها نصًا صريحًا بأنه حق مطلق excfasive، ولا يجوز بالتالي انتزاعه منها أو أن يشاركها فيه أي طرف آخر.

وحاول الطرفان تسوية هذا النزاع بالاتصال المباشر وبالمراسلات، ولكن تعذر ذلك، وعندئذ توافقا على حسم النزاع عن طريق التحكيم الدولي في جنيف بسويسرا. وبناء على ذلك، عقد الطرفان مشارطة للتحكيم بتاريخ ٢٣ فبراير ١٩٥٥ نصت على إقامة هيئة التحكيم قوامها محكمان، يُسمي كل طرف منهما محكمًا، ويقوم المحكمان بتسمية رئيس الهيئة أو المحكم الفيصل في النزاع Referee ونص في المشارطة على أن تكون لغة التحكيم هي اللغة العربية والإنجليزية، وأن يتم البت فيها حسب مذهب ابن حنبل المطبق في المملكة العربية السعودية.

وطبقًا لمشارطة التحكيم قامت الحكومة السعودية بتسمية محكمها الخاص، وهو القاضي المصري الدكتور حلمي بهجت بدوي بك (الذي اختير في أثناء ذلك أول رئيس لمجلس إدارة هيئة قناة السويس بعد تأميمها) لكنه توفي في أثناء التحكيم أثناء زيارته للقاهرة في ٤ مارس ١٩٥٧، فقامت الحكومة السعودية بتسمية محمود حسن باشا سفير مصر الأسبق في واشنطن ورئيس الجمعية المصرية للقانون الدولي محكمًا خلفًا له. ومن ناحيتها قامت شركة أرامكو بتسمية الوزير السابق الدكتور سابا حبشي باشا المحامي محكمًا لها. واختار المحكمان البروفسير جورج ساوسرهول Georges saures-Hall السويسري الجنسية وعضو المحكمة الدولية للتحكيم ومعهد القانون الدولي رئيسًا لهيئة التحكيم وفيصلاً في النزاع Referee.

واختار كل من الطرفين وكيلاً عنه يدافع عن وجهة نظره. فكان الدكتور حامد سلطان أستاذ القانون الدولي في الجامعات المصرية وكيلاً عن السعودية والدكتور جورج راي George W.Ray,jr. مدير الإدارة القانونية في أرامكو وكيلاً عنها. واستعان كل من الوكيلين بمحامين معروفين على النطاق الدولي، فكان من جملة محامي السعودية السير ليونيل هيلد Sir Lionel Heald والمحامي المصري محمد عبدالله محمد، وكان من جملة محامي أرامكو اللورد مكنير Lord Mcnair الرئيس الأسبق لمحكمة العدل الدولية ولويل وادموند Lowell Wadmond الذي كان شريكًا لرئيس أمريكا الأسبق ريتشارد نيكسون في مكتب المحاماة.

ولمّا كان مذهب ابن حنبل هو المذهب الذي يراعى في إجراءات التحكيم، فقد استعانت أرامكو بفتاوى شرعية من الشيخ محمد أبو زهرة أستاذ الشريعة بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول والشيخ فرج السنهوري وزير الأوقاف المصري الأسبق اللذين أنزلا حكم الشريعة على مذهب ابن حنبل على اتفاقية الامتياز والتزامات الطرفين بموجبها.

ولما كانت مشارطة التحكيم قد نصت على أن لغة التحكيم هي العربية والإنجليزية، فقد استعان كل طرف بفريق من المترجمين، كما كان لهيئة التحكيم نفسها مترجموها الخاصون، وبحكم صلتي الوثيقة بالدكتور سابا حبشي باشا، اختارني ضمن فريق مترجمي أرامكو، ولم ألبث أن أسندت إليّ رياسة الفريق بالتعاون مع القانوني الفلسطيني هنري كتن، وكان الفريق يضم مترجمين من لبنان والأردن وفلسطين وسوريا والعراق والسعودية ومن الأمريكيين من أصل عربي.

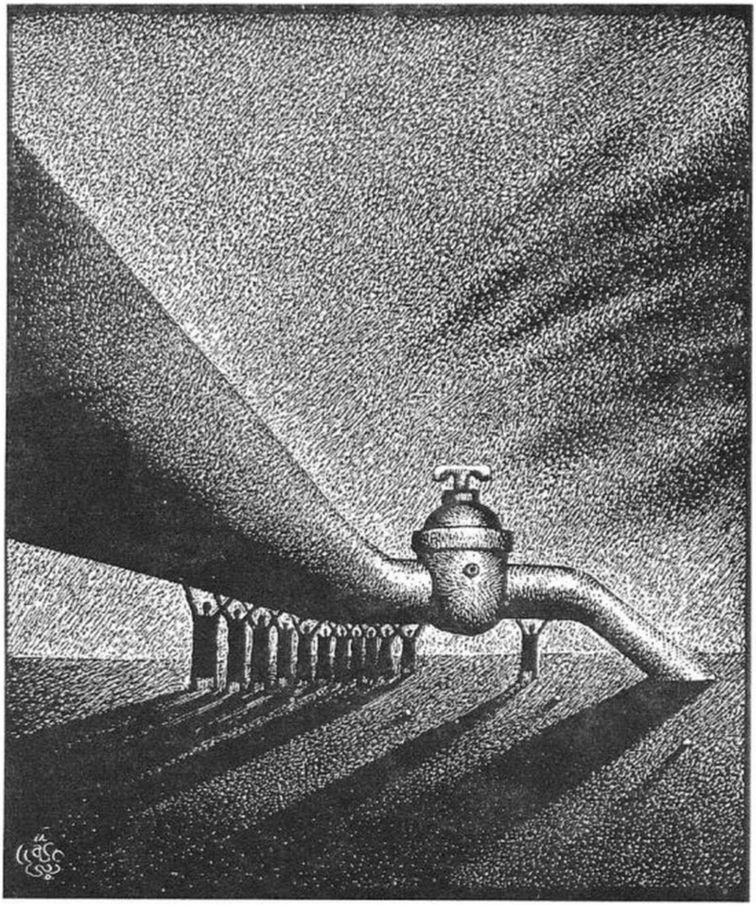
صحيح أن موضوع النزاع تمثل في الاتفاقية المعقودة مع أوناسيس، ولكن أوناسيس نفسه لم يكن له أي حضور في هذا النزاع، لا بشخصه ولا بوكيل عنه.

وقد أثار المحامون في أثناء التحكيم جدلاً حول طبيعة عقود الامتياز، وهل تعتبر عقودًا إدارية أم عقودًا تتعلق بخدمة عامة فيكون فيها طرف أعلى مرتبة، وهو الحكومة، وطرف أدنى مرتبة، وهو الشركة الخاصة، أو أنها عقود يتساوى فيها الطرفان ندًا مقابل ند، وتخضع بالتالي لمبادىء القانون الدولي الخاص. وكان من رأي هيئة التحكيم أن طبيعة الامتياز هي أنه تعاقد بين طرفين، طرف تمثله الدولة التي مارست سلطة سيادتها في إبرامه، وطرف يمثل الشركة المتعاقدة التي مُنحت في الامتياز حقوقًا، وفرضت عليها التزامات، ولا يصح انتزاع أي من هذه الحقوق منها دون موافقتها الصريحة.

وقدم وكيل كل من الطرفين مذكرات إلى هيئة التحكيم تتضمن وجهة نظره في جميع جوانب النزاع، من قانونية وتجارية وفنية واقتصادية وما إليها. ثم قامت هيئة التحكيم بدراسة جميع هذه المذكرات في ضوء قانون الأمم Law o. Nations والمبادىء القانونية المعترف بها والقرارات الصادرة عن عصبة الأمم والسوابق القانونية في منازعات مشابهة، وكل هذا مع مراعاة مبادىء الشريعة الاسلامية حسب مذهب ابن حنبل، وانتهت إلى أن الامتياز يخرج، بحكم طبيعته، عن كونه عقدًا إداريًا أو عقدًا لتأدية خدمة عامة، وإنما هو عقد ذو طبيعة خاصة يضع الطرفين على منزلة متساوية من حيث احترام الحقوق والواجبات المنصوص عليها فيه، وهو ملزم لكليهما ولا يجوز تعديله إلا بموافقتهما الصريحة. فالعقد هو شريعة المتعاقدين حسب الاصطلاح المعروف باللغة اللاتينية Pacta Punt Pervanda.

وفحصت هيئة التحكيم الاتفاقية المبرمة بين الحكومة السعودية وأوناسيس، وارتأت أنها تمثل عقدًا بين طرفين وهو ملزم لهما دون سواهما ولا ينصرف أثره إلى

نقل البترول السعودى!



أطراف أخرى، وهو ليس قانونًا صادرًا من الحكومة السعودية ويتعين تطبيقه على أرامكو.

وأما الحق المطلق فى نقل البترول «باستخدام جميع أنواع الوسائط» فقد أكدته الممارسة العملية السابقة للطرفين، إذ إن الشركة منذ إنتاجها للبترول بمقادير تجارية وهى تمارس حقها المطلق فى شحن البترول تحت سمع الحكومة وبصرها ودون أن ينازعها فى هذا الحق أحد، مما يدل على أن الحكومة نفسها فهمت هذا الحق بنفس ما فهمته أرامكو عنه، ولم يحدث أبدًا أن اعترضت على الممارسة العملية لهذا الحق من جانب الشركة.

وأوضحت الشركة فى مذكراتها أن جميع عمليات شحن البترول السعودى تتم من خلال مرافق مملوكة لأرامكو فى ميناء رأس تنورة البحرى، ولا سبيل إلى شحن البترول إلا عن طريق هذه المرافق، فكيف يجوز لأوناسيس أو غيره أن يستخدم هذه المرافق مع أنه لا يملك أى حق فيها.

صحيح أن أرامكو لم تر داعيًا لأن تمتلك أسطولاً خاصًا بها من الناقلات و مع أن لها فى ذلك حقًا لو شاءت ممارسته، إلا أنها آثرت بيع البترول بنظام التسليم على ظهر المركب F.O.B أو ادفع وانقل Cash and Carry فى ميناء الشحن، فيجىء المشترى بناقلته الخاصة أو المستأجرة - والأمر سيّان - إلى رأس تنورة، ويسدد قيمة البترول الذى اشتراه، ثم تقوم مضخات الشركة بتعبئة صهاريج الناقلة، ولم يحدث أبدًا أن تدخلت أرامكو فى حرية المشترى فى التعامل مع أى من شركات تأجير الناقلات، ولا اشترطت أن تكون الناقلة ملكًا للمشترى، فهذا أمر لا شأن لها به.

وأثارت أرامكو قضية أخرى وهى أن لناقلات البترول بورصة دولية هى التى تتولى تحديد أسعار الشحن، فكيف يجوز لأوناسيس أن يفرض بنفسه وبصورة تحكمية أسعار الشحن، وأن يحدد العملة التى تدفع مقابل شحن البترول بناقلاته، وهى عملة الدولار الأمريكى؟ وأضافت أرامكو أن اليابان تشترى عُشر إنتاج الشركة من البترول، ولكن ليس لديها أرصدة من الدولارات تمكنها من سداد قيمة مشترياتها، فوافقت الشركة على اقتضاء ثمن البترول بالين اليابانى، وحدا بها هذا إلى فتح مكتب لها فى طوكيو يقوم بشراء ما تحتاج إليه من معدات وسلع تؤدى قيمتها من حصيلة الين المدفوع لها، ولو أنها اشترطت هى أو سواها على اليابان فى ذلك الوقت أن تسدد قيمة البترول بالدولار، لفقدت عُشر إنتاجها، وبالتالى عُشر دخلها الذى تتقاسمه مع الحكومة السعودية بمقتضى اتفاقية مقاسمة الأرباح.

وكان محامو الحكومة قد دفعوا بأن قيام أرامكو ببيع البترول فى رأس تنورة إلى أصحاب ناقلات البترول، إنما ينطوى على تنازل الشركة لهم عن حقها المطلق فى الشحن. ولكن هيئة التحكيم ردّت على هذا الدفع قائلة إن البيع إلى الشاحنين لا ينطوى على أى تنازل عن حق الشحن من جانب الشركة، وإنما هو ممارسة لحقها فى «استعمال جميع الوسائط لنقل البترول».
وأضافت هيئة التحكيم قائلة إن اتفاقية أوناسيس لا يمكن تطبيقها من الناحية العملية، لأن أوناسيس وإن كان يملك الناقلات، إلا أنه لا يملك مرافق الشحن البحرى فى ميناء رأس تنورة المملوكة لأرامكو، ولا سبيل - قانونًا - لإرغام أرامكو على السماح لأوناسيس باستخدام هذه المرافق أو حتى لإعطاء أوناسيس أولوية أو أفضلية فى نقل البترول السعودى على ناقلاته.

وانتهت لجنة التحكيم فى قرارها Award إلى أن اتفاقية أوناسيس تتعارض مع اتفاقية الامتياز الممنوحة لأرامكو، ولا تسرى أحكامها عليها.

وقامت هيئة التحكيم بالتوقيع على ثلاث نسخ من قرارها، سُلّم وكيل كل طرف نسخة منه، أما النسخة الثالثة فقد أودعت فى مكتب محفوظات مقاطعة وكانتون جنيف مع جميع المحاضر والمذكرات الخاصة بهذا التحكيم.

ولكن محمود حسن باشا المحكم عن الطرف السعودى رغب فى أن يسجل رأيًا مخالفًا Dissenting Opinion للرأى الذى انتهت إليه هيئة التحكيم، فاعترض على التفسير المعطى لعبارة «النقل» الواردة فى المادة الأولى من اتفاقية امتياز أرامكو، وقال أن المعنى المفهوم من سياق المادة هو النقل داخل منطقة الامتياز، وقال: لو أن الطرفين رغبا عند توقيع اتفاقية الامتياز فى عام ١٩٣٣ أن ينصرف المعنى إلى النقل البحرى لقاما بالنص على ذلك صراحة وأضافا عبارة «البحرى» إلى النقل.

وقد صدر قرار هيئة التحكيم فى جنيف فى الثالث من أغسطس ١٩٥٨ بتوقيع المحكمين ورئيس هيئة التحكيم والسكرتير العام للتحكيم البروفسير لاليف Pierre Lalive.

هذا وقد ارتضى الطرفان المتنازعان قرار هيئة التحكيم، وإنفاذًا له سقط مفعول اتفاقية أوناسيس، واستحال عليه أن يحتكر عمليات نقل البترول السعودى كما كان يشتهى.■

الطموح القاتل لريتشارد بتلر

من مبعوث دولي إلى مخبر سري

محمد يوسف عدس

أمضيت في كانبرا (العاصمة لفيدرالية لأستراليا) ما يقرب من ثلاثة أشهر كتملتْ بها عشرة أشهر من الشتاء البارد المتصل. في رحلة طويلة أخذتني من النصف الشمالي للكرة الأرضية إلى نصفها الجنوبي بين لندن والقاهرة وأستراليا.

خبرت في هذه الرحلة الوانا من المناخ البارد مختلفة باختلاف خصائص المكان والطبيعة وأثر الإنسان فيهما. ولكني كنت على موعد مع موضوع ساخن شغلني عما كنت أحلم به من تأمل واسترخاء ومقارنة.

شتاء كانبرا ليس غريبًا عني. فأنا أعرف مذاقه الخاص. قد تنخفض فيه درجة الحرارة ليلاً إلى الصفر أو ما دون ذلك. ولكن النهار في كانبرا ينعش الصدر. يتميز بسماء صافية وشمس ساطعة. ولعلها المدينة الوحيدة التي تخلو من التلوث. فالمصانع والمداخن محرم إنشاؤها في هذه المدينة أو حولها. وبدلا من ذلك تطالعك خضرة طاغية لا يحجبها عن ناظريك سوى الأفق البعيد.

ملف صحفي

كانت وجهتي إلى المكتبة القومية. هذا المبنى الرخامي الضخم الذي يجمع في مزيج واحد عناصر من فن العمارة اليونانية والرومانية. يضم أكثر من ستة ملايين وعاء من أوعية المعلومات على اختلاف أنواعها وموضوعاتها. وفيه ذكريات عزيزة على نفسي. فقد عملت به سنوات كانت من أخصب سنوات حياتي.

لكنني لم أذهب هذه المرة إلى المكتبة لاستئناف العمل بها. فقد انقطعت صلتي بها منذ انتقلت إلى منظمة اليونسكو في مطلع الثمانينيات. وإنما ذهبت للبحث والاطلاع. وكان في رأسي موضوعان محددان أحدهما ما نحن بصدده الآن: ريتشارد بتلر الذي ارتبط اسمه في وعينا بلجان التفتيش الدولية لنزع سلاح العراق وبمأساة الشعب العراقي الذي ينوء تحت وطأة الحصار والعقوبات الاقتصادية. هذا الرجل الذي اكتسب - في وسائل الإعلام العربية - سمعة سيئة. من هو؟ وكيف صاغته الأحداث والخبرات قبل أن تلقي به المقادير في أرض العراق؟

إلى أي مدى يعتبر مسئولا عن القصف الأمريكي البريطاني المتواصل على العراق.. وعن الانقسام الدولي في مجلس الأمن.. وعن الحرب الدعائية التي اندلعت بين العراق وروسيا والصين وفرنسا من ناحية وبين الولايات المتحدة وبريطانيا من ناحية أخرى؟

ثارت حول ريتشارد بتلر عواصف من النقد الغاضب وصُوّبت إليه اتهامات بالتجسس والعمالة لحساب الولايات المتحدة وإسرائيل. وذهبت الولايات المتحدة إلى أقصى المدى في الدفاع عنه ومحاولة إعادته هو وفريق التفتيش عن الأسلحة لاستئناف عمله بعد أن كفّ العراقيون عن التعاون معه. فقامت الولايات المتحدة بشن حملتها الشهيرة في ديسمبر ١٩٩٨م تحت اسم «ثعلب الصحراء». ولكن شاءت الأقدار أن تكون هذه الحملة بمثابة الإعصار الذي أطاح بريتشارد بتلر. فلم يعد إلى العراق. بل فقد وظيفته كرئيس للهيئة الخاصة للأمم المتحدة التي عرفت اختصارًا باسم «يونسكوم». وتحطمت أحلامه في مستقبل دولي زاهر على صخرة الصراع الدولي والشطط الأمريكي. ومضى وحيدًا جريحًا يجتر آلامه ويلقي باللوم كله على صدام حسين في كتاب صدر له في يونية ٢٠٠٠م بعنوان: «صدام المتمرد: تهديد أسلحة الدمار الشامل وأزمة الأمن العالمي».

بدأت بحثي في مكتبة أستراليا القومية بالأرشيف الصحفي وفي رأسي احتمال: إذا كان بتلر شخصية مهمة فلا بد أن يكون له ملف صحفي يجمع أخباره ويتتبع تطورات حياته في المجال الذي اشتهر فيه. ووجدت بالفعل ملفا خاصا به يحفل بأخباره في الصحف الأسترالية على مدى ثلاثين سنة. ولأن بالمكتبة ثلاثة مؤلفين آخرين بنفس الاسم وُضع أمام اسمه في الفهرس «الدبلوماسي» تمييزًا له عن الآخرين. لا بد أن أنبه هنا إلى أن المكتبة لا تعني بكل الدبلوماسيين. فوجود ملف صحفي لشخص ما معناه أنه ليس شخصية عادية ولا بد أن تكون له إنجازات متميزة. هو إذن دبلوماسي من طراز متميز وليس من هذا النوع الذي ينطبق عليه ذلك الوصف الكاريكاتيري الساخر لصديقي الراحل الدكتور محمد علي العريان عندما قال: «جعلوه سفيرًا فانجعل وحطوه فانحط».

قبل أن أغوص في ملف بتلر تصفحت عناوين القصاصات الصحفية سريعًا لأتبين بعض ملامحه: إنه ليس من أبناء الأثرياء الذين يولدون وفي أفواههم ملعقة من ذهب. على درجة عالية من الذكاء والطموح. يتميز بصراحته الشديدة وعناده ونزعته القتالية.

الحقيقة التي لا أحب إنكارها أنني عندما بدأت البحث كنت أتمنى أن أجد في هذا الملف معلومات تدعم فكرتي السيئة عن ريتشارد بتلر. لأن هذا الاسم مرتبط في عقلي بمأساة الشعب العراقي الذي أعرف من إحصاءات المنظمات الدولية أن ضحاياه بلغ عددهم أكثر من مليون. نصفهم من الأطفال الأبرياء. وقد وجدت بالفعل مادة صحفية مثيرة يمكن أن تسيل لعاب أي صحفي جامع للأخبار باحث عن الفضائح. فهذه فضيحة بكل المقاييس نشرتها الصحف وأثارت زوبعة تحت قبة البرلمان الفيدرالي في كانبرا يعني فضيحة (بجلاجل).

نشرت صحيفة الـ «إيدج» The Age في عددها الصادر يوم ٢٠ أغسطس ١٩٩٢ بملبورن عاصمة ولاية فيكتوريا تحقيقًا صحفيًا عن ضجة قامت في البرلمان حول اتهامات خطيرة لدبلوماسي كبير هو ريتشارد بتلر الذي يشغل منصب سفير أستراليا في الأمم المتحدة.

تقول الصحيفة: إن معركة برلمانية حامية اشتعلت بالأمس حول شكوى تقدم بها رجل أسترالي نيابة عن زوجته التايلاندية التي كانت تعمل سكرتيرة في السفارة الأسترالية في بانجكوك عندما كان ريتشارد بتلر سفيرًا بها. يتهمه الرجل بأنه تحرش بزوجته جنسيا ودأب على إغرائها واضطهادها حتى تذعن له.

وقد أثارت القضية في البرلمان النائبة المعارضة «برونوين بيشوب». واستمر النقاش الحاد بين نواب من المعارضة ومن حزب الحكومة لمدة يومين متتاليين. وكان ريتشارد بتلر حينذاك في مهمة بكانبرا. فلما سأله الصحفيون عن رأيه في الاتهام نفى نفيا قاطعًا صحته. وطلب «سناتور إيفانز» وزير الخارجية آنذاك من النائبة سحب اتهامها.. ولكنها لم تفعل وأصرت على مواصلة استجواب الوزير الذي آثر ألا يعطي إجابات مباشرة على الأسئلة التي وُجهت إليه. وإنما أخذ يتحدث عن أسباب شخصية حساسة. وعن اختلاف التفاسير للحادثة الواحدة. واتهم النائبة بأنها لا تفهم كثيرًا في هذه المسائل الحساسة والخصوصيات التي لا يصح الحديث عنها في مجالات عامة.

ورغم أنني لم أقتنع بالإجابات الغامضة للسيد الوزير إلا أنني أيضًا داخلني شك في دوافع النائبة التي تنتمي إلى حزب المحافظين المعارض (في ذلك الوقت). وقدرت أن المسألة برمتها ربما تكون حلقة من حلقات الصراع الحزبي الذي لا يقف عند حد في تشويه الخصم والمبالغة في عرض سيئاته. لذلك قاومت هوى نفسي وتجاوزت هذه الواقعة وكأنها لم تحدث.

ثم شرعت أمعن النظر في صفحات الملف الصحفي:

في صحيفة «صنداي مورننج هيرالد الأسترالية» بتاريخ ١٩٩٢/٢/١٤ خبر تعيين ريتشارد بتلر سفيرًا بالأمم المتحدة اعتبارًا من أول مارس ليحل مكان «د. بيتر ويلنسكي». وأن «جون مكارثي» قد خلف بتلر سفيرًا في بانجكوك.

قبل ذلك بتسع سنوات (أي سنة ١٩٨٣) نشرت صحيفة الـ «أستراليان» الصادرة في سيدني يوم ٨ من يولية خبرًا تحت عنوان: هايدن (وزير الخارجية) يعين بتلر سفيرًا لنزع السلاح في جنيف. وأنه كان يعمل من قبل ممثلاً لأستراليا في منظمة الاقتصاد والتعاون والتنمية في باريس.

وفي صحيفة كانبرا تيمز بتاريخ ٨٣/٨/٢٨ خبر تحت عنوان: سفيرنا لنزع السلاح يحاول أن يجعل صوت أستراليا مسموعًا في العالم.

والملاحظ أنه يغلب على التغطية الصحفية في هذه الفترة نزعة اعتزاز وفخر بما حققه دبلوماسي أسترالي شاب من نجاح في المجال الدولي؛ تصفه إحدى الصحف فتكتب: إن بتلر يقاتل بشراسة في سبيل نزع السلاح النووي من العالم ويعارض التجارب الذرية الفرنسية التي استأنفتها فرنسا في جزيرة «مارورا أتول» بالمحيط الهادي (وهي قريبة من أستراليا ونيوزيلندة).

واصلت تصفح ملف بتلر في السبعينيات فوجدت اسمه يظهر في أخبار متفرقة لعل أهمها - عندي - خبر منشور بصحيفة الـ «إيدج» بتاريخ ١٩٧٦/٥/١٦ تحت عنوان: دبلوماسي يلتحق بمكتب «جوف ويتلام». وجوف ويتلام هو رئيس الوزراء العمالي السابق. أُقيل من منصبه في مؤامرة كبرى غير مسبوقة في تاريخ أستراليا. كان بتلر في ذلك الوقت يشغل منصب سفير في سنغافورة. وهو لا يزال في سن الشباب (٣٤سنة) وأمامه مستقبل عريض في السلك الدبلوماسي. ولكنه ضحّى بمركز مرموق ومستقبل مضمون تلبية لنداء الزعيم الوطني الذي يكنّ له كثيرًا من الحب والتقدير. وقد عبر بتلر عن إعجابه به في كتابه حيث شبهه بجون كنيدي وما يمثله في الولايات المتحدة. فويتلام سياسي جسور صاحب مبادئ واسع الأفق. استطاع أن يخترق سياج الأوضاع والأفكار الإمبريالية التي كبّلت أستراليا وبلغت ذروتها في عهد جون منزيس.

كان ويتلام أول من تحدث عن الجمهورية في أستراليا. وهو الذي منح الاستقلال للمستعمرات التي ورثتها أستراليا من بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية. وهو الذي سعى للتخلص من الهيمنة الأمريكية والانخراط في جهود لخلق منطقة قوية وحرة في جنوب شرق آسيا.وأحسب أن هذه التوجهات كلها كانت وراء المؤامرة السياسية لعزله ووضع حكومة غير منتخبة في السلطة من حزب المحافظين.

يبدو أن جوف ويتلام كان يمثل عند بتل المثل الأعلى والشخصية النموذجية. وقد عب عن هذا بوضوح في كتابه واعترف بأنه أثنا مرافقته لويتلام تعلم الكثير من حكمت

Saddam Defiant

(صدام المتمرد)

Richard Butler

London: Weidenfeld & Nicolson, 2000.

فى كتاب بتلر وصف مستفيض للقاءاته الروتينية مع طارق عزيز ورجاله، وهى لقاءات كان يغلب عليها الملاينة والاغراء، وتسودها مناقشات هادئة أحيانا وعاصفة أحيانا أخرى، ثم تحولت فى النهاية إلى مصادمات عنيفة وتهديدات مقتعة من جانب طارق عزيز



بلغت الأمور طريقا مسدودا عندما طالب بتلر بتفتيش القصور الرئاسية بحثا عن أسلحة مخبأة فيها كما زعم، ورفض العراق هذا الطلب بحجة أن القصور الرئاسية مواقع سيادية غير مسموح بانتهاكها ولأن فى ذلك مهانة للعراق، وأطلق العراق هجوماً إعلاميا ضد بتلر ومفتشى يونسكوم واتهم الأعضاء الأمريكيين بالتجسس لحساب بلدهم وطلب منهم مغادرة العراق

وخبرته. وأن الخبرة التى اكتسبها خلال عمله معه ترسبت فى عقله وطبقها فى إدارته ليونسكوم بالعراق. يذكر من ذلك أن ويتلام كان يطلب من مساعديه كل الحقائق عن موضوع معين. فإذا شرع أحدهم يدلى برأيه فى الموضوع كان يدق المنضدة بيده وهو يقول بحسم: «لا أريد وجهات نظر الآن.. اريد الحقائق فقط.. بعد ذلك يأتى التحليل والمناقشة. يقول بتلر معلقا: هذا بالضبط ما كنت أطلبه من المستشارين والخبراء العاملين معى فى يونسكوم.

ولكن ولاءه للزعيم العمالى جوف ويتلام ولحزب العمال أكسبه من ناحية أخرى عداء حزب المحافظين وقادته وكان لذلك أثره فى تدمير مستقبله الوظيفى بعد سقوطه فى العراق.

المواجهة مع طارق عزيز:

وعندما تدهورت العلاقات بينه وبين السلطات العراقية خلال عام ١٩٩٨ إلى الحضيض، بسبب تقاريره السلبية عن العراق إلى مجلس الأمن، فيستمر الحصار والعقوبات الاقتصادية وتتواصل التهديدات العسكرية الأمريكية. انطلقت من العراق حملات دعائية مكثفة ضد بتلر اتهمته بالتجسس والعمالة للولايات المتحدة، ومع ذلك ظل يردد فى تقاريره وتصريحاته لوسائل الإعلام أن العراق يرفض التعاون مع لجان تفتيش يونسكوم ويخفى أسلحته ذات الدمار الشامل.

فى هذه الأجواء الملتهبة كانت عمليات التفتيش تحتاج إلى لقاءات منتظمة بينه وبين طارق عزيز نائب رئيس الوزراء العراقى والمسئول عن ملف يونسكوم فى العراق.

ويصف لنا بتلر فى كتابه بعض هذه اللقاءات المثيرة التى حاول فيها طارق عزيز استفزازه لكى تفلت منه عبارة نابية أو تعبير غاضب فتسجله كاميرات الفيديو المسلطة على وجهه، ليثبت بها تحيز بتلر ضد العراق ويستخدمها فى حملته الدعائية ضده، ولكنه كان يبتلع إهانات طارق عزيز واتهاماته ولم يفقد صوابه ورد عليه بإجابات رصينة ومنطقية.

ريتشارد بتلر رغم ما هو معروف عنه من جدية وصرامة فإنه لا يخلو من روح الفكاهة، وقد ذكر فى كتابه أنه كان يحاول التخفيف من التوترات والجهامة التى سادت لقاءاته مع طارق عزيز بإلقاء مزحة أو نكتة ولكنه كان يواجه بصمت مطبق، وكان تعليقه على هذا: «لقد نسيت أن الدكتاتور لا يبتسم ولا يستجيب للمزاح لأن هذه انفعالات الإنسان السوىّ فحسب والدكتاتور ليس إنسانا سويًا».

وفى كتاب بتلر وصف مستفيض للقاءاته الروتينية مع طارق عزيز ورجاله، وهى لقاءات كان يغلب عليها الملاينة والإغراء، وتسودها مناقشات هادئة أحيانًا وعاصفة أحيانًا أخرى، ثم تحولت فى النهاية إلى مصادمات عنيفة وتهديدات مقنّعة من جانب طارق عزيز الذى يصف سلوكه وصفا مطولا تبدو فيه كراهية شديدة واشمئزاز، وبتلر رأى فى شخصية طارق عزيز مزيجًا من الغطرسة والدهاء والمكر والالتواء، ويكشف عن تقلباته المزاجية وحدة طبعه، ولا ينسى أن يصف لنا إدمانه تدخين السيجار الكوبى غالى الثمن ويتعجب: من أين يأتى طارق عزيز بتكاليف هذه العادة المكلفة وشعبه يعانى من الجوع والفقر؟

في ٢٢ فبراير ١٩٩٨ عرف العالم بلقاء مشهود بين كوفي عنان وصدام حسين الذي اقتنع بضرورة تفتيش القصور الرئاسية بعد أن قبل شرطه: أن يصحب فرق التفتيش فريق من الدبلوماسيين الدوليين المحايدين ليكونوا شهودًا على عملية التفتيش



كوفي عنان يتدخل:

بعد صدامات عديدة بين السلطات العراقية وبين فرق تفتيش يونسكوم تنبه كوفي عنان سكرتير عام الأمم المتحدة أن الأسلوب التصادمي الخشن الذي يتبعه ريتشارد بتلر مع العراق والذي تعززه الولايات المتحدة بالتهديد المستمر بالقصف الصاروخي والغارات الجوية أصبح أسلوبًا عقيمًا لا يجدي وأن الحلقة المفرغة التي تدور فيها المشكلة العراقية لن تنتهي إلا بالحل الدبلوماسي ذي النفس الطويل.

لقد بلغت الأمور طريقًا مسدودا عندما طالب بتلر بتفتيش القصور الرئاسية بحثًا عن أسلحة مخبأة فيها كما زعم، ورفض العراق هذا الطلب بحجة أن القصور الرئاسية مواقع سيادية غير مسموح بانتهاكها ولأن في ذلك مهانة للعراق، وأطلق العراق هجومًا إعلاميا ضد بتلر ومفتشي يونسكوم واتهم الأعضاء الأمريكيين بالتجسس لحساب بلدهم وطلب منهم مغادرة العراق، وأنه لن يتعاون مع يونسكوم إلا بعد تغيير تركيبته من الخبراء التي يغلب عليها الأمريكيون والبريطانيون، حيث يرى العراق أنه لا بد من إحلال خبراء من دول محايدة مكان هؤلاء، وأنه لا بد من تغيير ريتشارد بتلر نفسه لأنه متحيز ضد العراق.

استطاع كوفي عنان أن يقنع أعضاء مجلس الأمن بضرورة تدخله الشخصي لنزع فتيل الأزمة العراقية، ومهد لزيارته في أول فبراير ١٩٩٨ بمذكرة إلى مجلس الأمن يقترح فيها مضاعفة كمية البترول المسموح بضخه وبيعه في إطار برنامج (النفط مقابل الغذاء) وأعلن - أكثر من هذا - أنه يعارض الربط بين برنامج المساعدات الإنسانية للأمم المتحدة في العراق وبين مسالة انتهاك الحكومة العراقية لقرارات مجلس الأمن.

وفي ٢٢ فبراير ١٩٩٨ عرف العالم بلقاء مشهود بين كوفي عنان وصدام حسين الذي اقتنع بضرورة تفتيش القصور الرئاسية بعد أن قُبل شرطه: أن يصحب فرق التفتيش فريق من الدبلوماسيين الدوليين المحايدين ليكونوا شهودًا على عملية التفتيش.

وقد اعتبر هذا نصرًا باهرًا لكوفي عنان وتأكيدًا لوجهة نظره أن المشكلة العراقية لا تعالجها إلا الدبلوماسية الهادئة. وهو اتجاه تعارضه الولايات المتحدة التي اتخذت من التهديد والعنف أسلوبًا وحيدًا في التعامل مع العراق، ويقلل من مصداقية ريتشارد بتلر الذي كان متسقا في جهوده مع أسلوب الولايات المتحدة وسياستها في المنطقة، وكانت مبادرة كوفي عنان هذه هي المسمار الأول والأخطر في نعش نظرية العنف والتهديد، وبعدها بدأ العد التنازلي لنهاية يونسكوم في العراق ونهاية عمل بتلر نفسه.

كان كوفي عنان قد صرح للصحفيين بعد لقائه بالرئيس العراقي: أنه يستطيع أن يتفاهم مع صدام حسين ويتعامل معه، ويتضمن هذا التصريح نقدًا مقنعًا لأسلوب ريتشارد بتلر الذي أدى إلى إخفاق يونسكوم في مهمته، بينما كانت الولايات المتحدة تريد من كوفي عنان أن يعلن في كل تعليقاته عن الأزمة العراقية بأن تعنت صدام حسين هو السبب في استمرار العقوبات الاقتصادية وهو السبب في المأساة الإنسانية للشعب العراقي، وليس ريتشارد بتلر وتقاريره المستمرة إلى مجلس الأمن التي يشكو فيها من عدم تعاون العراق في جهود نزع السلاح، ولا إصرار الولايات المتحدة على حصار العراق وتهديده وقصفه.

وتحت ضغوط مكثفة من الولايات المتحدة كان مجلس الأمن - بعد كل أزمة تنشب بين العراق وبين يونسكوم - يقرر عودة فرق التفتيش إلى العراق لممارسة أعمالها، واستطاع المفتشون خلال نوفمبر حتى أوائل ديسمبر ١٩٩٨ أن يقوموا بزيارة مئات المواقع العراقية المشتبه فيها.

ولكن في يوم ٩ ديسمبر ١٩٩٨ حاول فريق من المفتشين دخول مقر رئاسة حزب البعث الحاكم فلم تسمح له السلطات العراقية بذلك، وفي اليوم التالي خرج وليام كوهين وزير الدفاع الأمريكي يهدد بأن العراق معرض للهجوم في أي لحظة مالم يذعن لمطالب بتلر الذي زعم في تقرير له إلى مجلس الأمن أن المسئولين العراقيين لايتعاونون وقد حاولوا إخفاء وثائق خطيرة تتعلق بصنع أسلحة كيماوية.

وعلق سيرجي لافروف المندوب الروسي في مجلس الأمن فقال إن تقرير بتلر متحيز وغير دقيق وأن المقصود به هو تقديم ذريعة للهجمات الأمريكية على العراق وطالب مع مندوبي الصين وفرنسا بإبعاد ريتشارد بتلر عن رئاسة يونسكوم.

وفي يوم ١٦ ديسمبر ١٩٩٨ وقبل أن يبدأ مجلس الأمن مناقشة تقرير بتلر الدوري أمر بتلر بانسحاب مفتشي يونسكوم من العراق ليتزامن مع بدء غارات جوية وصاروخية مكثفة قامت بها القوات الأمريكية والبريطانية على العراق، فيما عرف باسم عملية «ثعلب الصحراء».

واتهم بتلر كما اتهم من قبل في أزمة نوفمبر بانه لم يحط مجلس الأمن بقرار الانسحاب، ولكن بتلر يدافع في كتابه عن نفسه في هذه النقطة بانه قام بواجبه في إخطار رئيس مجلس الأمن الذي تصادف في ذلك الشهر أن يكون هو المندوب الأمريكي في مجلس الأمن (بيتر بيرلييه). يقول بتلر في هذه الواقعة أنه تلقى دعوة من بيتر بيرلييه لمقابلته في مكتبه حيث أوضح له أنه يجتمع به كممثل للولايات المتحدة لا باعتباره رئيس مجلس الأمن، وأخبره أنه نظرًا لرفض العراق تنفيذ قرارات مجلس الأمن وإصراره على عدم التعاون مع يونسكوم قررت الولايات المتحدة سحب أعضاء سفاراتها من المنطقة، ولهذا نصحني بسحب العاملين في يونسكوم من العراق، وكانت استجابتي بالموافقة على سحبهم تأمينا لسلامتهم. ثم عقّب: «ولكن عليّ أن أخطر مجلس الأمن من خلالك باعتبارك رئيسه الحالي لكي تقوم بتبليغه إلى الأعضاء الآخرين في المجلس» فرد بيتر بيرلييه: «لقد وافقت».

هذه سقطة من سقطات ريتشارد بتلر الذي أخذ الأمور ببساطة تبلغ حد السذاجة، فقد أعطى الولايات المتحدة كل ثقته وربما لم يخطر بباله أن صاحبه الأمريكي يمكن أن يهمل إبلاغ الآخرين في مجلس الأمن باعتزام بتلر سحب فرق التفتيش من العراق، وكان ينبغي على بتلر - وقد أصبح موقفه حساسًا وتحيط بعلاقته مع الولايات المتحدة الشكوك - أن يبادر بإخطار مجلس الأمن كتابة بقرار الانسحاب.

السيرة الذاتية للدبلوماسي

لعله من المهم وقد وصلنا إلى هذه النقطة في مجريات الأحداث أن نحاول الاقتراب من شخصية ريتشارد بتلر للتعرف عليها، فبدون ذلك يصعب علينا فهم الكثير من مواقفه في قضية نزع سلاح العراق، ويصعب علينا - بوجه خاص - فهم كل هذا العناد والتصلب الذي أبداه في عمليات التفتيش وفي تنفيذ قرارات الأمم المتحدة.

نحتاج - في هذا الصدد - أن نتعرف على الطريقة التي فهم بها طبيعة مهمته ومسئولياته وواجباته، وعلى أسلوبه في إدارة شئون فرق المفتشين والخبراء، كما نحتاج أن نجيب عن أسئلة مهمة مثل: هل كان ريتشارد بتلر يؤمن بمبادىء معينة التزم بها؟، وإذا كان الأمر كذلك فهل سقط فعلا في شباك المخابرات الأمريكية؟ وإذا كان هذا قد حدث فهل كان سقوطه عن وعي منه أم كان محض صدفة أم نتيجة خدعة غابت عنه خيوطها الخفية؟!

أفرد بتلر في كتابه فصلا كاملا هو الفصل الثاني ليكشف لنا فيه عن نشأته وتاريخ حياته وتعليمه، ثم تدرّجه بعد التخرج من جامعة سيدني في السلك الدبلوماسي. ويذكر لنا أن أكثر ما جذبه لهذه المهنة اهتمامه المبكر بالعلاقات الدولية وانجذابه الشديد إلى مجال متخصص بعينه هو نزع السلاح النووي ووقف التجارب النووية في العالم.

ولسنا نتوقع أو نزعم أن ما أورده بتلر في كتابه عن سيرته هو الحقيقة كاملة ومجردة، فهو بالتأكيد يختار ويجتزىء من الأحداث بما يعتقد هو أنه قد شكل حياته وأثر في مواقفه، ولكننا نستطيع أن نعرف الكثير عن شخصيته من مجرد التأمل في اختياراته وطريقته في إلقاء الضوء على أحداث حياته.

إنه يركز على الأحداث التي تبرز خبراته وجدارته وإنجازاته التي أهّلته لقيادة فريق من الخبراء الدوليين في مهمة خطيرة، هي نزع الأسلحة ذات الدمار الشامل في العراق، كما يبرز أحداثا معينة ليدلل بها على براءته من تهمة الانحياز أو التجسس للولايات المتحدة التي ثار حولها جدل كثير.

يقول بتلر إنه نشا في بلدة صغيرة تسمى «بوندي» تقع على ساحل المحيط الهادي شرق سيدني عاصمة ولاية «نيوسوث ويلز»، وهي من أشهر شواطىء أستراليا تمتاز برمالها الذهبية. يقول: «كنت الثاني في الترتيب بين ثلاثة إخوة.. من أسرة فخورة من الطبقة العمالية كان أبي يعمل بيديه كمنسّق للحدائق.. تطوع في الحرب العالمية الثانية عندما هددت اليابان أستراليا وشرعت مدفعيتها تقصف الشواطىء الأسترالية فهاجرت أمي إلى الداخل لتستقر في بيت يملكه بعض أقاربها في منطقة ريفية.. وهناك ولدت عام ١٩٤٢م».

يصف أولى خبراته المؤثرة في مدرسة بوندي الابتدائية حيث يقول: «كان نصف زملائي في المدرسة من المهاجرين.. معظمهم من اليهود الإشكناز الذين طردهم هتلر من أوروبا.. وفي الحديث إليهم واللعب معهم عرفت لأول مرة حقائق عن العالم خارج أستراليا.. وأنه عالم مليء بالصراع المسلح والمشكلات السياسية.. وفي المدرسة الثانوية أضيفت إلى خبرتي خبرة أخرى عن لاجئين من المجر فرارا من الغزو الروسي سنة ١٩٥٦م». هذه الخبرات - كما يقول - عزّزت اهتمامه بالعلاقات الدولية.

تخرج بتلر من جامعة سيدني سنة ١٩٦٤ متخصصًا في السياسة والاقتصاد، ثم عُين مساعدًا سياسيًا في مؤسسة الطاقة الذرية الأسترالية بقسم العلاقات الخارجية، وفي سنة ١٩٦٥ تقدم إلى وظيفة بالسلك الدبلوماسي أعلنت عنها وزارة الخارجية، ونجح في امتحان الوظيفة ضمن خمسة عشر مرشحا من بين ثمانمائة من المتقدمين، وأثناء عمله حصل على درجة الماجستير في العلوم السياسية.

وحول هذين المحورين الدبلوماسية والأسلحة النووية دارت حياته الوظيفية أكثر من ثلاثين سنة.

كانت أول وظيفة له بالخارج في سفارة أستراليا بفيينا، وأصبح هو المندوب الأسترالي في الهيئة العالمية للطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة، يقول بتلر: «شاهدت

فى فيينا اقتحام حلف وارسو لتشيكوسلوفاكيا وكنت فى زيارة لبراج حينذاك.. ورغم حداثة عهدى بالعمل شعرت أننى أستطيع المساهمة فى علاج مشكلات حيوية كثيرة وأن أقيم علاقات وتواصلا مثمرا مع الآخرين وإقناعهم بالتصويت إلى جانب القضايا التى تهم أستراليا.. وكانت هذه التجربة بداية لخط مهم من خطوط حياتى الوظيفية فيما يمكن أن يسمى بالدائرة النووية».

وعندما عاد بتلر إلى كانبرا عين فى وظيفة بقسم أفريقيا والشرق الأوسط ولكن لم يكد عام واحد يمر حتى تم تعيين سير «لورانس ماكنتاير» سفيرا لأستراليا فى الأمم المتحدة سنة ١٩٧٠ فاختار بتلر ضمن ثمانية آخرين لمساعدته فى نيويورك.

وفى سنة ١٩٧٣ انتخب جوف ويتلام رئيسًا للوزراء فسعى إليه بتلر بنفسه ومن خلال أصدقائه ليحصل على وظيفة سياسية قريبة من زعيمه المفضل، وكان ويتلام يقابله بالترحاب والود ولكنه لم يعرض عليه الوظيفة التى كان يطمح إليها، وبدلاً من ذلك عينه فى منصب الرجل الثانى بسفارة أستراليا فى سنغافورة سنة ١٩٧٥. وهنا يعرج بتلر على واقعة جرى فيها سوء تفاهم شديد بينه وبين دبلوماسى من الولايات المتحدة.. وهو هنا حريص على أن يمدّنا بتفاصيل هذا الصدام وكأنه يريد أن يدفع عن نفسه تهمة العمالة للولايات المتحدة التى لحقت به مؤخرًا حيث يقول: «كنت عضوًا فى مجموعة الحلفاء نجتمع من وقت لآخر نتبادل المعلومات والأفكار حول الأوضاع السياسية والعسكرية والاقتصادية فى منطقة جنوب شرق آسيا.. وكان العضو الأمريكى يريد منى أن اكتب تقارير إلى حكومتى أحذر فيها مما أكده هو بوصفه (اختراقا شيوعيا) لفيتنام نحو الجنوب.. ولكننى قاومت ضغوطه واستهجنت مسلكه.. وفى أثناء النقاش ارتفعت أصواتنا فذكرته حينذاك بأن رئيس الـ (سى آى إيه) فى فيتنام عندما كان ثوار الفيتكونج يخترقون أسوار سايجون كان لا يزال يدبج تقاريره إلى واشنطن يطمئن حكومته بأن كل شىء على ما يرام.. ويبدو أنك تريدنى أن أساهم بكلام فارغ من هذا القبيل ولكننى لست مستعدًا لذلك»، ثم يعقّب: «لقد ساءت علاقتنا فلم نتصافح بعد هذه الواقعة.. ولا بد أنه كتب فى تقاريره إلى واشنطن عن عدم جدارتى الأيديولوجية».

يقول بتلر: لم يكن هذا هو الصدام الوحيد لى مع الولايات المتحدة ففى خريف ١٩٨٤م كان «بوب هوك» رئيس الوزراء العمالى آنذاك يخوض معركة انتخابات جديدة.. وكنت فى نيويورك لحضور اجتماع الجمعية العمومية للأمم المتحدة فتلقيت إشارة من أحد أصدقائى فى واشنطن قال فيها: إن إدارة الرئيس ريجان قد حذرت بوب هوك انه إذا فاز فى الانتخابات فإنهم يتوقعون منه أن يتخلص من«بل هايدن» وزير الخارجية الأسترالى ومن ريتشارد بتلر سفير أستراليا لنزع السلاح.. وكان التهديد المبطّن أنه إذا لم يفعل فإن «واشنطن سوف تجد نفسها مضطرة إلى مساندة حزب المحافظين المعارض».

يقول بتلر: «ويبدو أن سعيى المتواصل فى إقناع ممثلى الدول فى مؤتمر جنيف لنزع السلاح لم يعجب الإدارة الأمريكية».

قام بتلر بإخطار «بل هايدن» فى رسالة خاصة عن الموضوع.. ويبدو أنه قد حدثت مواجهة بين الوزير القوى وبين رئيس الوزراء الأسترالى الذى أنكر كل ما يتعلق بهذه التحذيرات الأمريكية وبعث برسالة تحمل هذا المعنى إلى «ديك وولكوت» سفير أستراليا بالأمم المتحدة اطلع عليها بتلر واحتفظ بنسخة منها، ولكن الأمر الغريب فى مسلك بوب هوك ـ كما يقول بتلر ـ أنه ألحقها برسالة أخرى عاجلة يطلب من وولكوت تمزيق جميع نسخ الرسالة الأولى وحذف رقمها من أرشيف السفارة كأنها لم توجد مطلقًا، وهى سابقة لم تحدث من قبل.

ويخلص بتلر من ذكر هذه الواقعة إلى النتيجة التى استهدفها، حيث يقول: «بعد ذلك يدعى العراق بأننى صنيعة لأمريكا.. فقليلاً ما يعلمون!».

عمل بتلر سفيرًا فى تايلاند من سنة ١٩٨٩ إلى ١٩٩١ استطاع فيها أن يحقق تسوية بين الخمير الحمر وبين حكومة الأمير سيهانوك فى كمبوديا.. يقول: بعد هذا التاريخ بسبع سنوات كنت في بغداد حيث تلقيت من القادة العراقيين نفس الانطباع الذى حملته فى ذاكرتى عن الخمير الحمر: برودة ثلجية وقسوة مروعة واستبداد فكرى».

وفى آخر عام ١٩٩١ عُين بتلر سفيرًا لأستراليا فى الأمم المتحدة لمدة خمس سنوات من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٧، وترأس أثناء ذلك وفد أستراليا إلى مؤتمر السكان والتنمية فى القاهرة.. واختير مع خمسة عشر دبلوماسيا لصياغة إعلان القاهرة المشهور، وفى هذا يصف لنا الصعوبات التى واجهته والصراعات الأيديولوجية والمصالح المتصادمة التى مثلتها المجموعات المختلفة التى حضرت المؤتمر، ولا ينسى أن يذكر مشاهدته لفيلم مقزز عرضته إحدى الجمعيات النسائية المصرية عن فتاة تتعرض لعملية بشعة لقطع جزء من عضوها الأنثوى.

ويبدو أن قدراته التفاوضية ومهاراته فى الوصول إلى صياغات يقبل بها الجميع قد اكسبته شهرة كبيرة فى الأوساط الدولية، لذلك اختارته الجمعية العامة للأمم المتحدة نائبًا لرئيس مؤتمر التنمية الاجتماعية فى كوبنهاجن،وفى سنة ١٩٩٤ انتخبت بتلر رئيسًا لمجلس الاقتصاد والتعاون التابع للأمم المتحدة وكان المجلس فى حاجة إلى إصلاح وتجديد فاسهم بنصيب وافر فى هذا الجهد، ثم اختير بعد ذلك مع مجموعة من رجال الأمم المتحدة للإعداد لبرنامج الاحتفال بالعيد الخمسينى للأمم المتحدة وإعداد الوثيقة التاريخية التى كان مقررًا إعلانها فى ذلك العيد.

وفى نهاية ١٩٩٥ قررت أستراليا بقيادة بول كيتنج رئيس الوزراء العمالى اتخاذ مبادرة كبرى فى مجال نزع السلاح النووى بإنشاء «هيئة كانبرا لنزع السلاح النووى» واستدعى بتلر لرئاستها فجاء ومعه سبعة عشر خبيرًا دوليًا فى مجال السيطرة على الأسلحة النووية، لوضع خطة آمنة للتخلص من هذه الأسلحة وكان بين هؤلاء روبرت ماكنمارا وزير الدفاع الأمريكى الأسبق، والبريطانى «مايكل كارفر»، وميشيل روكار رئيس الوزراء الفرنسى الأسبق، و«جوزيف روتبلات» الحائز على جائزة نوبل للسلام سنة ١٩٩٥.

واستطاعت هذه المجموعة أن تتوصل إلى خطة عملية مفصلة لنزع السلاح النووى فى العالم قدمته إلى الجمعية العامة للأمم المتحدة وإلى مؤتمر نزع السلاح.

والحقيقة أن تاريخ ريتشارد بتلر الدبلوماسى سجل حافل بالإنجازات والنجاحات والنشاط الذى لا يتطرق إليه الكلل، ولديه قدرات ومهارات فائقة فى التفاوض والإدارة، يدركها هو فى نفسه ويعتز بها وهى مصدر لثقته العارمة بالنفس.

ولكن انحيازه الأيديولوجى لحزب العمال الذى جعله يضحى مرة بوظيفته الدبلوماسية ليلحق بمكتب الزعيم العمالى جوف ويتلام، ثم تفرغه مرة أخرى لقيادة إحدى الحملات الانتخابية لحزب العمال، قد أكسبه عداوة حزب المحافظين وخصوصًا «جون هوارد» رئيس وزراء أستراليا الحالى الذى قام بإلغاء هيئة كانبرا لنزع السلاح النووى ثم ألغى بعثة ريتشارد إلى الأمم المتحدة.

فى يوم ٩ ديسمبر ١٩٩٨ حاول فريق من المفتشين دخول مقر رئاسة حزب البعث الحاكم فلم تسمح له السلطات العراقية بذلك، وفى اليوم التالى خرج وليام كوهين وزير الدفاع الأمريكى يهدد بأن العراق معرض للهجوم فى أى لحظة مالم يذعن لمطالب بتلر الذى زعم فى تقرير له إلى مجلس الأمن أن المسئولين العراقيين لايتعاونون



وهنا يعلق بتلر قائلا: «كان فقدى لهذه الوظيفة هو البداية لرحلة طويلة ومثيرة حملتنى إلى مكان بعيد لم تطاه قدمى من قبل ولم أحلم بالذهاب إليه فى يوم من الأيام ذلك هو العراق».

كيف فهم ريتشارد بتلر طبيعة مهمته فى العراق وحدودها وكيف قام بتنفيذها بناء على هذا الفهم؟

فى يناير ١٩٩١ كانت العمليات العسكرية التى قادتها الولايات المتحدة والمعروفة باسم «عاصفة الصحراء»، قد توقفت بعد إجلاء القوات العراقية من الكويت، وصدر قرار مجلس الأمن رقم ٦٨٧ يحدد أنواع الأسلحة ذات الدمار الشامل فى العراق متمثلة فى الأسلحة النووية والكيماوية والبيولوجية وكذلك الصواريخ ذات المدى الأبعد من ١٥٠ كيلو مترًا، وينص القرار على ضرورة تدمير هذه الأسلحة أو إزالتها أو تحويلها إلى مواد لا ضرر لها.

بمقتضى هذا القرار أنشئت هيئة خاصة للأمم المتحدة بالعراق سميت اختصارًا يونسكوم Unscom وهو كيان تابع لمجلس الأمن للقيام بمهمة نزع سلاح العراق، وإنشاء نظام للمراقبة يضمن عدم تمكين العراق من العودة إلى إنتاج أسلحة أخرى من هذا النوع فى المستقبل، وجعل قرار مجلس الأمن إتمام عملية نزع السلاح شرطًا لازمًا لرفع العقوبات الاقتصادية عن العراق.

ويرى بتلر أن الهيئة المسماة يونسكوم أداة لمجلس الأمن لم يسبق أن وجدت هيئة مثلها من قبل، فلم يشكل هذا المجلس هيئة تابعة له لنزع سلاح دولة ما فى كل تاريخه، وبناء على هذا الفهم أدرك بتلر وتصرف باعتباره مسئولاً فقط أمام مجلس الأمن لا أمام السكرتير العام للأمم المتحدة، وكانت لهذا الموقف آثاره السلبية على العلاقة بينه وبين كوفى عنان.

لجأ بتلر إلى مستشاره القانونى البريطانى «جون سكوت» لموافاته بقائمة مفصلة بالتزامات العراق كما حددها قرار مجلس الأمن، فجاءته القائمة فى ٢٨ صفحة كاملة عرف منها: أنه لا بد من تجريد العراق من كل مادة أو برنامج متعلق بإنتاج أو صيانة أسلحة ذات دمار شامل، ويدخل فى هذا كل سلاح وكل خطة أو برنامج وكل وثيقة وكل مصنع أو معمل أو جهاز، ولتحقيق هذا الهدف فإن يونسكوم والعاملين فيه لهم الحق كل الحقّ لاتخاذ أى إجراء والدخول فى أى موقع واقتحام اى باب فى العراق، وكان هذا مصدرًا لمصادمات كثيرة بينه وبين السلطات العراقية.

وهنا يأتى على نقطة بالغة التعقيد مثيرة للجدل، فكثير من الأجهزة التى استخدمت فى صنع الأسلحة المحظورة تنطوى على إمكانات الاستخدام فى أغراض سلمية يعنى استخداما مزدوجا فمعامل التخمير التى تنتج عنصر «أنثراكس» القاتل يمكن غسلها لكى تستخدم فى صناعة مشروب البيرة، ونفس الأجهزة التى تستخدم فى إنتاج غاز الأعصاب (سارين) و«تابون» يمكن استخدامها فى صناعة أقراص الأسبرين، وكان ليونسكوم الحق القانونى فى تدمير هذه الأجهزة، ولكن كيف وإلى أى حد يمكن ممارسة هذا الحق؟

إن بتلر نفسه يعترف فى كتابه بأن هذا الأمر يخضع للاختلاف فى الرأى كما يخضع للاجتهاد، ويعترف بانه قام بتدمير عدد كبير من هذا النوع من الأجهزة والمعدات ذات الاستخدام المزدوج فى المجال الكيماوى، وقد ناشده العراقيون مرات عديدة أن يترك بعض هذه الأجهزة للانتفاع

بها في الأغراض السلمية والاكتفاء بوضعها تحت الرقابة كما كان يحدث مع مصانع أخرى، ولكن ريتشارد بتلر أصر على تدميرها. أما المعدات الضخمة فقد أمر بصب خرسانة مسلحة في تجاويفها بحيث يستحيل التخلص منها. وامتدت سلطاته إلى ما هو أبعد من هذا فقد كان يراجع قوائم طلبات العراق من الغذاء والأدوية وكان يشطب منها تلك المواد ذات الاستخدام المزدوج ومنها مثلاً مادة الجرافيت اللازمة لصناعة أقلام الرصاص التي يحتاج إليها التلاميذ في المدرسة.

في تقرير نشرته مجلة «كريستيان سينس مونيتور» عام ١٩٩٨ يصف الآثار المدمرة لإجراءات يونسكوم في نزع سلاح العراق، أشارت إلى ما قام به خبراء يونسكوم لتخريب المؤسسة العامة للتنمية الحيوانية بالعراق ،التي كانت تنتج ملايين الأمصال اللازمة لصحة الحيوانات الزراعية ووقايتها من الأمراض بحجة أن معاملها ذات استخدام مزدوج. وبذلك ارتكب خبراء يونسكوم جريمة بشعة عرضت الثروة الحيوانية في العراق للإبادة. والتفاصيل التي ذكرتها المجلة في عملية تخريب المعامل شيء بشع لا يصدق احد أن يجرؤ على فعله بشر متحضرون.

وهكذا تحول يونسكوم إلى غول مدمر في العراق وبدا أن بتلر يتعسف في استخدام الحقوق الواسعة التي خولتها له قرارات مجلس الأمن، ودعمتها الولايات المتحدة الأمريكية بالحصار وبترسانتها العسكرية الرهيبة حول العراق وبالقصف الجوى والصاروخي والتهديد المستمر. وقد أكسبه هذا صورة كريهة في الإعلام العربي.

الكـم والكـيـف فـى نزع السـلاح:

كان بتلر على وعي تام بأهمية التقارير الدورية التي كان يرسلها إلى مجلس الأمن عن العراق، وقد سجل هذا بوضوح تام في كتابه فقال: «إذا أصبحت في وضع يسمح لي أن أكتب تقريرًا يفيد أن العراق قد اتخذ جميع الخطوات اللازمة لنزع السلاح.. ووافق عليه مجلس الأمن فإن العقوبات الاقتصادية والحصار ينتهيان تلقائيًا».

ولكنه لم يفعل هذا طوال فترة رئاسته ليونسكوم التي امتدت عامين زار فيهما مفتشوه آلاف المواقع فلما لم يجد أسلحة وشرع يجادل فيما أطلقَ عليه نزع السلاح الكيفي تمييزًا له عن نزع السلاح الكمي، وهو مصطلح غامض غير محدد، وإن كنا نفهم من كتابه أنه لكي يتم نزع سلاح العراق نزعًا كيفيًا كان عليه أن يبحث عن برامج ووثائق متعلقة بإنتاج هذه الأسلحة، علم بوجودها في العراق من مصادر استخبارات عالمية هي على وجه التحديد الـ (سي آي إيه) الأمريكية والموساد الإسرائيلية. وكانت فرق التفتيش تلاحظ تحركات مريبة للسيارات داخل المواقع العسكرية التي جرى تفتيشها، وملفات تم إخفاؤها قبل وصول هذه الفرق، وكشفت الصور الجوية التي التقطتها طائرات التجسس (يو٢) عن تجمعات كبيرة لشاحنات نقل في قلب الصحراء بعيدًا عن العمران وهو وضع أثار شكوك المفتشين.

جرى كل هذا على خلفية حادث سابق نسف مصداقية بيانات السلطات العراقية التي أكدت فيها أنها تخلصت من كل أسلحة الدمار الشامل، واقصد بذلك هروب الضابط حسين كامل زوج ابنة صدام حسين الذي كشف عن حقائق مفصلة لسياسة العراق في إخفاء الأسلحة، ثم جاءت حادثة أخرى في ٢٧

في آخر عام ١٩٩١ عُين بتلر سفيراً لأستراليا في الأمم المتحدة لمدة خمس سنوات من ١٩٩٢ إلى ١٩٩٧، وترأس أثناء ذلك وفد أستراليا إلى مؤتمر السكان والتنمية في القاهرة.. واختير مع خمسة عشر دبلوماسيا لصياغة إعلان القاهرة المشهور



سبتمبر سنة ١٩٩٧ استطاع فيها أحد مفتشي يونسكوم مصادرة حقيبة صغيرة مع أحد الموظفين العراقيين كان يحاول الهرب بها من باب خلفي بأحد المصانع، ووجد بها مواد كيماوية تستخدم عادة في اختبار الأسلحة البيولوجية مثل أنثراكس وبيتولينيم.

وقد وجه بتلر إلى طارق عزيز استفسارًا عن وجود هذه الحقيبة ومحتوياتها وسر تهريبها؟ وكان جواب طارق عزيز أن هذه الحقيبة تخص وحدة عسكرية مسئولة عن أمن الرئيس صدام حسين شخصيًا، وأن المواد التي بها تخص معملاً لفحص الطعام الذي يُقدم إلى الرئيس للتأكد من خلوّه من السموم. ولم يصدق بتلر هذا الكلام وطلب تفتيش هذا الموقع فرد عليه طارق عزيز بأنه موقع سيادي ملحق بالقصور الجمهورية ولا يمكن تفتيشه.

الانزلاق من التـفـتـيـش إلى الاسـتـخـبـارات:

والملاحظ من هذه الوقائع كلها أن ريتشارد بتلر انزلق بالتدريج من مهمة نزع السلاح العراقي إلى دور المخبر السري الذي يبحث عن وثائق وأوراق مخفاة في آلاف الملفات، ويتسمع للهمسات والأسرار التي تجرى خلف الجدران والأسوار، وقد أغرته المخابرات الأمريكية والإسرائيلية بقدرتها على تزويده بما يحتاج إليه من معلومات عن الأجهزة والتكنولوجيا التي استوردها العراق من الخارج، وعلى مراقبة حركات وأنشطة علماء العراق وآخرين غيرهم ممن لهم صلة ببرامج صناعة الأسلحة العراقية.

وراح بتلر بثقة كبيرة، يفرض نفسه وطلباته على العراق الذي أصابه الملل وأدرك في النهاية أنه مهما فعل فلن يرضى بتلر ولن يخرج من الحصار المفروض عليه، وزاد الطين بلة تصريح مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأمريكية أن الحصار لن يرفع عن العراق إذا تم تجريد العراق من أسلحته حتى يخرج صدام حسين من السلطة، ولعلها تعلم أن مثل هذه التصريحات تزيد من شعبية صدام حسين وتشبثه بالحكم!

ومن ناحية أخرى، اقتنعت الدول الثلاثة دائمة العضوية في مجلس الأمن (فرنسا وروسيا والصين) أن بتلر أدخل يونسكوم في متاهات وراح يبحث عن إبرة في كومة هائلة من القش ولن ينتهي إلى شيء.

وكان من رأى هذه الدول أن ما تم إنجازه في نزع سلاح العراق يكفي لرفع الحصار عنه، وأن عمليات يونسكوم ينبغي أن تقتصر على مراقبة المصانع العراقية حتى لا تتحول إلى صناعة الأسلحة ذات الدمار الشامل، وأنه لا بد من تغيير تشكيلة الخبراء لإحداث نوع من التوازن فيها وأن ريتشارد بتلر لم يعد صالحًا لرئاسة هذه الهيئة لتحيزه مع الولايات المتحدة ضد العراق.

وفي مواجهة هذا النقد أخذ بتلر في لقاءاته الصحفية يكيل الاتهامات لهذه الدول بأنها باعت قضية نزع سلاح العراق الذي يهدد أمن العالم في سبيل مصالحها الخاصة، واتهم بريماكوف وزير خارجية روسيا آنذاك بأنه - مع آخرين من كبار السياسيين في الكريملين - يتلقون أموالاً من العراق بصفة دورية، وزعم في كتابه أنه عرف - من مصادر موثوق بها - قيمة هذه الأموال كما عرف أرقام الحسابات التي حولت إليها في البنوك.

وفي مقابل هذا اتهمه العراق والدول الثلاثة المذكورة بأنه متواطئ مع الولايات المتحدة وأنه قام بإمدادها بكل المعلومات التي حصل عليها من داخل العراق مدعمة بصور التقطتها ١٥٠ كاميرا مركبة في مصانعه للمراقبة، وهي معلومات عسكرية وصناعية ومعلومات عن الإدارات الحكومية ومواقعها. وقد استخدمت الولايات المتحدة هذه المعلومات في تحديد مواقع لأهداف طائراتها الحربية وصواريخها الموجهة وقامت بتدميرها.

وظلت الولايات المتحدة تنكر أنها اتخذت من يونسكوم غطاء للتجسس على العراق وظل بتلر يدافع عن نفسه وعن الولايات المتحدة في لقاءاته الصحفية، ولكنه اضطر في كتابه إلى الاعتراف بإمكانية حدوث هذا التجسس وإن ظل ينكر تواطئه أو علمه بهذه الحقيقة ومن ثم فهو لا يستبعد أن يكون هذا قد حدث من وراء ظهره ومن خلال الموظفين الأمريكيين العاملين في يونسكوم.

وسواء تم هذا بعلم بتلر أو بغير علمه فإنه لا يستطيع أن ينفض عن نفسه المسئولية ببساطة، فهو المسئول عن اختيار جميع الأعضاء العاملين في يونسكوم وهو المسئول عن إدارتهم وسلوكهم الوظيفي. وقد اضطرت الصحافة الأمريكية إلى الاعتراف بعمليات التجسس وذهبت في تبريرها مذاهب شتى. ليس هذا فحسب، بل إن أحد كبار مفتشي يونسكوم وهو الخبير الأمريكي «إشكوت ريتر» استقال من عمله وعاد إلى الولايات المتحدة ليهاجم بتلر وينتقد أسلوبه في إدارة عمليات التفتيش ويشير إلى تورط يونسكوم في التجسس لحساب الولايات المتحدة.

ويؤكد «إشكوت ريتر» أن تقارير بتلر عن تمرد العراق وامتناعه عن التعاون في تنفيذ قرارات الأمم المتحدة غير صحيحة، وأن القصف الأمريكي للعراق ومواصلة حصاره وتجويع شعبه لا مبرر له. وقد طالعتنا الصحف مؤخرًا (في أغسطس ٢٠٠٠م) أن ريتر ذاهب إلى العراق لتصوير فيلم وثائقي هناك بهدف اطلاع المجتمع الأمريكي على حقائق الدمار الذي لحق بالعراق وشعبه بسبب الحصار والقصف، وقال في تصريح له: «إن تصور أن العراق دولة شريرة غير صحيح ولا بد من نقاش موضوعي حول هذه القضية».

خـلاصـة:

بعد انهيار الاتحاد السوفيتي أصبحت الولايات المتحدة هي أكبر قوة في الأرض، فلما وجدت نفسها منفردة على قمة العالم اعتبرت قيادة هذا العالم حقا خالصًا لها وحدها دون سائر البشر. ومن ثم لم تعد حريصة على التشاور مع الحلفاء وإقناعهم بحكمتها وإنما يكفي - في نظرها - أن تقرر لكي يتبعها الآخرون.

هذا الموقف الأمريكي المفرط في تعاليه وغلوائه وهذا الإصرار علي إخضاع الآخرين طبع العلاقات الأمريكية مع الدول الأخرى ومع المنظمات الدولية، وقد أدّى - فيما يتعلق بالعراق - إلى مصادمات وانشقاق في مجلس الأمن، وأصبحت الولايات المتحدة تتصرف بعنف بلغ ذروته في ديسمبر ١٩٩٨، وتجلّى هذا في حملتها الجوية الصاروخية على العراق فيما عرف باسم «عملية ثعلب الصحراء».

ولكن الذي حدث - عكس ما توقعت الولايات المتحدة - أن عملية ثعلب الصحراء كانت بمثابة الضربة القاضية التي صرعت ريتشارد بتلر وأنهت حياة يونسكوم في العراق الذي مضى عليه الآن عامان بدون تفتيش ولا رقابة. فقدت الولايات المتحدة الرجل الذي كانت تعول على تقاريره السلبية إلى مجلس الأمن عن نزع سلاح العراق، وتتخذها مبررًا لمواصلة حصار العراق وقصفه وإبادة شعبه.

الأمر من وجهة نظر ريتشارد بتلر كما يعبر عنه في كتابه أنه كان يكتب في تقاريره ما سجله خبراء يونسكوم كنتيجة لجولاتهم التفتيشية، وما هو مقتنع به،

وليس فى الأمر افتراء على العراق. وأنه لوكتب غير هذا لكان مجافيا للحقيقة متهاونًا فى أداء واجبه متجاوزاً لمتطلبات مهمته التى وُكلت إليه.

أما الولايات المتحدة فلم يكن يعنيها من بتلر وتقاريره إلا الإشارة إلى عدم تعاون العراق مع يونسكوم وتمرده على القرارات الدولية واستمراره فى سياسة إخفاء الأسلحة ذات الدمار الشامل.

وقد أثار موقف بتلر المتشدد فى نزع سلاح العراق تساؤلات كثيرة عن مصداقيته فى تجنيب العالم مخاطر الأسلحة ذات الدمار الشامل بينما تملك إسرائيل ترسانة نووية وأسلحة ذات دمار شامل لا تستطيع إنكارها، وفى نفس الوقت تحتل أراضى جيرانها وتقوم بعدوان شبه يومى على اللبنانيين والفلسطينيين. كثيرًا ما سئل بتلر هذا السؤال: لماذا العراق فقط؟ وكانت إجابته دائمًا واحدة وهى أنه على وعى بوجود ازدواجية فى المعايير فيما يتعلق بقضايا الشرق الأوسط.

وأعتقد أن توجيه هذا السؤال إلى بتلر فى غير موضعه لأنه كان مسئولا فقط عن أعماله فى إطار مهمة محددة بدولة معينة. والأولى أن يوجه هذا السؤال إلى الولايات المتحدة نفسها: لماذا تصر على تجريد العراق من أسلحته وتغمض العين عن أسلحة إسرائيل. هل يصبح نفس السلاح فى يد إسرائيل حلوى لذيذة الطعم وفى يد العراق سماً زعافا!؟

أذكر هذا فقط لأدلل على أن مأساة العراق لا يمكن فصلها عن القضية الشاملة للشرق الأوسط بأكمله فلنتأمل الحقائق التالية:

أولا: تجريد العراق من أسلحته الرادعة وصواريخه بعيدة المدى وحصار شعبه عسكريًا واقتصاديًا واستنزاف طاقته الفكرية والاجتماعية والصحية ووضعه تحت التهديد المستمر. كل هذا فى إطار عملية إبادة منظمة لشعب أثبت أنه قادر على عمل شىء خطير يمكن أن يؤثر على أمن إسرائيل. والمطلوب هو القضاء على مصدر هذا الخطر والاحتفاظ لإسرائيل بتفوقها العسكرى على سائر دول المنطقة.

ثانيًا: التصريحات المتوالية لأمريكا التى تعلن فيها عداءها للنظام العراقى ولصدام حسين ورغبتها فى التخلص منه هراء فى هراء. فالنظام العراقى المستميت فى السلطة بوجهه الاستبدادى وآلياته القمعية ووحشيته الرهيبة وميوله العدوانية التوسعية، يمثل الصورة المثلى التى تحتاج الولايات المتحدة لتوظيفها، وتسعى لتثبيتها فى الأذهان لكى تبرر استمرار وجودها العسكرى فى الخليج والهيمنة على منابع الثروة البترولية واستنزاف عوائدها فى شراء أسلحة أمريكية وبريطانية لن تستخدم وإنما ستتحول إلى حديد خردة فى بضع سنوات، بينما تعانى شعوب المنطقة كلها من أزمات اقتصادية حادة.

ثالثًا: استمرار النظام العراقى الحالى مع التهديد العسكرى من الخارج سيؤدى إلى تقسيم العراق إلى ثلاث وحدات سياسية منفصلة، وفى ذلك القضاء النهائى على العراق كدولة. وأكثر ما تخشاه الولايات المتحدة إذا انهار النظام العراقى أن تأتى إلى السلطة قوى جديدة غير مضمونة يصعب السيطرة عليها. فقد ترى هذه القوى أن من مصلحتها التحالف مع إيران ضد الولايات المتحدة، بينما يحتضن النظام الحالى فى العراق قوة معارضة إيرانية شرسة تقوم بعمليات إرهابية مؤثرة فى قلب طهران.

رابعًا: فى الاحتواء المزدوج للعراق وإيران وتمزيق الصف العربى بحيث لا يصل إلى أى نوع من التضامن أو التنسيق ضمان أكيد لأمن إسرائيل. واستمرار هذه الأوضاع أطول مدة ممكنة حالة مثالية مطلوبة لتمرير تسوية ظالمة مهينة تحاول الولايات المتحدة فرضها على الفلسطينيين والعرب لصالح إسرائيل.

وأرى أنه من اللازم هنا إلقاء بعض الضوء على جانب خفى من السيناريو الأمريكى وذلك هو إصابة الأجنحة الإسلامية البعيدة بالشلل حتى لا تكون ظهيرًا للعرب والفلسطينيين فى قضية القدس. وذلك عن طريق إغراق هذه الأجنحة فى مشكلات داخلية وإقليمية تهدد أمنها ووجودها.

فلنتأمل بعمق شديد الدور الخفى للولايات المتحدة فى تصعيد الصراع بين الهند وباكستان حول كشمير وحول السباق النووى. ومن الواضح أن الولايات المتحدة تبدى تحيزًا مع الهند وتعصبًا ضد باكستان.

إنه نفس الدور الخفى الذى تلعبه فى إندونيسيا ابتداء من عملية انفصال تيمور الشرقية إلى الضغوط الحالية التى تمارسها على الرئيس الإندونيسى لتمنعه من زيارة بغداد وتضطره إلى التصريح بأنه يؤيد بقاء القدس تحت الإدارة الإسرائيلية. كذلك الأمر بالنسبة للأزمات الاقتصادية والسياسية التى تعصف بماليزيا ونيجيريا وتزلزل الأمن الداخلى فيهما.

لست ممن يحبون تعليق مشكلات هذه البلاد على «شماعة أجنبية» ولا ممن يجهلون أو يقللون من أثر الأخطاء القاتلة الى ارتكبها القادة السياسيون والعسكريون فى هذه البلاد فى تشكيل المصير الذى آلت إليه. ولكنى فى نفس الوقت لا أستطيع أن أغفل عن الأصابع الأمريكية التى تلعب على التناقضات القائمة هنا أو هناك. لتفجيرها فى الوقت المناسب أو دفعها إلى مزيد من السوء والتعقيد.

هذا هو جوهر السيناريو الأمريكى الذى يدور من حولنا. ندرك بعض عناصره الظاهرة وتخفى علينا عناصر أخرى دفينة. ولكنها لا تقل خطرا عما ندركه ونراه. وما العراق بمآساته المتشابكة المعقدة. ولا بتلر مهما بلغت أهميته إلا بعض عناصر هذا السيناريو الرهيب.

ربما كان ريتشارد بتلر ضحية لطموح قاتل أو ثقة عارمة بأن الولايات المتحدة قوة كونية فائقة قادرة على كل شىء. ولم يدرك أن ألوهية الولايات المتحدة مجرد وهم أو سراب. وأنها ليست قادرة على كل شىء. فلم تستطع حتى المحافظة على وجوده فى العراق. ولا إقناع الحكومة الأسترالية بإعادته إلى وظيفته السابقة فى وزارة الخارجية. وانتهى به المطاف إلى وظيفة شكلية فى منظمة أهلية هى مجلس العلاقات الخارجية بنيويورك. ليعيش بقية حياته بعيدًا عن وطنه.

هذا المجلس ـ كما تفضل عليه بهذه الوظيفة ـ ساعده فى إعداد ونشر كتابه الذى سجل فيه تجربته الدرامية فى العراق. والذى صدّره وختمه بحكمة اقتبسها من «إدموند بيرك» تقول: «الشىء الوحيد اللازم لانتصار الشر هو أن يكفّ الصالحون عن مواجهته بالعمل». وفى تراثنا العظيم حكمة بالغة تقول: «الساكت عن الحق شيطان أخرس». ■

كتاب الزاوية

الأمير

تأليف: نيقولا ميكافيللى

ولد نيقولا ميكافيللى فى فلورنسا عام ١٤٦٩ لأسرة كانت ذات ثراء ونفوذ لكن الدهر انقلب عليها. لم يلتحق بالتعليم الرسمى لفقر أسرته واعتمد على نفسه فى الدراسة وتمكن من إتقان اللاتينية. بزغ نجم ميكافيللى، ولم يتجاوز عمره ١٩ عامًا. حيث تولى رئاسة الحكومة المحلية فى فلورنسا، وأنشأ جيشًا وطنيًا عام ١٥٠٩. بعد أن احتلت الجيوش البابوية المدينة عام ١٥١٢ تعرض ميكافيللى للسجن، وعندما خرج وجد أسرة ميديتشى الشهيرة تعود للحكم فانهارت أحلامه وعاد إلى حياة الفقر، ولم ينقذه سوى تكليف البابا له بكتابة تاريخ فلورنسا. يعد كتاب «الأمير» أشهر أعماله وجعله هذا الكتاب علمًا على مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة» واللجوء إلى المكر والخديعة فى السياسة. توفى عام ١٥٢٧. ترجم الكتاب للعربية محمد مختار الزقزوقى ونشرته الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ٢٠٠٠.

١. فى أنواع الحكم المختلفة

إن جميع الدول والسيادات التى خضع لها البشر، ومازالوا، إما جمهورية أو ملكية. والملكيات، إما وراثية فيها حكام من أسرة بعينها منذ سنين طويلة، أو ملكية قامت حديثًا. وهذه إما جديدة تمامًا كمملكة ميلانو فى عهد فرنتشسكو سفورتسا Franecesco Storza، أو كأجزاء جديدة تضاف إلى ممتلكات الأمير الموروثة ويلحقها بها. كمملكة ميلانو فى عهد ملك أسبانيا. والممتلكات التى اكتسبت بهذه الطريقة إما أنها قد ألفت حكم أمير آخر فيما سبق، أو كانت ولايات حرة، ويلحقها الأمير بممتلكاته، إما بقوة أسلحته هو، أو بقوة أسلحة غيره.

مـــارجـــريت ثـاتشـــر

ابنــــة البقــــال

صـــاحـــبــــة أطـــول فـــتــــرة فـى مــنـــصـــب رئـيـس الـــــوزراء !



لـنـدا كـــــولـى

نحن نعرف الكثير جداً عن مارجريت ثاتشر، ونعرف في الوقت ذاته القليل جداً عنها. إنها كانت صاحبة أطول فترة فى منصب رئيس الوزراء فى بريطانيا خلال القرن العشرين، كما أنها شغلت هذا المنصب لأطول فترة متصلة منذ اللورد ليفربول فى أوائل القرن التاسع عشر. ومن ثم فإن حجم الأوراق الرسمية التى تمس حياتها العملية مساً مباشراً يتسم بالضخامة، و لم يكشف عنها النقاب بعد. وبما أنها السيدة الأولى والوحيدة التى تزعمت حزب المحافظين، وأول امرأة من غير الأسرة الملكية تقود البلاد، فقد اجتذبت من الكتب والمقالات ما يفوق ما اجتذبه أى سياسى بريطانى حديث بخلاف ونستون تشرشل. إلا أن الكثير من تلك الكتابات كتبها الأحباء أو الأعداء: ولذا فهى إما شديدة التأثر بشخصيتها صعبة المراس، أو نافرة منها بالقدر الذى يمنعها من تقديم تقييم متوازن أو شامل لما حققته بالفعل.

يضاف إلى ذلك أن تقييم مارجريت ثاتشر الإنسانة عقّدته أساطير الثاتشرية، وهى العملية التى ساهمت هى نفسها فيها. إن مجلديها الخاصين بسيرتها الذاتية السياسية، The Path to Power (السبيل إلى السلطة) (١٩٩٥) و Downing Street Years (سنوات داوننج ستريت) (١٩٩٣) قراءة إلزامية وتوليفة من تاريخ فترة ما بعد الحرب الذى له قيمته وإعادة كتابة بارعة لماضى الأمة ولماضيها. وكلما طال أمد ما عليه حزب المحافظين الحالى من ركود، كان احتمال أن تصبح تلك النسخة الثاتشرية أكثر قوة وأشد جاذبية ، على الأقل بالنسبة لهؤلاء الذين يميلون لأنه يصدقوا ذلك. والقصة بكل بساطة - وإن لم تقدم من قبل بمثل هذه المهارة - هى شيء من هذا القبيل.

فقد انتصرت بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية، إلا أنها خسرت بعد ذلك إمبراطوريتها وهدوءها. وقد شارك كل من الساسة العماليين والمحافظين فى ذلك الفشل الذى كان مرجعه الشعور بالرضا عن الذات، والافتقار إلى رؤية، والتراخى، والميل إلى شراء جماعات المصالح الخاصة ومثيرى المشاكل، بدلاً من مواجهتهم مواجهة حاسمة وتنفيذ ما تحتاجه البلاد من تغيير جذرى. واستشرى الفساد فى الستينيات، حيث أسفر عن نفسه على المستوى الشخصى فى صورة الفضائح الجنسية، وانهيار الأسرة، وتعاطى المخدرات، وانهيار الاحترام الواجب تجاه المؤسسات.. وتمثل من الناحية الاقتصادية فى الإسراف والتضخم سريع التقلب والنقابات العمالية شديدة القوة. ولم يكن أى من حكومة هارولد ويلسون العمالية ولا إدوارد هيث المحافظ الذى يميل لأوروبا، بقادر على أن يحول دون الانجراف القومى والتحلل. إلا أن المُخَلِّصة ظهرت فى آخر الأمر. وكغيرها من المُخَلِّصين، كانت من الخارج: غير أنها كانت أشد بأساً لهذا السبب.

وفى أوائل السبعينيات، قال كيث جوزيف، وهو واحد من أقرب حلفاء ثاتشر فى الحزب: «إننى لم أصبح محافظاً إلا مؤخراً». (وهو ما يذكرنا بفيلم «إليزابيث» وبإعلان بطلته الذى لا يقل أهمية والمشحون سياسياً: «لقد أصبحت عذراء».) وتكتب ثاتشر فى مذكراتها قائلة إن ملاحظة جوزيف بالنسبة لها كانت بمثابة كشف واستدعاء للعمل. فلا بد من إعادة صياغة حزب المحافظين والنزعة المحافظة، لكى تصنع البلاد نفسها من جديد. وكانت هى، ابنة البقال، من سيقوم بذلك. وما إن حل عام ١٩٧٥ حتى كانت زعيمة حزب المحافظين. وبعده بأربع سنوات، انفتح لها باب رئاسة الوزراء على مصراعيه. وأعقب ذلك ١١ عاماً من الجهد رفيع المستوى، والحماس الذى لا يفتر، والتضحية التى لا تهدأ، والعزم على التجديد. ويقاس نجاحها بترويض النقابات والعودة إلى (زمن) بيروقراطية بروكسل، مما أدى إلى ازدهار الرفاهية فى الداخل، والنصر فى فوكلاند. وفازت النزعة المحافظة الثاتشرية فى انتخابات عامة تلو الأخرى. ولم يتمكن أى خصم من النيل منها. إلا أن انهيارها - وهو شأن سائر المُخَلِّصين - كان على أيدى بعض حوارييها العفنين والأنانيين. لقد خلفت وراءها حزباً كان من الطبيعى - بدونها - أن ينفرط عقده ويضل الطريق، وينتهى به الحال فى سنة ١٩٩٧ إلى السقوط فى هاوية هزيمة لا تخفى على أحد.

ومن أمارات عبقرية ثاتشر السياسية أنها استطاعت أن تنسج حول نفسها تلك القصة سهلة الفهم المثيرة للانتباه، التى جعلتها أكثر قوة بما تحويه من عناصر الحقيقة. ومع ذلك فإنها انتقائية وغائية وتعتمد على أساطير قديمة العهد. فهناك أسطورة من الكوخ الخشبى إلى البيت الأبيض، التى تم تغييرها فى هذه الحالة من دكان على ناصية من نواصى جرانتام إلى داوننج ستريت. إلا أنه استعين كذلك بالروايات الأقدم والأقل علمانية من أفكار مؤثرة خاصة المسيح الذى طال انتظاره وبالخيانات وبقبلة يهوذا. والتحدى الذى وضعه جون كامبل نفسه هو كتابة سيرة موثوق بها لمارجريت ثاتشر، رغم كونها غير مجازة، تعترف بقدر الشخصية التى تتناولها وتغربل الأساطير التى نمت حولها. وهو فى هذا المجلد - وهو الأول من مجلدين - يحقق نجاحاً باهراً فى تتبع الأحداث التى أوردتها ثاتشر نفسها فى The Path to Power وتسلسلها الزمنى.

وكما قد نتوقع، يعثر بطريقة أو بأخرى على بعض التشوهات وعلى قدر كبير من الأمور التى اختلقتها. فمن المؤكد أنه كان هناك دكان بقال فى جرانتام، وهو مسقط رأس مناسب لزعيمة مقبلة لأمة من أصحاب الدكاكين. والواقع أن العبقرى ألفريد روبرتس الذى وجه حياتها كان له تأثيره المهم على ابنته الصغيرة. فقد قدمها - وهو عضو فى مجلس المدينة ثم عمدة - للسياسة والخدمة العامة، تماماً مثلما وفر لها محل المؤن الخاص به تعليماً مبكراً فى أسس التجارة الحرة. كما أنه هو وزوجته المخلصة، التى تبدو وكأنها مغلوبة على أمرها، منحاها حساً دينياً وأخلاقياً قوياً وإقناعاً بضرورة الاجتهاد الدائم. إلا أن أعظم هدية قدماها لها هى أنهما أعطياها رغبة عارمة فى الخروج وفى أن تصبح مختلفة عنهما.

ويقدم كامبل صورتين فوتوغرافيتين مبكرتين للشخصية التى يتناولها كتابه. فى الصورة الأولى مارجريت طفلة فى الرابعة، ذات وجه مستدير وممتلئ وتتسم باليقظة والانتباه وعلى قدر كبير من الشقاوة. أما الثانية فهى البورتريه الرسمى الشهير لألفريد فى ملابس العمودية ومعه بياتريس والبنتان كانت مارجريت فى الصورة الثانية لا تزال فى العشرين، إلا أن البريق كله كان قد اختفى والواقع أنهم جميعاً بدوا وكأنهم لم يضحكوا منذ سنين. ونجد فى عينى مارجريت، التى كانت تشخص ببصرها إلى ما وراء الصورة فزعاً وعزيمة. لم يدخل والداها الجامعة ولكنها سوف تذهب إلى أوكسفورد. كما أنها ستغادر المناطق الشرقية الرثة إلى لندن

Margaret Thatcher.Vol 1: The Grocer's Daughter

(مارجريت ثاتشر (الجزء الأول): ابنة البقال)

John Campbell

Cape. 2000. 512PP. £25.00

والجنوب السمين بلا عودة. وسوف تشترى أزياء ذات ألوان غير عملية وتزين نفسها بالقبعات واللؤلؤ. ولن ترتدى بعد ذلك الفساتين المفتقرة إلى الأناقة المصنوعة فى البيت التى تجعلها تبدو ممتلئة. وسوف تهجر فى الوقت المناسب عقيدة مذهب الأسرة النظامى وتصبح أنجليكانية، أو تصبح، كما قالتها هى بطريقة مميزة، «أعلى وأعلى». وسوف تحذف على الدوام أمها من الفقرة الخاصة بها فى موسوعة Who's Who، ونادراً ما ستعيد زيارة جرانثام، وقلما تسترجع فضائل ألفريد الفكتورية حتى وافته المنية فى أمان.

غير أنها - شأنها فى ذلك شأن سائر المتمردين - لم تخلص نفسها تخليصاً تاماً ولم تعد اختراع نفسها بالكامل. فقد وفرت لها أوكسفورد التميز والمعارف؛ ولكنها، بالرغم مما جاء فى مذكراتها، لم تغير ما كانت عليه. فقد انضمت للاتحاد المحافظ بالجامعة وكانت زعيمته فى نهاية الأمر. إلا أنها لم تشارك فى المسرحيات الطلابية أو الصحافة الطلابية، ولم تكن هناك زيادة كبيرة فى الاكتشاف الفكرى، ولم تكن هناك ارتباطات عاطفية، وبالتأكيد لم تكن هناك اكتشافات جنسية. وبدلاً من ذلك كله انضمت لجمعية جون ويزلى. ومن بين منجزات كامبل توثيق حس ثاتشر الدينى الدائم. إذ كانت وهى طفلة معتادة على أداء أربعة قداسات فى الكنيسة وما لا يقل عن موعظتين كل يوم أحد؛ فقد كانت وهى طالبة تقوم برحلات وعظ أسبوعية إلى قرى أوكسفورد شاير مع زملائها أتباع المذهب النظامى. وكان أثر ذلك كله على حياتها العملية فى المستقبل ضخماً. فقد تعلمت فن الحديث العام، وكذلك لغة كتاب الملك جيمس المقدس البسيطة الطيعة. وكدأب الكثيرين غيرها من الساسة البريطانيين عبر القرون، كانت تنهل من هذا المصدر بانتظام فى خطبها، حيث كانت تستعين بالآيات وتروى الحكايات التى تتضمن العظات والعبر، وكانت تبث فى كل ما تقوله ناراً وجدية تستعيرهما من على المنبر. وحتى بعد أن زاحمت السياسة الحماس الدينى، كانت تحتفظ بحس له قيمته من الانتماء إلى النخبة («واحد منا») ذات الوازع الأخلاقى.

وكان هناك حس تاريخى أعمق كان الدين فيه مهماً لما صارت عليه. إذ كان الدين على الدوام نقطة الانطلاق بالنسبة للنساء اللائى يرغبن فى اجتياز حواجز النوع. فمن قديسى العصور الوسطى، مروراً بالقرن الثامن عشر، وصولاً إلى فلورانس نايتنجيل، كان الاعتقاد بأن الرب هو الذى يأمرهن بالعمل قد سمح للنساء المحطمات للمؤسسات التقليدية بألا يلقين بالاً لمعارضة الذكور من البشر. وكذلك لم تلق ثاتشر بالاً للنقد الذكورى وربما كادت تستمتع به، لأنها كانت مسلحة تسليحاً مسبقاً بالاعتقاد بأنها تخدم هدفاً أسمى. ومن الوهلة الأولى يبدو أن هناك مفارقة فى خضوع مجتمع علمانى مثل بريطانيا لأول مرة لزعيمة دينية إلى حد كبير مثل ثاتشر، وبعد ذلك بوقت قصير لسياسى ليس متديناً بصورة أو بأخرى، وهو تونى بلير. ولكن الأمم المنهارة دائماً ما تكون لديها رغبة شديدة فى الإنقاذ وتعجز عن مقاومة إغراء أى فجر جديد. وفى هذا الصدد، نجد أن تدين ثاتشر خدمها خدمة كبيرة. وكشأن بلير، استطاعت ثاتشر إقناع الناخبين أنه - بالجهد - يمكن أن تصبح الأمور أفضل مما هى عليه؛ لأنها هى نفسها كانت تؤمن بذلك.

إلا أنها كانت لها كذلك مزاياها الدنيوية، كانت ثاتشر دختلفة تمام الاختلاف وأكثر لطفاً فى اتصالها بالرجال والنساء الذين لم يشكلوا لها أى تهديد. ولكى تكسب أصوات الناخبين أثناء تنافسها على المقعد العمالى المضمون فى دارتفورد سنة ١٩٥٠، لم تبد ثاتشر قدراً كبيراً من القوة والحيوية والتنظيم وحسب، بل أبدت كذلك طريقة واقعية فى التعامل مع الناس «العاديين». ذلك أنها كانت تتذكر اسم كل عضو من أعضاء الحزب وتفاصيل تتعلق بأسرته. فقد كانت تتمتع بقدرة مدهشة على استمالة أصوات الناخبين، حيث كانت تصنع «فراديس محبة صغيرة» يشعر فيها كل ناخب تتحدث إليه للحظة وكأنه الشخص الوحيد الذى يهمها. وبعد ذلك أثبتت كذلك قدرتها على الفوز والفاعلية بتعاملها مع الأقوياء الذين يحضرون المؤتمرات السنوية لحزب المحافظين، أو مع مثيرى المشاكل، أو مع جيوشها من السكرتارية المخلصين، أو مع صغار موظفى الدولة، أو مع الأعضاء الجدد فى البرلمان من المحافظين. وهؤلاء الذين كانوا يسخرون من ثاتشر باعتبارها ناظرة مدرسة شرسة، ومربية قاسية، بل وامرأة متسلطة، لم يدركوا سوى جانب واحد من جوانب شخصيتها وقوتها. فقد كانت لديها، أكثر من معظم السياسيين، القدرة على اجتذاب الحب والولاء الشديد من جانب أناس ربما لا يكونون على المستوى الفردى بهذا القدر من الأهمية، غير أنهم - مجتمعين - يحدثون فرقاً، وكانت تعرف كيف تحافظ عليهما.

ومع ذلك فقد كانت قدرتها على الترهيب هى الأخرى لها أهميتها. وفى هذا الأمر، كما فى غيره من الأمور، تحدت ثاتشر بنجاح الأحكام المسبقة التى كانت تأخذ شكل علم النفس الشعبى. وقبل أن تصل ثاتشر إلى ما وصلت إليه، كانوا كثيراً ما يؤكدون على أن المرأة لا يمكن أن تصبح سياسية مسيطرة لأنها تفتقر إلى «غريزة القاتل». إلا أن السبب فى ذلك، فيما قاله الراحل السير جيفرى إلتون عن الملكة إليزابيث الأولى، هو أن تلك المخلوقات كان يتم تدريبها منذ مولدها على الصفات «الذكورية». وفى المقابل كانت النساء «الحقيقيات» يملن «بصورة طبيعية» إلى التنازل والإجماع واحتلال المرتبة الثانية. بل كان هناك من يرى أن طبقة أصواتهن ذاتها لم تكن لتؤهلهن للفوز فى مباريات الصراخ فى مجلس العموم. وكان البعض يقول إن الشكل المستطيل الذى يتميز به هذا المجلس وسياسة المجابهة التى يعززها كان مؤذياً للجنس الناعم. وكان ذلك فى معظمه هراء، كما أثبتت ثاتشر. إلا أن الأمر يظل مخيفاً فيما يتصل بمجرد حجم قدرتها على التعبير عن ميلها للقتال والاستفادة من هذا الميل.

وكشأن معظم النساء، لم ترب ثاتشر التربية اللازمة لتوجيه غضبها والتعبير عنه، إلا أنها هربت بصورة أو بأخرى وبشكل واضح من ميل النساء إلى كتم الغضب فى صدورهن ورعايته إلى أن يصير اكتئاباً. وكما يرى كامبل هنا، فمن الممكن أن يكون القهر الذى تعرضت له فى شبابها قد شحنها بقدر كبير من الغضب، مما جعلها تعيش على ذلك الوقود الذى يمدها بالقوة طوال حياتها فيما بعد. ومن المؤكد أنه يبدو أن ما لقيته من معارضة وسخرية ونقد حتى نهاية حياتها العملية ما كان إلا ليزيدها عزماً ويجعلها تقاتل بقدر أكبر من الشراسة. وسواء أكان الأمر يتعلق بسيدات الجناح اليسارى من سومرفيل الساخرات من لكنتها ومن سياستها، أم بنبلاء حزب المحافظين الذين يعاملونها بازدراء، أم بالمفكرين الذين ينتقدونها نقداً لاذعاً، أم بالمعارضين من حزب العمال الذين يحاولون أن يبدوا أعلى مما هم عليه، أم بمنافسيها فى حزبها الذين يستشيطون غضباً، أم بالجنرال جالتييرى الذى يتهمها بأنها مصابة بهستيريا سن اليأس: لا يبدو أن أياً من هذا كله قد ترك أثراً فى جلدها السياسى.



تحدت ثاتشر بنجاح الأحكام المسبقة التى كانت تأخذ شكل علم النفس الشعبى. وقبل أن تصل إلى ما وصلت إليه، كانوا كثيراً ما يؤكدون على أن المرأة لا يمكن أن تصبح سياسية مسيطرة لأنها تفتقر إلى «غريزة القاتل»

ولأن ما أنجزته ثاتشر فى التغلب على المصاعب والوصول إلى غايتها المنشودة كان على قدر كبير من التميز، وكانت شخصيتها شديدة القوة، فإن هذا قد يغرى على مقاربة حياتها العملية من ناحية صفاتها الاستثنائية فى المقام الأول. إلا أن هذا لا علاقة له بالتاريخ وهو فى نهاية الأمر فيه تفرقة ضد المرأة. فهى، كأى من الساسة الناجحين، كانت محظوظة ومستفيدة إلى حد كبير من الأحداث والاتجاهات طويلة المدى التى لم تكن لها يد فيها. فلو كانت قد جاءت إلى الدنيا قبل عشرين سنة من الوقت الذى ولدت فيه لكان من الصعوبة بمكان لمن هى من جنسها أو خلفيتها الاجتماعية أن تتلقى تعليمها فى أوكسفورد وكمبردج، أو أن تحقق تلك البداية المبكرة فى السياسة البرلمانية. وكان ذلك مستحيلاً قبلها بأربعين سنة. ولو كانت من بين أطفال ما بعد الحرب العالمية الثانية، لكان هناك المزيد من النساء المحترفات اللائى ينافسنها، مما يقلل من قيمة ندرتها فى السياسة. وعندما دخلت البرلمان سنة ١٩٥٩ عن فنشلى، كانت واحدة من بين اثنتى عشرة عضوة برلمان محافظات، وكانت أكثر النساء جاذبية من الناحية الجسمانية فى المجلس - وهو ما كانت وسائل الإعلام وسائر الأعضاء يشيرون إليه دائماً. وما كان ذلك ليكفى فى حد ذاته، إلا أنه لم يكن يضيرها أنها تتمتع بكل من القدرة والجاذبية. وقد ساعدها مساعدة ضخمة كون الرجال أصحاب النفوذ فى الحزب قادرين على دعمها لعدم وجود الكثيرات من طرازها.

وقد منحها هؤلاء الرجال منصباً وزارياً سنة ١٩٦١ وضموها إلى حكومة الظل سنة ١٩٦٧، بل وجعلوها زعيمة للحزب، وهم يدركون أنها ليست سابقة تصطف خلفها مثيلات لها سوف يتبعنها، وأنها لم تكن داعية.

وما يبين مقدار أهمية كونها نادرة بالنسبة لنجاحها ولقبولها هو ما

كتاب الزاوية

الأمير

٢. فى القوات المأجورة، والمختلطة، والوطنية

لقد اصطلح على أن قوات أحد الجيران الأقوياء التى يطلب أمير مجيئها لنجدته والدفاع عنه قوات مساعدة، وهى عديمة الفائدة كالقوات المأجورة. لقد فعل ذلك فى الأزمنة الأخيرة يوليوس حين رأى فشل القوات المأجورة الذريع فى حملة فرارا، ولجأ إلى القوات المساعدة. قد تكون هذه القوات صالحة فى حد ذاتها، ولكنها دائمًا خطرة بالنسبة لأولئك الذين يستعيرونها. فالهزيمة لك إن هى انكسرت، وإن أنت انتصرت ظللت أسيرًا لها.

فليستخدم هذه القوات من لا يرغب فى الظفر. فهى أشد خطرًا من القوات المأجورة، وهى آلة الدمار الكامل؛ لأنها جميعًا متضافرة وتدين بالطاعة لغيرك، بينما تحتاج القوات المأجورة لكى تضرك، وفى حالة ظفرها، إلى وقت أطول، وفرصة مواتية. لأنها جميعًا لا تكون هيئة واحدة، وأنت الذى تستخدمهم وتدفع لهم الأجور؛ ولذلك فإن فئة عينتها قوادًا لا تستطيع أن تستولى فى الحال على سلطة تكفى لأن تتمكن من الإضرار بك. وقصارى القول: إن أشد أخطار القوات المأجورة فى جبنها وإحجامها عن القتال، ولكن خطر القوات المساعدة فى شجاعتها.

ولذلك يتحاشى الأمير العاقل دائمًا أن يستخدم هذه القوات، ويلجأ إلى قواته الوطنية، ويفضل أن ينكسر بها على أن يكسر بقوات غيره.

وعلى ذلك أختم حديثى بأن أقول: لا سلامة لأمير بدون قواته الوطنية، وبدونها يتوقف مصيره على الحظ تمامًا، مادام لا يملك وسيلة للدفاع يوثق بها حين تضطرب الأمور.



كانت أكثر النساء جاذبية من الناحية الجسمانية فى المجلس - وهو ما كانت وسائل الإعلام وسائر الأعضاء يشيرون إليه دائماً. وما كان ذلك ليكفى فى حد ذاته، إلا أنه لم يكن يضيرها أنها تتمتع بكل من القدرة والجاذبية. وقد ساعدها مساعدة ضخمة كون الرجال أصحاب النفوذ فى الحزب قادرين على دعمها لعدم وجود الكثيرات من طرازها

يتعرض له ذلك العدد الكبير الذى لم يسبق له مثيل من عضوات البرلمان العماليات من انتقاد شديد من الصحافة منذ عام ١٩٩٧ وعادة ما يعزى هذا النقد إلى ضآلة قدر هؤلاء النساء وخضوعهن لتونى بلير. ومع هذا فإن أحداً لم يبين أن شابات بلير أقل قدرة من شبابه أو أسلس قيادة منهم. والواقع أن حامية عضوات حزب العمال المتضخمة تتعرض لهجوم عنيف لأنها تنذر بنهاية النساء المميزات فى ويستمنستر وبحدوث تغير هيكلى كبير فى عضويته. إلا أن ثاتشر كانت مختلفة. فبسبب عصرها، وبسبب طرازها، لم تكن فى يوم من الأيام تهدد التركيبة النوعية للنظام القديم برمتها: وكان ذلك مهماً.

ومن الصعب تقدير الفرق الذى أحدثه كونها أنثى على نجاحها فى جوانب أخرى، وهو ما يعود فى جزء منه إلى أنها هى نفسها كانت دائماً متحفظة إلى حد كبير فيما يتصل بهذا الأمر. وإذا كان علينا أن نصدق الوزيرات السابقات فيما يقلنه فى مذكراتهن وأثناء شربهن، فقد كانت فى قمة نفوذها تستغل جنسها بلا رحمة، حيث كانت تستفيد من ديناميكيات الحريم فى الوقت الذى كانت تقضى فيه عليها. فهى قد تعدل ربطة عنق وزير متوسل وتربت على كتفه وتزر معطفه (لاأن تفك أزراره). وقد تكون شفتاها شديدتى الحمرة وعيناها صافيتين، وقد تتحرك طوال الوقت كى تعرض ساقين جميلتين على الدوام فى زوج من الأحذية ذات الكعب العالى. كانت تتصرف فى شبابها - إن صحت هذه الرواية - وكأنها محظية سلطان تعرض فتنتها أمام من لا يمكنهم اختبارها، وبذلك تحيلهم فى واقع الأمر إلى خصيان. غير أنها لم تكن محظية السلطان، بل كانت السلطان نفسه. فإن كثرت أخطاء الوزير أو عضو البرلمان المحافظ لم ترحمه وقضت عليه على الفور.

أما مدى نقل مثل هذه الروايات للنكهة الحقيقية لديوان مجلس وزراء ثاتشر، وليس خيالات بعض زملائها من الرجال ومخاوفهم، فشىء آخر. فإن مارجريت ثاتشر والجنس، باعتباره مختلفاً عن مارجريت ثاتشر وعلاقتها الظاهرية بدنيس زوجها، منطقة لا نعرف عنها غير القليل جداً، ومن المؤكد أن هناك أدلة ضئيلة على الانغماس فى مثل تلك الأهواء فى تحليل كامبل للمراحل الأخيرة من رحلتها إلى رقم عشرة. فكأى شخص شديد الطموح - وعلى الأخص أية امرأة شديدة الطموح - كانت تلعب بحذر شديد عندما كان لا يزال هناك الكثير الذى يجب أن تظفر به. فقد كانت تؤدى واجبها فى مكتبة مجلس العموم بدقة تامة أعجزت معظم منافسيها. وكانت تدخر جرأتها المخيفة لخصومها العماليين. وكانت تستميل ساسة المحافظين من كبار السن وكذلك قاعدتها الانتخابية. وأهم شىء أنها عندما كانت وزيرة للتربية والتعليم فى حكومة إدوارد هيث التزمت بسياسة الحزب. فقد شجعت المدارس الشاملة، وأنفقت مبالغ كبيرة من المال العام، وقاتلت بضراوة من أجل الجامعة المفتوحة، وكانت تميل إلى أوروبا، وإن كان على الطريقة الديجولية. ففى إحدى المناسبات أشارت إلى أنه لو اتحدت قوى أوروبا فإنها يمكن أن «تشكل كتلة لها من القوة ما للولايات المتحدة أو روسيا».

وحتى بعد أن قاتلت هيث على زعامة الحزب وفازت عليه، كانت على استعداد للتحدى. وكما يوضح كامبل بطريقة مثيرة للإعجاب، فإن معظم من صوتوا لصالحها سنة ١٩٧٩، وكثيرين من مجموعتها البرلمانية، ربما لم يكن لديهم أدنى علم بما ستكافح من أجله فى نهاية الأمر. وسيكون جذاباً أن نرى فى مجلده الثانى مدى قدرته على الارتفاع فوق كتلة الحكم وتفاصيل السياسات والحفاظ على أصالة التحليل التى يبديها هنا. وسيكون شيقاً كذلك أن نكتشف مدى قدرته على الوصول إلى غرضه بعد دخولها فى عباءة رئيسة الوزراء. ويتساءل المرء عن مدى إدراك ثاتشر للتناقضات المتأصلة فى طموحاتها وأفكارها؟ هل كانت تعلم أن آراءها المتطرفة بشأن السوق الحرة لن تتفق بالضرورة مع نزعتها الوطنية الشديدة أو مع تقديس المحافظين للأسرة؟ هل كانت تدرى أنه سيستحيل (وهو ما سيكتشفه بلير كذلك) المضى بقوة فى التغيير الجذرى فى بريطانيا، فى الوقت ذاته الذى يتم فيه مدافعة سلطة الدولة المركزية فيها؟ وتحت ذلك التظاهر بالشجاعة، إلى أى حد كانت واعية بالتنازلات المزرية والهراء المطلوب حتماً من الساسة الرجال والنساء فى زمان الانهيار ومكانه، وكيف تعاملت معها؟

كانت الساعة الرابعة مساء يوم ٤ مايو سنة ١٩٧٩ عندما دخلت ابنة البقال المبنى رقم عشرة رئيسة للوزراء. وكان ذلك من ناحية مجرد بداية. إلا أنه كان من ناحية أخرى أوضح منجزاتها الكامنة فى ماضيها وأقلها تناقضاً. ■



أزمـــة الموســـيقى الجـــادة

إبــداع أم تـــذوق؟!

حـــسام الدين زكـريا

مفـرداتنـا الموســيقية العربيــة لا يحكمها نظام علمى مستقر، ولذا فالموسيقى العربية نفـسـها مهـددة بضيـاع الأصـول، الأمـر الذى يفـتـح الأبــواب أمـــام مقامات الغيــر (سلالم الموسـيقى الغـــربية، ومـوســيقى أمـريكا اللاتينيـــة)

تتـفق جـمـيـع المصـادر التى تداولت تاريخ الموسيقى العـالمية على أن ظهـور طوائف التـروبادور Troubadour فى شمـال إيطاليا، والتروفير Trouvere فى شمال فرنسا، والمينيزينجر Minnisinger فى ألمانيا، بدءا من القرن الحادى عشر، قد شكل أهم روافد الموسيقى غير الكنسية Secular فى تطورها نحو تعدد الأصوات Polyphony والهارمونية Harmony، لتحقق بعد أربعة قرون ذلك الإنجاز النغمى المعمارى Architectonic الهائل لموسيقى الحضارة الغربية.. أما الأمر المثير للدهشة والأسى معا فهو اتفاق معظم تلك الكتابات على التعتيم على المصادر التى استقت منها تلك الطوائف فنونها فى السرد والعزف والغناء. ومن المعروف أن التروبادور والتروفير قد ضموا إلى صفوفهم كثيرًا من النبلاء الفرسان فى الحملات الصليبية على الشرق (جمعت الحملة الصليبية فى عام ١١٤٧ بين فئات من الحجاج ينتمون إلى شمال فرنسا وجنوبها، وكذلك الزيجات الملكية، والتى نقلت معها فنون التروبادور إلى إنجلترا)، ومما لا شك فيه أنهم نهلوا من الشرق تلك المراثى، والأوراد Litanies والسيريناتات Serenatas (Sera بمعنى ليل و Sereno بمعنى الهواء الطلق، ولننظر إلى كلمة عربية مثل سرى أى مشى ليلاً، ولن ننسى بيت الشعر الشهير لبشار: وسارية لا تمل البكا.. جرى دمعها فى خدود الثرى)، وفكرة البكاء على أطلال الحبيبة.. إلخ، ولم يشر أى مؤلف غربى منصف لذلك. والملاحظ أن ما تبقى للغرب من موسيقى الشعراء الجوالين بما فيهم الجوليار Goliards (والذين يطلق عليهم رائدنا حسين فوزى اسم الـ «المغزلكون»، و«الادباتية») كان شحيحًا للغاية، وأغلب الظن أنهم لم يتجشموا عناء تدوين موسيقاهم، ومن الجائز أنهم لم يعرفوا وسيلة التدوين أصلا، رغم أنه من الثابت أن زرياب كان قد وضع الأساس العلمى للتدوين الجدولى Tablature فى المعهد الموسيقى الذى أداره بنفسه فى قرطبة فى القرن التاسع الميلادى، وكان صيته يجوب الآفاق، وقيل أن أحد الباباوات سافر إليه متنكرًا ودرس هناك، ولما عاد إلى فرنسا عرض المهارات التى اكتسبها (فى قواعد الغناء من تجويف الصدر، وفى قواعد عزف اللوت) أمام أقرانه، فعد علمه من الخوارق!

وهكذا تعود إلينا بضاعتنا، ولكنها لا تكتفى تلك المرة بأن ترتدى ثوبًا قشيبًا من صنع غيرنا فقط، بل تتخذ لها سكنًا منيعًا يضم عمارة مهولة وأبنية شامخة، فما هى إلا قرون أربعة إلا وكانت السيمفونيات والكونشرتوهات والكانتاتات Cantatas

أمامنا الآن مهمة ليست باليسيرة،
وهى رفع مستوى تذوق الموسيقى الجادة،
ونعنى بها تلك الموسيقى التى تتبع قوالب متعارفًا عليها
ولها بنية توافقية، ومنطق تتطور
من خلاله المادة اللحنية

تنهال علينا من أرجاء أوروبا وكأنها الغموض وقد صار علما!

وإذا كان القرن الخامس عشر هو بداية عصور الانحسار للشرق العربي - وقد كان بالفعل تراجعًا مفجعًا في كل مظاهر الحياة الفنية والثقافية - فإنه كان في نفس الوقت إشراقة عصر النهضة الأوروبية، على أن ذلك لا يطمس حقيقة باقية، وهى أن النظرية الموسيقية العربية قد قامت على أكتاف الأربعة الكبار منذ القرن التاسع، وهم الكندى والفارابى وابن سينا ومسك ختامهم صفى الدين الأرموى، في القرن الثالث عشر، وفى وقت كانت أوروبا فيه دون كيان موسيقى واضح، ولسنا هنا بصدد البحث فى أسباب التراجع والبكاء على ماض لن يعود، أو إلقاء التهم على الهيمنة العثمانية (وغيرها). إلا أن الأمر يتطلب أكثر من وقفة شجاعة نواجه فيها الحقائق، بعد أن استسلمنا للنوم فى حظائر النسيان. أليس من المخجل أن نعقد أول مؤتمر موسيقى علمى يبحث فى شؤون موسيقانا بالقاهرة عام ١٩٣٢، بعد أن شرح الفارابى المتوفى عام ٩٥٠ (المعلم الثانى بعد أرسطو) فى كتابه المهول «كتاب الموسيقى الكبير» الأبعاد الموسيقية الطنينية وغير الطنينية، ووضع أصول الهارمونية الحديثة قبل جان فيليب رامو J.P Rameau (١٦٨٣-١٧٦٤) بستة قرون، ورسخ قواعد صناعة الآلات الموسيقية قبل فيرديناند هيلمهولتس Ferdinand Helmtholtz (١٨٢١-١٨٩٤) بتسعة قرون، وترجمت مؤلفاته إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر. فالحقيقة المرة أن عدد المقامات العربية - العمود الفقرى لأى موسيقى، بل الكيان الموسيقى ذاته - غير معروف حتى الآن على وجه التحديد، ناهيك عن تعدد الأسماء للمقام الواحد، واختلاف التعريف من باحث لآخر، وتعدد أساليب تدوين المقامات، والتناقض الصارخ فى تحليل المقام ذاته مع تفتت الكيان النظرى إلى أحكام علمية مبعثرة لا تربطها قواعد راسخة شأن العلوم الثابتة.

إذن فمفرداتنا الموسيقية العربية لا يحكمها نظام علمى مستقر، ولذا فالموسيقى العربية نفسها مهددة بضياع الأصول، الأمر الذى يفتح الأبواب أمام مقامات الغير (سلالم الموسيقى الغربية، وموسيقى أمريكا اللاتينية) للدخول وملء الفراغات. ولم لا نعلنها بصراحة ونقول إن المقامات والسلالم الأوروبية قد أصبحت تزاحم مقاماتنا العربية، وفى كل قطر عربى على حدة، من خلال الآلات الأوروبية الوافدة كالبيانو، والأورج والجيتار والفلوت، وهى بذلك تفرض لغاتها الموسيقية الدخيلة، كما تفرض قدرًا من التنازل عن لغتنا الفنية المحلية والموسيقى العربية. والموسيقى العربى الآن وهو يستبدل آلاته العربية، بالآلات الوافدة، زاعمًا أنه يطور موسيقانا، ويلبسها ثوبًا حديثًا، لا يدرك أى تضحية يقدمها بحسن نية، وكيف أنه يسعى لأن نحيا ازدواجية مقامية أوروبية / عربية. والحق أن المقامات العربية كانت ثابتة عدديًا ومنتظمة ومترابطة فى منظومة العلامة صفى الدين الأرموى إبان عصور ازدهارنا موسيقيا. وكم كانت موسيقانا فى أمس الحاجة لجمع وتصنيف مقاماتها الجديدة، خاصة بعد دخول المقامات التركية فى القرن السادس عشر، وما واكبها من مقامات ألبانية، وجركسية وكردية وبلقانية. إلا أنها قد عانت من فترات طويلة من التشتت والاندثار طوال حكم المماليك والعثمانيين. هل بوسع أحد أن يتصور ما معنى ألا تملك أمة من الأمم المعاصرة تجميعًا وتصنيفًا موثقًا لأنغامها؟! وكيف يمضى الملحنون والمشتغلون بتلك الموسيقى فى اختيار المقامات والسلالم تبعًا للوحى وما تقع عليه أيديهم عفو الخاطر. ولعل هذا يناظر ما تعانيه لغتنا العربية أيضًا، فهناك كلمات تدخل وتخرج من معجمنا، وأخرى تتلاشى دون رصد أو إدراك منا.

إنها لبوادر كارثة حقًا، إذ ما هى الأمة سوى تراثها الفنى ولغتها وأساطيرها وملاحمها القومية!

الآن تتشعب القضية الرئيسية إلى عديد من القضايا وتتوه هى الأخرى فى خضم واقعنا اليومى المكدس بالضوضاء والسطحية فى تناول الأمور، وهكذا بينما نجدهم فى الغرب يبحثون عن علاقة الموسيقى بنظرية المعلومات، ويعمدون فى إطارها مفهوم الحدث الموسيقى Musical Event (النغمة - صف نغمى - ميلوديا مكتملة) حيث تحوله سلسلة الأحداث إلى نوع من الاحتمالية المؤسلبة Stylistic Probability، والسياق المؤسلب Stylistic Context، فإذا بنا غارقون فى خضم جدل مستعر حول خصائص ومواصفات الأغنية الشبابية! أما من ناقد أو مؤرخ موسيقى ينادى بأن ذلك التكالب على الأغنية الفردية كان مجرد مرحلة عفى عليها الزمن منذ العصور الوسطى فى العالم المتقدم، ولعل الفقرة التالية توضح لنا كيف كان الواقع الموسيقى لأوروبا عندما كانت تمر بمرحلة الأغنية الفردية، وقبل أن تدرك معنى التراكيب الصوتية المتآلفة والمتعارضة فى آن، ويا ليت تلك الأغنية المزعومة تعنى شيئًا لنا الآن سواء نصًا أو لحنًا، ولنتأمل تلك الفقرة: «عندما كان الحواة Jugglers والأدباتية Minstrels، وأغلبهم من الشعراء والمغنين وعازفى الآلات فى مصاحبة الرقص، خليطًا غريبًا، فكان بعضهم ينحدر من بقايا الصعاليك المتخلفين من أنقاض الإمبراطورية الرومانية المنحلة، وبعضهم من الكهان الكلتيين، وانضم إليهم الرهبان الآبقون، وغيرهم من الحرافيش من حثالات المجتمع، ولم يكن هناك حد فاصل بين الموسيقى واللاعب الماهر، الذى كان يسلى النبلاء والعامة بكراته وسكاكينه ورقصه ومشيه على الحبل، وكان الحواة لازمة من لوازم الحياة، ويقابلون بالترحاب كعناصر تسلية. كان أستاذنا الراحل حسين فوزى يطلق على هؤلاء جميعًا طائفة «الخردة».

ألم يدرك أحد منا حتى الآن منذ ظهر مؤسس المدرسة الموسيقية الحديثة فى مصر وهو عبده الحامولى (١٨٤٥-١٩٠١)، والذى قاد النهضة الجديدة لتمصير موسيقانا، ومنذ أن تبلورت الموسيقى المصرية الخالصة على أيدى الجهابذة الملحنين الرواد بدءًا من سيد درويش، ومرورًا بعبد الوهاب والقصبجى وأبو العلا محمد وزكريا أحمد والسنباطى وأحمد صدقى ومحمود الشريف والموجى والطويل.. إلخ، لم يخرج اهتمامهم أيضًا عن الأغنية الفردية، وهى فى معظمها لم تكن سوى كيان أحادى اللحن فى عصور ازدهارها مع أصوات أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش وعبد الحليم وفايزة أحمد وغيرهم، ويجب ألا نخدع أنفسنا ونصادق على القول بأنه كانت هناك بوليفونية أو كونترابونط أو بنية هارمونية مترابطة Chord Structure، ومسرح غنائى، فى محاولة للخروج بموسيقانا نحو آفاق تعبيرية أرحب وأوسع نطاقًا، فكل ذلك كان محاولات فردية لا تمثل اتجاهًا ومسيرة نحو هدف تطويرى ما، بل إن ما يجعلنا نزداد يقينًا بأن تلك الأغنية الفردية ستدور بنا فى حلقة مفرغة، هو ما حدث من انحسار فى المادة اللحنية ذاتها بعد وفاة كبار المغنين للعصر الذهبى للأغنية: أم كلثوم وعبد الحليم ومحمد عبد الوهاب، وكأن موسيقانا العربية بكل رصيدها التاريخى، ومقاماتها قد كتب عليها أن تظل تدور فى فلك الأغنية، تهيب بالكلمات أن تأخذ بيدها، فهل لدينا عائق يمنعنا من القفز داخل نطاق الموسيقى البحتة Absolute Music؟!

أمامنا الآن مهمة ليست باليسيرة، وهى رفع مستوى تذوق الموسيقى الجادة، ونعنى بها تلك الموسيقى التى تتبع قوالب متعارفًا عليها ولها بنية توافقية، ومنطق تتطور من خلاله المادة اللحنية، وسيتطلب ذلك بالطبع، دعم قدرة المتذوق للتعرف على الألحان ككائنات حية تخوض صراعها داخل العمل الموسيقى، ليجدها تارة وقد فاضت بالحيوية، مندفعة فى جسارة، وتارة تتقوقع مهزومة، وتارة تأتينا وقد تخفت فى أردان مختلفة لا يدركها إلا بشق الأنفس، وتتفلت أحيانًا إلى شذرات مولدة منها، لتعاود الظهور فى أبهى حلة، وربما يكون ذلك فى وضع معكوس Retrograde أو بالتواء Crabwise كل ذلك وهى تعقد الصلات الهارمونية والكونترابونطية، بحيث يتشابك النسيج ويتعقد مع تفاعل الأحداث، وتلك هى الموسيقى. وإنها لمهمة ليست بالسهلة، فهى مسؤولية المبدعين والمتذوقين على حد سواء، فلا بد أن يواكب برامج التذوق تلك مشروع لإعادة النظر من جديد فى موسيقانا القومية، وتجربتنا الموسيقية برمتها مع الموسيقى العالمية، فالملاحظ أن التطور الذى حدث فى موسيقانا على المستوى الأكاديمى، وقد قامت تجربته على محاكاة قوالب الغرب وإبداع موسيقى سيمفونية تستلهم تراثنا الشعبى، لم يؤت ثماره حتى الآن وظل غذاء للمتخصصين لا تعرفه إلا قلة من الهواة الجادين، وذلك منذ إنشاء أكاديمية الفنون فى أواخر الخمسينيات، وتخريج دفعات من المبدعين الموسيقيين، ورغم ظهور مؤلفات الرعيل الأول من المؤلفين الموسيقيين القوميين: أبو بكر خيرت وحسن رشيد ويوسف جرجس، ومن بعدهم الجيل الثانى وأهم أسمائه: جمال عبد الرحيم وعزيز الشوان، ومن تلاهم من تلاميذ جمال عبد الرحيم وأهمهم راجح داود وزملاؤه، إلا أن تلك المؤلفات لم تتقلد بعد مكانًا يليق بها، سواء على خريطة الموسيقى العالمية، أو على مستوى قاعدة متذوقى الموسيقى الجادة فى بلدنا، وقد يدعونا ذلك إلى إعادة التفكير فى قوالبنا العربية من جديد على نحو مغاير، ما دامت تجربة محاكاة القوالب الغربية والعالمية لا تزال غريبة علينا، ولم تجد السيمفونية المصرية لها حتى الآن مكانًا يليق بها فى قاعات الكونسير حول العالم، بحيث يسمعها العالم من حولنا، فيدرك من فوره أنها موسيقى عالمية متطورة، ومصرية الروح قلبًا وقالبًا. ويبدو أن أقرب الحلول المتاحة أمامنا، هو قيام حركة نقدية تدفع معها بعجلة التذوق للموسيقى الجادة قدمًا، فالإبداع والتنظير والنقد شأن المتخصصين، أما التذوق الموسيقى فهو مسؤولية كل أصحاب الضمائر من مثقفى مصر وكتابها، والمؤمنين بأن خلق المتذوق الجيد هو السبيل الوحيد لظهور المبدع الحقيقى، وأزعم أنه لو كان لدينا تذوق حقيقى للموسيقى فى مصر وكتلة حرجة لا يستهان بها من المتذوقين الجادين لاختفى ثلاثة أرباع من يطلقون على أنفسهم اسم المبدعين، وخاصة أن موسيقانا وعلى مدار تاريخها القريب لم تعرف ناقدًا أو مفكرًا موسيقيًا على نفس مستوى نقاد الأدب من أمثال لويس عوض ومحمد مندور، إننا نعرف الكثير عن أدب توفيق الحكيم وطه حسين ونجيب محفوظ وكذلك فن سيف وأدهم

قد يظن المرء أنهم فى الغرب يتذوقون الموسيقى العالمية وكأنها الغذاء اليومى المعتاد لكل فئات الشعب، والواقع يقول غير ذلك، فهناك شواهد كثيرة تشير إلى أن الموسيقى السيمفونية وموسيقى الحجرة، ما زالت دون قطاع كبير من الشعوب فى دول الغرب

وانلى ومحمود سعيد ونتفهم لوحاتهم، إلا أن ذلك لا يواكبه تذوق حقيقى لموسيقى سيد درويش والدور الهائل الذى لعبه فى تجديد الشكل الموسيقى عندنا على سبيل المثال، ومرد ذلك لغياب الحركة النقدية الموسيقية عندنا تمامًا، وقد تجاسر الكاتب فى إحدى الأمسيات بإبداء رأى غير مطروق عن سيد درويش خلاصته أن الجانب الرومانتيكى فيه لم يتعرض له أحد حتى الآن، فأبدت سيدة من الأكاديميات دهشتها بأنها لا تعرف هذا الجانب على الإطلاق فى موسيقى سيد درويش، وهو رومانتيكى من أخمص قدميه حتى قمة رأسه - هذا لو أدركنا أن القومية اللاواعية Unconscious Nationalism إحدى سمات الرومانتيكية، وسيد درويش كان نتاجًا مباشرًا لها!

وعلى ما يبدو فهناك أزمة عالمية فى النقد الموسيقى على مستوى العالم، وقد يظن المرء أنهم فى الغرب يتذوقون الموسيقى العالمية وكأنها الغذاء اليومى المعتاد لكل فئات الشعب، والواقع يقول غير ذلك، فهناك شواهد كثيرة تشير إلى أن الموسيقى السيمفونية وموسيقى الحجرة، ما زالت دون قطاع كبير من الشعوب فى دول الغرب، والتاريخ يروى لنا كيف واجه موسيقيون عالميون عظماء سوء فهم كبيرًا بين أبناء جلدتهم، ولم تذع شهرتهم فى أوطانهم إلا بعد أن هللت لهم الدوائر النقدية خارج أراضيهم، وأقرب الأمثلة لنا: ديميترى شوستاكوفيتش Dimitry Shostakovich (١٩٠٦-١٩٨٧) وإيجور سترافنسكى Igor Stravinky (١٨٨٢-١٩٧١) وتشارلز إيفز Charles Ives (١٨٧٤-١٩٥٤) وأرنولد شونبرج Arnold Shoneberg (١٨٧٤-١٩٥٤)، بل إن باخ الكبير J.S.Bash (١٦٨٥-١٧٥٠)، عملاق الموسيقى العالمية فى كل عصورها، والذى أطلق عليه بيتهوفن لقب المحيط، لم تعرفه الجماهير العريضة إلا بعد وفاته بحوالى مائة عام!، إلا أنه ما من شك فى أن التربية الجمالية والاهتمام بتذوق الفنون فى مراحل التعليم الباكرة كان له أثره الفعال (ومازال) فى توسيع قاعدة محبى الموسيقى الجادة فى الغرب على نحو أقوى بكثير مما هو حادث لدينا، ولابد لنا من الاعتراف بذلك النقص الواضح بين ظهرانينا.. مهمة أخرى عسيرة للقائمين على التربية والتعليم مع التكدس الهائل فى الفصول، وغياب التربية الجمالية فى زحام الأولويات الدراسية الراهنة!

وترجع أزمة تذوق الموسيقى الجادة فى العالم أجمع، وهو ما ينصرف إلينا فى مصر أيضًا، لعاملين أساسيين لعبا دورًا حاسمًا (ومازالا يلعبان) فى أن تظل القاعدة العريضة للمتذوقين بمنأى عن أكثر المتع التى تتيحها الموسيقى قيمة، أولهما: هو قيام رجال الأدب بالتصدى لشرح وتحليل الأعمال الموسيقية، وهى تفسيرات ربما تكون قد نجحت فى البداية فى لفت أنظار البعض نحو ذلك العالم الفريد، إلا أنها على المدى الطويل تكون سببًا رئيسيًا فى تضليلهم عندما يظلون أسرى الحكاية المرتبطة بالسياق الموسيقى، وهو ما أطلق عليه الناقد الأمريكى المعاصر دافيد راندولف «أسطورة السرد القصصى فى الموسيقى The Myth of Storytelling in Music»، وثانى هذين العاملين هو الإفراط فى الشروح الفنية التفصيلية، وغالبًا ما يكون ذلك ضمن نصوص كتيبات البرامج لمرتادى الكونسير، وهو ما يبعد الكثيرين عما يمكن تسميته بالتذوق الصحى Healthy Appreciation، وعلى الصفحات التالية سنعرض للكيفية التى نتحرر بها من هذين المفهومين.



لقد حاول رجال الأدب دومًا أن يفسروا ما غمض من الموسيقى لنا، وهو ما صنع مشكلة جديدة منذ الحركة الرومانتيكية فى القرن التاسع عشر، خاصة لمحب الموسيقى العالمية وهو يتحسس طريقه وسط عالمها المملوء بالاصطلاحات والألفاظ المبهمة، والتى يتشدق بها مذيعو الراديو وهم يقدمون برامجها. ولتضع نفسك مكان مستمع برئ يخطو خطواته الأولى فى ذلك الطريق الحافل بالأحاجى الصوتية، عندما ينصت إلى مذيع (أو مذيعة) برنامجنا الثقافى من القاهرة، وهو يقول بكل ثقة: «نستمع الآن من أعمال فولفجانج اماديوس موتسارت إلى السيمفونية رقم ٣٦ من مقام دو كبير تصنيف كوخل Kuchel رقم ٤٢٥، والمعروفة باسم لينتس Linz، عزف الأوركسترا الفلانى وقيادة فلان..!»، إذ كيف يواجه كل هذا السيل من الألفاظ الغريبة على أذنه كمبتدئ، ويبدو أن ذلك قد أصبح اتفاقًا عالميًا، فقد درجت جميع محطات إذاعة العواصم الكبرى على تقديم السيمفونيات، والكونشرتوهات.. إلخ بهذه الطريقة، بل إن الحال فى مصر أخف وطأة، فهناك فى الغرب لابد من شرح مفسر للطابع العام لكل حركة ونشاطها من حيث السرعة والبطء، ولتتخيل نفس المذيع وهو يقول: الحركة الأولى الليجرو كون بريو Allegro con brio (نشط فى حرارة)، والحركة الثانية أندانتى كانتابيلى Andante cantabile (متهادية بروح غنائية) وكأنه يقول للمبتدئين: «دونكم هذا العالم السحرى!»، وناهيك عن الاصطلاحات الفنية التى تحفل بها أغلفة الأسطوانات وكتيبات برامج الكونسير، إلا أن محاولات الأدباء جاءت بنتائج عكسية، وربما تسببت بحسن نية فى أن يضل الكثيرون ممن يعشقون الموسيقى طريقهم، وهم يتتبعون تلك التفسيرات الأدبية، ويحاولون عبثًا ربط الموسيقى بقصة أو أحداث بعينها، وبذلك يحرمون أنفسهم من متع تذوقها كموسيقى خالصة، ويرى «راندولف» أن رجال الأدب قد زادوا الموسيقى غموضًا بمحاولاتهم تلك، ويفجر رأيا جريئًا مفاده أن فهم واستيعاب الموسيقى العالمية فى متناول كل من لديه القدرة على مجرد الاستماع إليها، ويشتط فى رأيه مناديًا بأن المتذوق العادى الذى لا يملك أية معرفة بالموسيقى Lay man، هو أقدر الناس وصولاً إليها والاستمتاع بها، شريطة أن تكون لديه رغبة أكيدة لتذوقها.

التفسيرات الأدبية للموسيقى:

ترى لماذا شكل المشتغلون بالأدب اتجاهاتنا الأساسية لتذوق الموسيقى.. ذلك الفن الرفيع الذى سيظل دائمًا وأبدًا متلفعًا بغموضه وهو يهيم فى الزمان مثيرًا معه آلاف المشاعر، دون أن يتوقف لحظة ليزيح الستار عن أى تفاصيل تروى عطشنا لمعرفة أسراره، وصدق من قال هى الغموض وقد تحول إلى علم وفن!

ربما كان المصور Painter أقدر على استشفاف طبيعة الموسيقى الحقة من الأديب المتمرس، فهو كالمؤلف الموسيقى تمامًا، يخلق مادته من وسط غير لفظى Non Verbal إلا أننا قد تعودنا ونحن بصدد تجربة تذوق موسيقى أن نهيب بالكلمات كى تساعدنا على استيعاب كل تلك الأنغام الهادرة، تارة على شكل موجات متلاطمة، وتارة أخرى وكأنها نسمات رقيقة تصافح وجوه النازلين إلى الصباح بلا سلاح (ويبدو أنه لا مفر من أن يدس الأدب أنفه).

كم مرة تعرضت محاولات الأدباء، وهم يدلون بدلوهم ويفسرون الموسيقى، للتمحيص؟

إليك فقرة بقلم الكاتب الفرنسى الشهير رومان رولان Romain Rolan (١٨٦٦-١٩٤٤) يصف فيها انطباعاته عن سيمفونية بيتهوفن التاسعة، والتى عمدها أهل الأدب باسم الكورالية Choral، وماهى بكورالية!

«عندما نمت بذور ذلك العمل العظيم الجديد تمامًا فى وجدان بيتهوفن، أراد أن يلخص مأساة الإنسان ويضعها أمامنا بكل أهوالها، نراه يبشر ببعث الروح إلى فرح سرمدى، فرح لا يعرف الحدود، وبسبيل ذلك يهبط إلى أعماق الدياجير بعد أن حلق إلى أعلى عليين فى القداس الحافل Missa Solemnis، مستحضرًا أطياف الماضى، ثم يسمو بنفسه وقد أفلت من قبضة قدره العالى، متذكرًا صراعه اليائس طوال حياته، حينما كانت إرادته تناضل من أجل الفرح الخالص على الأرض، وهو إذ يدرك ذلك الفرح نراه وقد أدار ظهره إلى الدنيا، ويمم بوجهه شطر السماء حيث الملكوت، وجوهر الألوهية الحقيقى، وفى غمار فرحته بتلك الرؤية، يرفع بيتهوفن يديه بالترتيلة المهيبة، ويبتهل فيها إلى القادر سبحانه وتعالى أن يهزم مخاوف الإنسان وأحزانه على الأرض، وإنها لفرحة تقود الإنسان إلى أن ينضم للأبرار، وهو يلج أعتاب الفردوس Elysium».

والآن ورغم أن ذلك التعليق قد وجه اهتمام آلاف المتذوقين فى جميع أنحاء العالم نحو ما فى سيمفونية بيتهوفن من جمال خالص، إلا أننا قد نطرح سؤالاً مخلصًا: هل استطاع الكاتب أن يمد لنا يد المساعدة لفهم أو تذوق العمل الموسيقى الذى نحن بصدده؟! إن سيمفونية بيتهوفن لا تنطوى فى الواقع على أى شىء يمكننا أن نبرهن به على صدق تلك الفقرة، وإذا ما قيل أن مثل تلك الشروح لم يقصد بها إلا وصف رجع انفعالى Emotional Reaction لمستمع واع، فلا بد من ملاحظة أن الشرح لم يحتو على وصف لسيمفونية بيتهوفن التاسعة بعينها، فبإحداث تغيرات طفيفة فى كلمات النص الأدبى، يمكننا وصف أى عمل سيمفونى جاد آخر، وليكن السيمفونية الأولى لبراهمز Brahms (١٨٩٦-١٩٣٣)، أو السابعة لبروكنر Bruckner (١٨٢٤-١٨٩٦) على سبيل المثال لا الحصر!

وإذا ما كانت الصور الأدبية المغرقة فى الخيال، والتى تذوقنا الموسيقى من خلالها لأجيال عدة تلقى ضوءًا على المؤلفات الموسيقية فإنما هو ضوء يعشو بريقه الأبصار، فتذوقنا للموسيقى يعتمد على درجة فهمنا لما تستطيع توصيله، ويختلف ذلك حسب خلفيتنا الثقافية، وحالتنا المزاجية Mood، كما أن انفعالنا بعازف الموسيقى (أو مجموعة المؤدين) لدى سماعها يعد عاملاً مهمًا أيضًا، ورغم وجود تماثل بين انفعالاتنا بالموسيقى وصيغ الفن الأخرى كالتصوير والنحت والأدب، إلا أن لكل منها صفاتها الذاتية، والمسرح والسينما قد يستطيعان تصوير لحظة معينة فى حياة شخص ما بكل ما فيها من تفاصيل، بينما لا تستطيع الموسيقى بأى حال تصوير تلك اللحظة، كما أن أى مصور متوسط الموهبة يمكنه إقناعنا بمنظر ريفى رائع وقد اجتاحته عاصفة شديدة، على نحو أقوى بكثير من ذلك المشهد المزعوم فى سيمفونية بيتهوفن السادسة الرعوية Pastoral، وخطأ شائع أن نطالب الموسيقى التى لا وجود لها إلا على هيئة أصوات فقط أن تمنحنا المتع البصرية، أو التفسيرات الأدبية أيضًا، وإذا ما عدنا لموضوع الرجع الانفعالى عند الاستماع إلى الموسيقى، فسنجد - إذا ما تأملناه مليا - انبهاره عن نتاج لعوامل عدة أهمها العوامل العرقية Ethno-

الموسيقى الغربية لا تعنى شيئًا البتة لرجل من شرق الهند أو صعيد مصر، تمامًا كما تبدو الموسيقى الشرقية لرجل الغرب، والذين يدعون فى الغرب أنهم يتذوقون الموسيقى الشرقية إنما يتجاوبون فى الواقع مع خصائصها الغربية

graphic، فربما تبدو موسيقى الحضارة الغربية شيئًا مألوفًا تمامًا لرجل الغرب، وربما يصل عن طريقها إلى آفاق رحبة من المتع الحسية والذهنية إلا أنها لا تعنى شيئًا البتة لرجل من شرق الهند أو صعيد مصر، تمامًا كما تبدو الموسيقى الشرقية لرجل الغرب، والذين يدعون فى الغرب أنهم يتذوقون الموسيقى الشرقية إنما يتجاوبون فى الواقع مع خصائصها الغربية عليهم كالإيقاع والآلات والموتيفات اللحنية المملوءة بالزخارف وكسور النغمات.

ترى ماذا يحدث لو تجاور رجلان، أحدهما قد أتى لتوه من أعماق أدغال أفريقيا والآخر أوروبى النشأة وعلى قدر من الثقافة أمام أوركسترا سيمفونى ضخم اكتملت أدواته؟!، ثم قام ذلك الأوركسترا على حين غرة بعزف تآلفات Chords شديدة الوطأة وهو بكامل هيئته.. قد يفزع الرجلان بنفس الدرجة، وقد يميز الأوروبى - على فرض معرفته بمكونات ذلك الكيان الصوتى - بعض تآلفات سواء كانت تنافرًا Dessonance أو تطابقًا Conso-nance، وقد يتوقع صدور تآلف آخر أعلى صوتًا، أما الأفريقى فمن المحتم أن كل ذلك لن يبدو له إلا هراء لا معنى له، وربما يكون التأثير الوحيد الواقع عليه هو صدمة الضوضاء الفجائية! ذلك مثال بسيط يرينا أن الموسيقى بوجه عام تخضع للعوامل الإثنوجرافية والثقافية، وفى محيط نظام موسيقى ذى قوالب وصيغ معينة ويخضع لمثل تلك العوامل، يستطيع التآلف الواحد أن يثير فى المستمع الخاضع لها إحساسًا بالتوقع، أى عاطفة ما، تكون استجاباتها نتاجًا للعادات والتقاليد والقيم الاجتماعية السائدة فى عصر بعينه، وتتغير تبعًا لها أيضًا، وأقرب الأمثلة لذلك فى مجال الموسيقى العالمية، موسيقى القرن الثامن عشر فى أوروبا، والتى أصبحت تبدو باردة تفتقر تمامًا إلى العنصر العاطفى إلى جانب موسيقى القرن التاسع عشر بما فيها من وفرة فى الأحاسيس، وغليان فى المشاعر، بينما نجد أن الموسيقى العالمية فى القرن العشرين قد هجرت التعبير الحار الصارخ عن العواطف الجياشة، واتجهت إلى نوع من الاستبطان، وكتمان المشاعر، وارتادت عالم اللاوعى والعقل الباطن (وهى سمات تتشارك فيها كل الاتجاهات الموسيقية التى جاءت بعد الرومانتيكية Post Ro mantic) إن أغنية نواح آريانا Arianna's Lament، التى كتبها كلوديو مونتفردى Claudio Montverdi (١٥٦٧-١٦٤٣)، كانت تعتبر وقت تأليفها من أعظم ما كتب فى تاريخ الموسيقى تأثيرًا، ويقال إنها كانت تدر دموع مئات المستمعين، إلا أنها قد تبدو الآن لآذاننا، التى تعودت على العاطفة الجامحة للأوبرا الإيطالية، أغنية متحفظة لا تثير دموعًا البتة، بل قد تبدو أحيانًا بلا عاطفة تذكر، وربما تثير الضحك أيضًا، خاصة عندما يؤديها صوت جهير أول Baritone بأسلوب الغناء الجميل Bel Canto الذى كان شائعًا أيامها. وهل هناك ما يوضح ارتباط الاستجابة العاطفية للموسيقى بعادات العصر وتقاليده (وموقعه الجغرافى، وجذوره العرقية) أكثر من اليونانيين القدماء، والذين قاموا بترتيب مقاماتهم الموسيقية طبقًا لتأثيراتها العاطفية (المزعومة)، فكان لا يسمح للجنود الذاهبين إلى ميدان القتال بسماع موسيقى متراخية فى المقام تحت الليديانى Hypolydian، بل كان لابد لهم من التحرك على أنغام مقام حماسى مثل الفريجى Phrygian ليشد أزرهم ويشعل حماسهم، وقد أكد أفلاطون بنفسه تلك التأثيرات الأخلاقية العاطفية للموسيقى فى عصره، ودعا لاستبعاد المقامات الأيونية Ion-ic، والليدية Lydian (لما فيها من ميوعة وتخنث..!) فى كتابه الجمهورية..! فما الذى يحدث الآن فى أيامنا هذه؟ رغم كل ما نسبه اليونانيون لموسيقاهم من تأثيرات عاطفية، إن المستمع العادى قد لا يجد لديه حتى لمجرد التمييز بين واحد وآخر من المشاعر التى تثيرها تلك المقامات!



إن استجابتنا العاطفية للموسيقى ما هى إلا انفعالات فيها الكثير من الصفات المكتسبة التى يشكلها العرف والتقاليد وتداعى الأفكار، ومن الخطأ الاعتقاد بأن الموسيقى تستطيع أن تحمل لنا إحساسات معينة - وطنية مثلا، وفى هذا الصدد لنرى ما يحدث فى مجال الأناشيد الوطنية، إن أى لحن يقع عليه الاختيار من نشيد قومى لبلد ما، يتحول إلى رمز وطنى، فبتكراره فى كل مناسبة وطنية، وفى كل مرة تضفى الكلمات التلوين العاطفى المطلوب، وحتى لو تم أداؤه بعد ذلك سيلهب حماس صبية المدارس فى كل مرة، والعامل الحاسم هنا هو عملية التكرار، وتداعى الأفكار نحو الأحاسيس القومية لدى سماع النشيد، ولو استطاعت الموسيقى وحدها، دون أى كلمات أن تثير شعورًا وطنيًا لكان لدى مؤلفى الموسيقى القدرة على خلق عواطف وطنية ولأصبح من اليسير كتابة مقطوعة موسيقية واحدة يسمعها جمهور من قوميات مختلفة، وتثير فى كل جماعة على حدة شعورًا بالقومية نحو وطنها بالذات إن قطعة موسيقية كهذه لا يمكن أن تظهر إلى حيز الوجود، وإلا لأصبح فى إمكان مؤلفى الموسيقى أن يشعلوا الثورة بين المستمعين أو إذلالهم، أو تحويلهم إلى قوم من الجبناء إلى آخر ما لا حصر له من المشاعر، بتأليف مقطوعات موسيقية لكل غرض على حدة..! ولعلنا نعرف كم كانت مؤلفات شوبان Chopin (١٨١٠-١٨٤٩) من مازوركات Mazur-kas أو بالادات Ballads، وبولونيزيات Polonais-es تلهب حماس مواطنيه، حتى قال شومان Shumann (١٨١٠-١٨٥٦): «لو عرف العاهل المستبد الذى يقيم فى الشمال (قيصر روسيا) ما يكمن فى ألحان تلك المازوركات البسيطة من عدو خطير يتهدده لما تردد فى تحريم موسيقاه، فبين الأزهار التى ترصع موسيقى شوبان هناك مدافع مخبأة». ترى هل تثير مثل هذه الموسيقى الآن مشاعر وطنية لدى أحد خارج بولندا؟ بل هل تستطيع أن تلهب مشاعر البولنديين الوطنية الآن؟ (إلى جانب مشاعر أخرى توقظها موسيقى شوبان الرائعة).

إن التركيبة الأساسية الفسيولوجية والسيكولوجية لبنى البشر من متذوقى الموسيقى حول العالم لم تتغير على الإطلاق طوال التاريخ، كما أن عاطفة الإنسان نحو الألم والمعاناة لم تتغير هى الأخرى بل درجة الاستجابة العاطفية والقيود الاجتماعية الراسخة المفروضة علينا هى التى تختلف من بلد إلى آخر ومن عصر إلى آخر.

الإفراط فى الشروح الفنية:

إلى أى حد تؤدى تلك الشروح والتفسيرات التى تزخر بها كتيبات برامج الكونسير، وبطون كتب التذوق الموسيقى، إلى زيادة غموض الموسيقى؟! إن كل من تصدوا بالشرح متبعين هذا النهج قد أدخلوا المتذوقين فى متاهات لا حصر لها، خاصة من كان منهم على أعتاب ذلك المجال، والفقرة التالية، وهى شرح فنى لجزء من الحركة الثانية البطيئة Adagio من السيمفونية التاسعة لدفورجاك Dvorak (١٨٤١-١٩٠٤)، والمعروفة باسم «من العالم الجديد From the New World» توضح لنا مدى الصعوبة التى يواجهها محب الموسيقى المبتدئ، وهو يتلمس شيئًا مكتوبًا عن تلك السيمفونية:

«تؤدى الكورانجليه English Horn اللحن الأساسى، وهو رومانتيكى الطابع، فوق مصاحبة ناعمة من الوتريات ويمتد التفاعل، وبعد أن تؤدى آلتا كورنو مكتومتان Muted Horns اللحن الأساسى، يحدث تغير مقام دو دييز صغير Cshrp minor مع زيادة طفيفة فى الحيوية Un Poco Piu mosso. ويقودنا مقطع انتقالى قصير إلى اللحن الأساسى الثانى وتؤديه آلات النفخ الخشبية على كونترا بونط فى القرار، مع عزف بالأصابع (نبر Pizzicato) تؤديه الوتريات».

إن الدراسة المتأنية لذلك المقطع لن تتيح لنا على الإطلاق أن نستخلص أى مفهوم للموسيقى التى تصفها، حتى لو كانت كل كلمة فى هذه الفقرة صحيحة (وهو الواقع فعلاً) فلن يرفع ذلك من درجة استيعابنا لتلك الحركة، ومن ثم درجة استمتاعنا بها، وقد أبدع الكاتب الساخر جورج بيرنارد شو George Bernard Shaw (١٨٥٦-١٩٥٠) فى تصويره لعدم جدوى تلك التفسيرات والشروح الفنية العقيمة عندما طبق نفس الأسلوب، الذى يتبعه معلقو الموسيقى من المتحذلقين، على مونولوج «هاملت الشهير» أن يحيى الإنسان أو يموت To be or not be فكتب قائلاً: «لا يتبع شكسبير الاستهلال التقليدى، ويعلن عن موضوعه على الفور فى صيغة المصدر To be وسرعان ما تتكرر الصيغة واضحة بعد مقطع رباط قصير «or» نستطيع أن نميز فيه، وهو على هذا القدر من القصر صيغ التردد والنفى التى يعتمد عليها تمامًا مغزى التكرار، وهنا نصل إلى فاصلة النقطتين «:» Co-lon لتأتى بعدها شبه جملة الكينونة That is the question ذات نبرة حاسمة على اسم الموصول لتصل بنا إلى أول نقطة!

أى فائدة تعود علينا من تلك الشروح؟ الحقيقة أن جزءًا كبيرًا من صرف الانتباه عن التذوق الموسيقى إنما يكمن فى تلك المسميات، فهل سيضمن لنا التعرف على هذا الاستطراد الهارمونى أو ذاك أى تجاوب حسى أكثر مع الموسيقى؟، ولكى تطمئن عزيزى متذوق الموسيقى الجادة فاعلم أن التيقظ الكامل لتعقيدات الصيغة الموسيقية فى نطاق عمل موسيقى كبير إنما هو قدرة لا تتاح إلا للموسيقى المدرب تدريبًا عاليًا، وهو بدوره لا يستحضر معه كل معلوماته عند استماعه للموسيقى لمتعته الشخصية، وما معلوماته تلك سوى رصيده الذى يستخدمه فى التأليف أو التدريس.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن هو: ما هو الطريق الذى سنتبعه إذن عند تنفيذ برامج تذوق الموسيقى الجادة، والإجابة هى التوفيق بين الأسلوبين، فلا غنى فى الواقع (عند البداية فقط) عن الاستعانة بالصور الأدبية، ولنسلم بأننا لا نخرج من الموسيقى بعواطف حقيقية، بل نحن نخوض عند استمتاعنا بها تجربة جمالية نخرج منها بما يسمى عواطف جمالية Aesthetic emotions، وفى كل مرة نستمع فيها إلى قطعة موسيقية إنما ندخل فى عقد ضمنى مع

المؤلف لنوافق على ما يعرضه لنا (أم لا نوافق)، فى حدود نظام موسيقى له قوالبه وصيغه، وطرقه المتعددة فى التفكير والمعالجة، وعند استماعنا للموسيقى، لا بد أن نكون فى أذهاننا حقيقة مهمة، وهى أننا لن نمر بتجربة حب دنيوى أو سنستشعر إحساسًا بالخلاص، بل سنخوض تجربة عملية تتكون من تتبع طرق المؤلف الموسيقى فى تنظيم الأصوات، ووضعها فى نماذج مجردة Abstract Patterns يتم اختيار الأنغام فيها بعناية فائقة. وربما تحمل الصيغ والنماذج الموسيقية ومعالجة الأصوات تماثلاً مع مشاعرنا وعواطفنا فى سماتها الديناميكية، ثم إن تلك الصيغ، وهى تحمل فى طياتها سريان الأفكار الموسيقية، والتخطيط الجيد للذروات العاطفية Climax ومكان تلك الذروات بالنسبة لبعضها، تثير لدينا كيانًا كاملاً من مشاعر غامضة دون أن نستطيع له تحديدًا، ولا يمكن لنا البتة ممارسة مثل تلك المشاعر فى الحياة الواقعية، وهذا هو مكمن قدرة الموسيقى. ولا غرو أن يعبر إرنست تيودور هوفمان E.T Hoffman ذلك الرومانتيكى المتطرف عن شعوره المضطرم وهو بصددها قائلاً: «أيتها الموسيقى.. إننى أشعر برهبة، بل بخوف، فقد عبرتِ بالصوت عن الأسرار القدسية للطبيعة».



خاتمة:

كثير من مستمعى الموسيقى قد كيفوا أنفسهم، بحيث لا يجدون متعة فى الموسيقى سوى شىء من التنفيس عن عواطفهم. والتحدى المهم الذى يواجهنا فى تلك المرحلة هو ضرورة إقناع متذوق الموسيقى الجادة بأن هناك متعًا أخرى تتخطى مجرد المتعة الحسية sensuous pleasures إلى آفاق رحبة من المتع الذهنية intel-lectual Pleasures، وهى متع تتجاوز الاستماع بملمس الصوت Tone color، والتلوين الأوركسترالى orchestration، وجمال اللحن، بل تأتى من التنبه للعلاقات المتشابكة بين مختلف أجزاء العمل الموسيقى، وإدراك الصيغة Form والبناء الموسيقى، ومنطق المؤلف، وعلى الموسيقى ذات المنطق Logic، أى تلك التى تدفعنا للتفكير ونحن نستمع إليها لكى نخرج منها بمتع ذهنية، أن تحارب من أجل وجودها على مستوى القاعدة العريضة من متذوقى الموسيقى فى بلدنا، فهناك تراكمات صوتية ممجوجة تضع حاجزًا منيعًا أمام شبابنا، وتمنعه من الولوج إلى عالم الموسيقى الرفيعة.

إن التسليم بأن فى الموسيقى نوعًا من الفكر thought سيساعدنا كثيرًا على استيعابها، خاصة تلك المقاطع الصعبة التى لا يمكن التعرف الفورى فيها على ما تحمله من شحنة عاطفية، بمعنى آخر علينا أن نؤمن بأن تلك المقاطع المسترسلة فى العمل الموسيقى Extend-ed Sections - قبل وبعد الذروات العاطفية Emotional Climaxes، ليست بالضرورة مجرد حشو Padding، فغالبًا ما تكون جزءًا مهمًا فى صميم المادة الموسيقية اللازمة لنماء وتفاعل العمل، وهناك مثال شهير لذلك وهو سيمفونية مالر Mahler (١٨٦٠-١٩١١) الثانية، والمعروفة باسم سيمفونية القيام أو البعث Resurrection، حيث تبدأ الحركة الأولى بنغمات قصيرة سريعة فى ترعيدات قصيرة فخمة Maestoso توقعها مجموعة التشيللو والباصات تقود لذروة مهيبة تأخذ بلب السامع من فوره لكنه سرعان ما يتبعها بفقرات ناعمة بطيئة ومجموعات لحنية متسعة الجنبات تغلب عليها روح التأمل لفترة طويلة قبل أن تأتى ذروة فجائية تتبعها فقرات أشد نعومة، وقد يحار السامع وهو يتتبع النبرات العاطفية المختلفة خاصة إذا ما واصل الاستماع للحركة الثانية والثالثة وتبادر إلى ذهنه أنهما لا ينتميان بأى صلة للموضوع، وفى الحركة الرابعة يسمع صوت المغنية الكونترالتو Con-tralto، وهى تؤدى قصيدة نور الفطرة Urlicht «ليتنى كنت فى السماء» ببطء ونعومة شديدة فيكاد لا يتبين موقعه من تلك التجربة العجيبة، وسرعان ما تأتيه الحركة الخامسة والأخيرة دون استراحة وهى التى أدخل فيها «مالر» نشيد القيام الذى وضعه الشاعر Klop-stock، وإذا كان المستمع جادًا ومهتمًا بالبناء الكلى للعمل سيدرك أن «مالر» إنما كان يمهد فى كل الحركات السابقة لإعطاء تأثير هول ذلك اليوم، كما تصوره كفنان وأطلق العنان لخياله، عندما ظهر ذلك الطائر الذى يختلج وحيدًا فى غسق يوم القيامة وقد أجاد «مالر» تصوير ذلك المقطع ببراعة فائقة.

وهكذا فبقدر ما يثبت لنا أن مادة المؤلف الموسيقى الأساسية التى يستخدمها فى عمله إنما تنبع من عواطفنا البشرية كما نمارسها على أرض الواقع، بقدر ما نستطيع الموافقة على أن عواطفنا الحقيقية تظهر فى الموسيقى، ولا بد لنا من أن نأخذ فى حسابنا أن الاستمتاع بالموسيقى إنما يعتمد على عوامل متنوعة يرتبط بعضها بالصوت كظاهرة فيزيائية لها قوانينها الطبيعية، ثم على الخصائص البيولوجية الموروثة فينا والتى تهيئنا لاستقبال الأصوات الموسيقية، ثم هناك عوامل أخرى مهمة تعتمد على ما نحققه فى مجال التعليم والثقافة، وما نخضع له أيضًا من تقاليد وأعراف اجتماعية، والواقع أن أى محاولة لفهم تأثيرات الموسيقى، ومحاكاتها للعواطف، أو تعبيرها عن مختلف الحالات المزاجية Mood لا تضع فى اعتبارها كل العوامل السابقة ستكون محاولة قاصرة، وليكن ذلك منطلقنا لخوض التجربة، وربما يكون ذلك بداية انتفاضة موسيقية ورسالة موجهة لكل من أصابهم الانبهار بالتكنولوجيا الجديدة High tech وتناسوا قدرة الإبهام والغموض الذى تتلفع به الموسيقى وهى شامخة فى عليائها. ■

لماذا أوقف العراق صادراته البترولية؟



البترول العراقى تحت الحصار الأنجلو أمريكى

حسين عبدالله

لم تكد الحرب العراقية الإيرانية التى استغرقت عقد الثمانينيات تتوقف حتى نشبت أزمة الخليج باحتلال العراق للكويت فى اغسطس ١٩٩٠. وكان العراق قد قام خلال العامين اللذين أعقبا وقف القتال مع إيران فى أواخر ١٩٨٨ بإصلاح ما دمرته تلك الحرب من المرافق البترولية، الا أن «عاصفة الصحراء» أو القصف الذى شنته طائرات الولايات المتحدة وبريطانيا على مدى ٤٣ يوما فى مستهل ١٩٩١ عاد لكى يصيب تلك المرافق بما يقرب من الدمار الكامل. وعلى مدى ٥١٨ طلعة جوية استخدم فيها من القنابل ما تبلغ زنته ١٢٠٠ طن من المتفجرات الشديدة لكى تدمر ٢٨ هدفا بتروليا، وذلك إضافة إلى مرافق غير بترولية مثل محطات توليد الكهرباء، والسكك الحديدية، والمطارات، والعديد من الوحدات الصناعية بما فى ذلك مصانع الصلب والأسمنت والبتروكيماويات.. إلخ. وقد شملت الأهداف البترولية المدمرة الآبار المنتجة، وجميع التسهيلات والمعدات الإنتاجية، بما فى ذلك صهاريج التخزين، ومحطات فصل الغاز عن الزيت، ومحطات المياه، ومحطات الدفع والضخ، ومعامل التكرير والتصنيع، ووحدات التكسير التى تحول الزيوت الثقيلة إلى منتجات بترولية خفيفة. أما أخطر أوجه الدمار فكان ما أصاب محطة الدفع PS1 وخط الأنابيب الذى كان يضخ نحو ١.٦ مليون برميل يوميا (ب/ى) فى خط الأنابيب السعودى الذى يحمل البترول العراقى والسعودى إلى البحر الأحمر ومنه للناقلات التى تبحر إلى الأسواق العالمية. كذلك دمر خط الأنابيب الاستراتيجي ذو الاتجاهين الذى كان يربط شمال العراق بجنوبه، ومعه محطة الضخ الجبارة فى منطقة الحديثة فى الشمال K3 وهو ما أدى إلى تقليص طاقة الأنابيب التى كانت تمر عبر تركيا وتصب فى شرق البحر المتوسط من نحو ١.٦٥ مليون ب/ى إلى نحو ٨٠٠ ألف ب/ى. هكذا كان الدمار الفعلى فى أولى مراحل الأزمة. ثم فرض على العراق حصار شامل بقرار مجلس الأمن ٦٨٧ لعام ١٩٩١. فانهار إنتاج البترول العراقى من نحو ٢.٩ مليون ب/ى قبل الأزمة إلى ما يغطى بالكاد الاستهلاك المحلى من البترول فى حدود نصف مليون ب/ى خلال الأعوام ١٩٩١-١٩٩٦.

فى خط مواز لتلك التطورات عقدت منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) اجتماعا وزاريا بحضور جميع الأعضاء فى ٢٩ اغسطس ١٩٩٠ حيث تقرر خلاله رفع الإنتاج بما يعوض العجز الذى أصاب السوق العالمية للبترول نتيجة لغياب البترول العراقى والكويتى. وبالفعل ارتفع إنتاج أوبك من نحو ١٩،٥ مليون ب/ى إلى ٢٢،٥ مليون ب/ى وذلك باستخدام السعودية ما لديها من طاقة إنتاجية احتياطية لرفع إنتاجها من ٥،٥ مليون ب/ى إلى ٧،٥ مليون ب/ى، ويقدر ما حصلت عليه السعودية حتى الآن من زيادة فى عوائدها البترولية نتيجة للحظر الذى فرض على بترول العراق بأكثر من ١٥٠ مليار دولار. كذلك ارتفع إنتاج الإمارات لتعويض العجز الذى أصاب السوق العالمية للبترول عقب نشوب الأزمة بنحو نصف مليون ب/ى وإنتاج فنزويلا بنحو ربع مليون ب/ى.

وفى سبتمبر ١٩٩١ أصدر مجلس الأمن قراريه ٧٠٦ و٧١٢ بالسماح للعراق ببيع ما يساوى ١.٦ مليار دولار من النفط خلال ستة أشهر مع استخدام الحصيلة فى أغراض إنسانية كاستيراد الأغذية والأدوية للشعب العراقى، وأيضا لتمويل عمليات الأمم المتحدة فى العراق. مع تخصيص ٣٠٪ من الحصيلة لسداد جانب من التعويضات التى استحقت على العراق نتيجة لغزوه الكويت. غير أن العراق لم يقبل العرض الذى تضمنت شروطه ما اعتبره العراق ماسا بسيادته. ومن ذلك إصرار الأمم المتحدة على أن يتم تصدير النفط عن طريق منفذ واحد وهو خط الأنابيب الممتد عبر تركيا إلى البحر المتوسط فيما اعتبر أنه مكافأة لتركيا على تعاونها مع الحلفاء ضد العراق. هذا بينما أصر العراق على استخدام منفذى الشمال والجنوب معا وفقا لما يراه مناسبا. كذلك رفض العراق مطلب الأمم المتحدة الإشراف على توزيع المواد المشتراة من حصيلة البيع للتأكد من توزيعها توزيعا عادلا فى كافة أرجاء العراق.

ولم تنجح أيضا المفاوضات التى دارت بين العراق والأمم المتحدة حول تلك الصفقة فى ١٩٩٣ فاستمر الموقف مجمدا إلى أن عاد مجلس الامن فاصدر فى أبريل ١٩٩٥ قراره رقم ٩٨٦ بالسماح للعراق بتصدير ما قيمته ملياران من الدولارات من النفط خلال ستة أشهر وذلك لمواجهة الالتزامات السابق ذكرها. وقد صيغ القرار على نحو يتيح قدرا من المرونة إذ لا يصر على التصدير بالكامل عبر خط الأنابيب المار بتركيا بل يكتفى بتحديد «النصيب الأكبر». ومع أن حجم ما ينبغى إنفاقه من الحصيلة على المناطق الكردية جاء محددا بالقرار، إلا أن الخطوات التنفيذية بقيت مفتوحة للدراسة. كما أتيح لأمين عام الأمم المتحدة أن يقترح زيادة حصيلة الصادرات فوق المليارين إذا ما تبين أنها غير كافية لمواجهة الالتزامات المخصصة لها، مع إمكان تجديدها لفترات تالية. ومرة أخرى رفض العراق قبول العرض مما كان له بعض الأثر - بجانب عوامل إيجابية أخرى - فى مساندة سعر النفط فى الأسواق العالمية حيث ارتفع السعر من نحو ١٧،١٥ دولار للبرميل خلال مارس ١٩٩٥ إلى نحو ١٨،٢٠ دولار خلال أبريل ومايو.

وفى مطلع ١٩٩٦ عاد أمين عام الأمم المتحدة، بمساندة فرنسا، يحاول إقناع العراق بقبول الصفقة فى ظل مناخ بدا أكثر تفاؤلا، خاصة بعد أن نادت مصر والامارات وعدد من الدول العربية بمراعاة الظروف المعيشية والصحية السيئة لشعب العراق، كما أبدت الكويت تأييدها لخطة الأمم المتحدة ولكنها أصرت على التطبيق الكامل للقرار دون نقص أو زيادة. وانتهت المفاوضات بقبول العراق العودة لتصدير البترول، وإن كانت عائداته لم توضع تحت تصرف الحكومة العراقية كما طلبت، بل كانت توضع فى حساب خاص Escrow account يخضع الصرف منه لرقابة لجنة الجزاءات بالأمم المتحدة UN Sanctions Committee (UNSC). بذلك صارت جميع عقود المشتريات خاضعة لموافقة اللجنة قبل تنفيذها. كما يحول ٣٠٪ من تلك العائدات لدفع تعويضات الحرب وتمويل عمليات الأمم المتحدة فى العراق.

وقد عاد البترول العراقى إلى الأسواق العالمية اعتبارا من ٤ ديسمبر ١٩٩٦ على فترات مدة كل منها ستة أشهر ويصدر بها فى كل مرة تصريح من لجنة الجزاءات. وبرغم ما أعلنه العراق من وقف صادراته اعتبارا من أول ديسمبر ٢٠٠٠ إلا أن لجنة الجزاءات قامت بإصدار ترخيصها بالتصدير يوم ٤ ديسمبر ٢٠٠٠ وهو موعد التجديد المعتاد.

وكان البترول العراقى قد تدفق إلى الأسواق العالمية - علاوة على احتياجات السوق المحلية - بكمية فى حدود ٦٦٠ ألف ب/ى تقريبا خلال ١٩٩٧، ثم ارتفعت الكمية إلى نحو ١.٥ مليون ب/ى عام ١٩٩٨ بعد أن قررت لجنة الجزاءات السماح بمضاعفة القيمة بمقتضى القرار رقم ١١٥٣ لسنة ١٩٩٨. وبصدور القرار رقم ١٢٨٤ لسنة ١٩٩٩ الذى أزال من الناحية العملية القيد على تصدير البترول العراقى ارتفعت تلك الصادرات إلى نحو مليونى ب/ى عام ١٩٩٩. بذلك لم تعد تلك الصادرات مقيدة بقرارات الأمم المتحدة بقدر ما تحدها إمكانيات العراق على الإنتاج 'التى انخفضت بسبب ما أصابها من دمار من نحو ٣.٥ مليون ب/ى قبيل حرب الخليج إلى نحو ٢.٥ مليون ب/ى باستخدام الأساليب الفنية السليمة، وإن كان الإنتاج قد ارتفع فى الوقت الحاضر ليبلغ نحو ٢،٨ مليون ب/ى مما قد يرهق الحقول المنتجة بسبب افتقارها للكثير من قطع الغيار ومستلزمات الصيانة والتجديد.

وعلى الرغم مما أقرته لجنة الجزاءات من تخصيص ٣٠٠ مليون دولار كل ستة شهور، ثم زيادتها إلى الضعف، وذلك لتوفير قطع الغيار اللازمة لتطوير المرافق البترولية العراقية، إلا أن العراق لم يتمكن من استغلال تلك المبالغ نتيجة لتراخى لجنة الجزاءات فى اعتماد عقود الشراء بحجة التأكد من عدم صلاحيتها للاستخدام فى الأغراض العسكرية.

وعلى الرغم مما أصاب تلك المرافق من دمار شامل نتيجة للقصف الأمريكى خلال حرب الخليج ونتيجة أيضا للغارات العنيفة التى عادت الولايات المتحدة وبريطانيا تشنها على العراق تحت مسمى «ثعلب الصحراء» خلال ديسمبر ١٩٩٨، فقد قام الخبراء العراقيون - خلافا لما كان متوقعا وفى ظل ظروف عمل قاسية وعدم توفر قطع الغيار اللازمة - بإصلاح الكثير من المعدات والأجهزة التى دمرت، مع نزع قطع الغيار من بعضها واستخدامها فى البعض القابل للإصلاح. وبذلك تم إصلاح ميناء البكر الذى يقع فى

شملت الأهداف البترولية المدمرة الآبار المنتجة، وجميع التسهيلات والمعدات الإنتاجية، بما في ذلك صهاريج التخزين، ومحطات فصل الغاز عن الزيت، ومحطات المياه، ومحطات الدفع والضخ، ومعامل التكرير والتصنيع، ووحدات التكسير التي تحول الزيوت الثقيلة إلى منتجات بترولية خفيفة. أما أخطر أوجه الدمار فكان ما أصاب محطة الدفع وخط الأنابيب الذي كان يضخ نحو ١,٦ مليون برميل يوميا

المياه العميقة في الخليج بحيث ارتفعت طاقة التحميل فيه من نحو ٦٠٠ ألف ب/ي عقب تدميره عام ١٩٩١ إلى نحو ١,٢ مليون ب/ي في الوقت الحاضر. كذلك أمكن استخدام خط الأنابيب المار بتركيا بحيث ارتفعت الصادرات البترولية العراقية من المنفذين إلى ٢,٢ مليون ب/ي في الوقت الحاضر. وفي الآونة الأخيرة أعلن العراق عن إصلاح منفذين للتحميل من المنافذ الأربعة الواقعة في منطقة خور العميا على الخليج مما يسمح بتصدير نحو ٧٠٠ ألف ب/ي. كذلك أعلن العراق وسوريا منذ أسابيع قليلة تسوية الخلاف بينهما حول استخدام خط الأنابيب الذي كان يحمل البترول العراقي عبر الأراضي السورية إلى شرق البحر المتوسط. وقد ظل هذا الخلاف موضع نظر اللجنة القضائية المنبثقة عن منظمة الأقطار العربية المصدرة للبترول (أوابك) لسنوات طويلة ولم تنجح في تسويته.

ولعل فيما قام به الخبراء العراقيون من إصلاحات على مدى السنوات العشر الماضية ما يخفف بعض الشيء من فاتورة إعادة التعمير التي سبق تقديرها في عام ١٩٩٢ بمعرفة معهد بروكينجز Brookings بما لا يقل عن ٢٠٠ مليار دولار.

وفي محاولة لتقويم الموقف المالي للعراق - دون التطرق إلى المعاناة الإنسانية لشعبه - فإن الحرب مع إيران لم تمتص مدخرات العراق المالية فحسب بل حولته إلى دولة مدينة. وبحسب تقديرات العراق بلغ الإنفاق على واردات السلاح الذي استخدم ودمر بالفعل أثناء العمليات العسكرية ما يزيد على مائة مليار دولار. وقد خرج العراق من تلك الحرب مدينا - وفقا للمذكرة المقدمة للجنة التعويضات في جنيف عام ١٩٩١ - بنحو ٤٧ مليار دولار تصل قيمتها في الوقت الحاضر بعد إضافة الفوائد بمعدل ٨٪ إلى نحو ٨٧ مليار دولار. وإذا أخذ في الاعتبار أن قيمة المنشآت الاقتصادية التي دمرها القصف الأنجلوأمريكي يحتاج لإعادة بنائه نحو ٢٠٠ مليار دولار، وأن ما فقده العراق من العائدات البترولية نتيجة لفرض الحظر عليها خلال الفترة ١٩٩٠ - ٢٠٠٠ يقدر بنحو ١٨٠ مليار دولار، وأن ما يلتزم العراق بدفعه كتعويضات نتيجة لأزمة الخليج وخصص له ٣٠٪ من عائداته البترولية يمكن ان يبلغ نحو ١٥٠ مليار دولار على مدى السنوات العشر التالية لرفع الحظر البترولي؛ إذا أخذ كل ذلك في الاعتبار، بالإضافة إلى ما ترتب على الحرب مع إيران من انخفاض متوسط دخل الفرد في العراق عندما توقفت الحرب عام ١٩٨٨ إلى نصف ما كان عليه عندما بدأت عام ١٩٨٠، وأيضا ما صادف الشعب العراقي من انهيار في مستوى معيشته عبر عقد التسعينيات نتيجة لفرض الحصار، فإن الشعب العراقي قد لا تخف معاناته قبل أن تتغير الظروف بما يسمح بتدفق صادراته البترولية بالمعدلات المرتفعة التي يتطلع العراق لتحقيقها بعد استعادة حريته في التعاقد مع الشركات الأجنبية وتنمية الحقول التي تم اكتشافها بالفعل وما زال العراق عاجزا عن تنميتها.

في ظل تلك الظروف ماذا يتوقع أن تفعل حكومة العراق ؟

على الرغم من أن الحظر الذي فرض على تصدير البترول العراقي كان يقصد به إرغام العراق على الجلاء عن الكويت، وقد تحقق، وعلى الرغم من ادعاء العراق أنه أوفى بالشروط التي نصت عليها الفقرة ٢٢ من القرار رقم ٦٨٧ والتي تقضي برفع الحصار بالكامل متى تأكد قيام العراق بالتخلص من أسلحة الدمار الشامل، إلا أن الموقف الأنجلوأمريكي لا يسلم بذلك الادعاء ويتوقع أن يستمر على إصراره هذا مادام صدام حسين باقيًا في موقعه من السلطة الحاكمة. وحتى إذا خفت حدة العناد الأنجلوأمريكي بعض الشيء امام الوساطة الدولية التي تتعاطف مع الشعب العراقي وتضغط في طلب رفع الحصار، فان المتوقع ان يظل جانب من آثار ذلك الحصار جاثما على صدر البترول العراقي لسنوات طويلة، وخاصة أن أي قرار برفعه لابد أن يمر بمجلس الأمن حيث يترصده الفيتو الأمريكي. كذلك يتوقف مصير البترول العراقي على الظروف السائدة في السوق العالمية للبترول ومدى إمكانية استيعابه الزيادة المتوقعة في الصادرات العراقية، فضلا عن ضخامة التمويل اللازم لتحقيق تلك الأهداف.

وقد أعلن العراق خلال مؤتمر عقد في مارس ١٩٩٥ أنه يخطط لرفع طاقته الإنتاجية إلى نحو ٦ ملايين برميل يوميًا وهو ما يمكن تحقيقه على مدى خمس سنوات بتكلفة تبلغ نحو ٣٠ مليار دولار. وبناء على ذلك قام العراق بالتفاوض مع عدد من الشركات الأوروبية والآسيوية لتنمية حقول سبق اكتشاف البترول فيها ولكنها لم تخضع بعد للتنمية والإنتاج. وقد تم بالفعل توقيع عقود اقتسام الإنتاج مع بعض تلك الشركات (Lukoil الروسية وCNPC/Norinco الصينية) وما زال التفاوض مستمرا مع البعض الآخر (فرنسية وإيطالية وصينية). ويقضي ذلك النوع من العقود - وهو السائد أيضا في عدد كبير من الدول من بينها مصر - بأن تقوم الشركة الأجنبية بالإنفاق على الاستكشاف والإنتاج ثم تسترد نفقاتها من حصة في البترول المنتج مضافا إليها حصة لتغطية ما تحملته من مخاطر أثناء البحث عن البترول. وفي مصر تبلغ الحصة المخصصة لاسترداد النفقات ٤٠٪ من الإنتاج الإجمالي كما تبلغ الحصة المخصصة لتغطية المخاطر ٢٥٪ مما يبقى بعد الحصة الأولى. وقد أسفرت التجربة الفعلية في هذا النوع من العقود في مصر عن أن مجموع ما يحصل عليه الشريك الأجنبي مقابل الحصتين لا يقل عن ثلث الإنتاج على مدى فترة العقد التي قد تصل إلى ٣٥ عاما. ويأتي التجاء العراق لهذا النوع من العقود - خلافا لسياسته التقليدية وهي الاعتماد على الذات في تمويل عمليات الاستكشاف والتنمية والإنتاج - نتيجة لافتقاره إلى الإمكانيات التمويلية اللازمة والذي يتوقع أن يستمر لسنوات طويلة حتى بعد رفع الحظر.

وتقدر الاحتياطيات المتوقع تأكيدها في ظل العقود التي يجري التفاوض عليها بأكثر من ٣٠ مليار برميل (مقارنة بأقل من ٣ مليارات برميل في مصر)، كما يقدر الإنتاج المتوقع تحقيقه نتيجة لتلك الأنشطة بنحو ٢,٥ مليون ب/ي، وذلك بالإضافة إلى الطاقة الإنتاجية الحالية والتي تقارب ٣ ملايين ب/ي. ويوجد من التقديرات ما يشير إلى أن احتياطيات العراق التي لم تخضع بعد للاستكشاف والتنمية يمكن أن تصل إلى نحو ٢٠٠ مليار برميل، أو ما يعادل نحو خمس الاحتياطيات العالمية، وهو ما يضعها في مصاف المكانة البترولية التي تحتلها السعودية. ومن هنا لا يبدو مستعصيا أن يحقق العراق هدفه المعلن بالنسبة للطاقة الإنتاجية، مما يضعه في المرتبة الرابعة على خريطة الإنتاج العالمية بعد السعودية (٨,٦ مليون ب/ي) والولايات المتحدة (٧,٧) وروسيا (٦,٢). بل إن هناك من يتوقع أن يبلغ إنتاج العراق نحو ١٢ مليون ب/ي في غضون ١٢ عاما بعد رفع الحظر كلية وبشرط أن يتوفر التمويل اللازم وأن تستوعب السوق العالمية تلك الكميات.

وفي انتظار أن يحدث ما لا يتوقع أن يحدث خلال المستقبل المنظور، يحاول العراق أن يجد لنفسه منفذا لتخفيف حدة المعاناة التي يمر بها تحت الحصار الأنجلوأمريكي، وبخاصة فيما يتعلق بالحصول على قطع الغيار اللازمة لإعادة تأهيل مرافقه البترولية مما يتيح له ضخ كميات متزايدة صار مسموحا بها في ظل قرارات الأمم المتحدة. وكما ذكرنا فقد تعطل الحصول على تلك القطع بسبب تراخي لجنة الجزاءات في الموافقة على عقود الشراء خشية أن تكون بعض تلك القطع مما يصلح استخدامه لصنع أسلحة. ومن هنا فكرت حكومة العراق أن تحصل على جانب محدود من عائدات تصدير البترول وأن يوضع ما تحصل عليه بهذه الوسيلة في حساب خاص يجري الصرف منه بكامل حريتها دون تدخل لجنة الجزاءات. واقترحت الحكومة العراقية لتحقيق هذا الهدف معادلة سعرية يقوم بموجبها من يشتري البترول العراقي بدفع نصف دولار عن كل برميل يشتريه ويودع هذا المبلغ في الحساب الخاص بالحكومة العراقية، على أن يعوض المشتري عن ذلك بدفع سعر يقل بنصف دولار عن السعر السائد في السوق ويسدد هذا السعر للحساب الخاضع لرقابة لجنة الجزاءات. وكان من مقتضى تنفيذ تلك المعادلة أن يحصل العراق على نحو ٤٠٠ مليون دولار سنويا (إذ تبلغ صادراته نحو ٢,٢ مليون ب/ي) لكي يتصرف فيها بحريته بعيدا عما تراكم في الحساب الخاضع لرقابة لجنة الجزاءات ويبلغ نحو ١١ مليار دولار. غير أن المعادلة العراقية قوبلت بالرفض ليس فقط من جانب لجنة الجزاءات بل أيضا من جانب الشركات التي تقوم بشراء البترول العراقي والتي لم ترغب في الدخول كطرف في النزاع العراقي الأنجلوأمريكي.

وإذا كان العراق قد قام بوقف صادراته البترولية اعتبارا من أول ديسمبر ٢٠٠٠، كوسيلة للاحتجاج على رفض معادلته السعرية، فهل يفلح ذلك في الضغط على المعسكر الأنجلوأمريكي لقبول مطالبه؟

إن الإجابة تبدو ببساطة فيما أصاب أسعار البترول عقب هذا القرار. فقد فقدت أسعار البترول نحو ٤ دولارات خلال أيام، ويتوقع أن يستمر الانخفاض خلال النصف الأول من عام ٢٠٠١ لاعتبارات لم تكن خافية على من يتابع تطورات السوق العالمية للبترول. ذلك لأن الارتفاع الذي طرأ على تلك الأسعار خلال النصف الثاني من عام ٢٠٠٠ لم يكن راجعا لشحة في البترول الخام بقدر ما كان راجعا لعدم كفاية ما تم تخزينه من وقود التدفئة لمواجهة فصل الشتاء وعجز معامل التكرير عن ملاحقة ذلك العجز بالقدر الكافي. ومن ناحية أخرى، فقد تطوع عدد من الدول المصدرة للبترول بضخ كميات متزايدة من البترول إذا ارتفع السعر فوق حد معين، كما تطوع بتعويض النقص الذي قد يحدث نتيجة لوقف البترول العراقي. وفي النهاية فإن المعسكر الأنجلوأمريكي سوف يكون مستعدا لتقديم أية تضحية، مالية أو غير مالية، لتكريس سيطرته البترولية في منطقة الخليج وللإبقاء على الحصار العراقي كعبرة لغيره، وهي نفس الاستراتيجية التي تبناها الغرب عندما قام مصدق رئيس وزراء إيران بتأميم البترول الإيراني عام ١٩٥١. ولا يبقى بعد ذلك إلا أن تقف الدول العربية وقفة رجل واحد في مواجهة تلك العجرفة الأنجلوأمريكية والتي لا يستبعد أن تتحول يوما لكي تلتهم من يناصرها ويتصور أنه بمنأى عن غدرها. ■

لورد بايرون

عَشِق احتقار القوانين .. وفعل كل ما يشين!!

كلود روسون

Byron: Child of Passion
(بايرون: طفل العاطفة)
Benita Eisler
Hamish Hamilton, 1999, 848 pp, £ 25.00

كثيرًا ما يرى الخيال الشعبي بايرون على أنه الرومانسي، لما تميز به من سياسة ثورية، وحياة خاصة شائنة، وعرجه الذي كان يتباهى به باعتباره دليلاً على ما فعله قابيل، وهو كأجنبي له تأملاته الغامضة، ومنفى من وطنه الأصلي، وبطل متهور من أبطال حروب التحرر الوطني، يصبح مزيجًا شاعريًا عنيدًا يجمع بين جيمس دين وشي جيفارا. غير أن بايرون كان كذلك لوردًا إنجليزيًا متعجرفًا من الطراز الأول تعبر مناصرته للقضايا الشعبية عن قدر ضخم من الراديكالية الأرستقراطية، وكان يحتقر الأجانب الذين كان يقود كفاحهم من أجل الاستقلال (دون أن يشارك في القتال) من أعلى.

وكان كونه لوردًا أهم من كونه كاتبًا، كما توضح بينيتا آيزلر في سيرته هذه التي تتسم بالحيوية (وليست هذه هي المرة الأولى). وكان يرى الشعراء الرومانسيين الآخرين على أنهم كتاب مأجورون وضيعو الأصل، و«موهوبون مدعون وسادة مزيفون»، كما أنهم محافظون سياسيون ومرتدون. ورغم أنه كان يفتقر دائمًا إلى المال، فقد رفض في بادئ الأمر تقاضي أجر عن كتاباته، باعتبار أن هذا سلوك لا يتفق مع كونه لوردًا، ولكنه لان فيما بعد عندما صار في حاجة إلى ما أسماه «مال المخ.. ما أحصل عليه بقدراتي العقلية» لتمويل حياته العاطفية المتخمة.

وتعكس قصائده ومسرحياته انفصامًا مشابهًا، فمن ناحية، هناك من يسمون الأبطال البايرونيين، وهم شخصيات شيطانية أصابها حزن أو ذنب خفي، ومنفية في أماكن منعزلة، وقد استسلمت للإفراط في الشراب أو الثورة: إنها إسقاطات شعرية لذلك الغريب الذي كثرت فضائحه وتشوه تشويهًا فطريًا، ذلك البايرون الذي كانت أجيال من المعجبات تهفو إلى خصلات شعره وصوره الزيتية المصغرة.

ومن ناحية أخرى، نجد الشاعر الذي كتب «بيبو» و«دون جوان» ويجعله لطفه ودقته الشديدة أستاذًا للتظلم الخفيف الجاد، ولتراث دارج في الشعر الإنجليزي يعود إلى بتلر وسويفت ويتطلع إلى قصيدة ت. س. إليوت Vers de societe وبعض أفضل قصائد أودن. وقد أعطى بايرون لهذا الأسلوب مسحة أرستقراطية خاصة، هي ذلك الجلال الذي كان ينبئ عن طبقته ويعد في الوقت ذاته تعبيرًا ذاتيًا متفردًا، وربما كان هذا المسلك هو ما يتفق أشد ما يكون الاتفاق مع أسلوب بايرون في الرسائل الشخصية والمذكرات، وقد يكون بحق أكثر تعبيرًا عن بايرون «الحقيقي»، غير أنه لن يكون هناك بايرون حقيقي يتم التعبير عنه بدون الجانب المظلم. إن الاثنين يتداخلان، إلا أنهما لا يمتزجان، فقد مارس بايرون الأسلوبين بصورة أو بأخرى في وقت واحد في أعمال مختلفة، إلا أنه عادة ما كان يباعد بينهما، وكان يتلعثم عندما يعجز عن القيام بذلك.

وتبين رائعته «دون جوان» مدى إصراره على إبقائهما متباعدين. فالبطل - وهو إسقاط ذاتي عبقري وخيالي بصورة كوميدية - نقيض للدون جوانات الآثمة كما يبدو في التراث الأوروبي. ويشترك دون جوان بايرون مع الآخرين في عجزه عن مقاومة المعجبات، ولا شيء غير ذلك، فهو حيوان جنسي مفترس، ونادرًا ما يكون البادئ في علاقاته، ويدع النساء يملكن زمام الأمور، إنه سلبي (في المطاردة، وليس في الأداء). وهو هدف للمغازلة أكثر منه مغازلاً، فهو صورة صريحة للأرستقراطي الذي لا يحمل همًا وتلبى حاجاته دون جهد منه، وهذه الصورة الإنجليزية للمغوى طيب القلب، الذي يغوى إلى الإغواء، مصدرها رواية هنري فيلدنج «توم جونز» وليس مغامرات الدون جوانات في التراث الدرامي والأوبرالي ممن يبدون وكأنهم يتحسسون خطاهم مقارنة به.

وكانت حياة بايرون تتسم بالفخامة والعبث، وكان اللورد الشاب في حاضرة الأسرة في نيوستيد آبي يقلد ممارسات «نادي نار جهنم» التي تتسم بالعربدة والتجديف، فقد كتب أحد أصدقائه يقول: إنه هو وأصدقاؤه كانوا يرتدون مسوح الرهبان ويشربون البورجوندي في قحف بشرية و«بعد الاستمتاع بأطايب الطعام وأفخر أصناف النبيذ الفرنسي»، كانوا يشرعون فيما لا يصح ذكره من «لهو المساء»، حتى الساعات الأولى من الصباح. وعلاوة على العديد من قصص الحب المعروفة مع بنات الجنس اللطيف، وكذلك سلسلة من العلاقات الغرامية الأقل شأنًا مع الخادمات والعاهرات، كانت له سلسلة من العلاقات الشاذة جنسيًا، فكان إتيان الأطفال، وغشيان المحارم، والمازوكية، وارتداء ملابس الجنس الآخر (حيث رقص في زي حريمي مع صبي يوناني وكان يحب أن ترتدي زوجته ملابس الرجال) جزءًا من ذخيرته في هذا الشأن، وكانت أكثر عشيقاته إثارة للفضيحة الليدي كارولين لام، وكانت متزوجة من سياسي بريطاني بارز، تحب ارتداء زي الخادم، ويبدو أنه قال لها إنها تذكره بجون إلدستون، أحب عشيق شاذ إلى نفسه، وكان عضوًا بفريق كورال كمبردج ومات بالسل.



بايرون في زي ألباني، تصوير توماس فيلبس ١٨٢٥

وكانت علاقاته على قدر من التعقيد، وقد سعت الليدي ملبورن، حماة كارولين لام وعدوتها، سعيًا حثيثًا كي تصرف انتباه بايرون عن ابنة أخيها أنابيلا ملبانك التي تزوجها، وفي نفس الوقت الذي كان يتودد إليها، كانت له علاقات غرامية عديدة أخرى، بما في ذلك علاقة غشيان محارم مع أخته غير الشقيقة أوجستا، ومن الواضح أنه ضاجع الليدي ملبورن المسنة بالإضافة إلى ذلك. واستمرت هذه الممارسات بعد زواجه الذي انتهى بانفصال مشهود والنفي الدائم لبايرون وسط ادعاءات بغشيان المحارم والشذوذ الجنسي. وحدث أن كل امرأة كانت ترى مراسلات بايرون مع الأخريات، الأمر الذي خلق شبكة من التعقيدات الغريبة وتمثيليات النفوذ المتبادل إلى جانب حالات الغيرة والنفوس المجروحة، وعندما ولدت زوجة بايرون ابنتهما كان يعاني من انهيار عصبي وهدد بقتلهما معًا وطردهما من البيت، وقد تقبل بقدر أكبر من الاتزان مولد ابنته من أخته وابنة أخرى من أخت زوجته غير الشقيقة كلير كليرمونت، وإن بدا على بايرون أنه كان راضيًا إلى حد كبير بأبوته في كلتا الحالتين.

ما روته آيزلر عن زواج بايرون المفزع وإنهائه لأمر مثير للاهتمام، فمزاج بايرون المتأرجح وإخلاصه المذبذب، وزوجته أنابيلا، وخليلته أوجستا التي هي أخته غير الشقيقة، نقلته كله إلينا بفهم ينم عن حساسية شديدة، وبخصوص معاملة بايرون للنساء وسلوكه الذي كثيرًا ما يتسم بالقسوة والعصبية الشديدة، فإنها لا تخفف شيئًا ولا تسجل أمرًا بدافع من الحقد، ولا تبرز آيزلر أهمية النشاط الجنسي الشاذ في حياة بايرون وحسب، بل كذلك كثافته اليومية، على افتراض أنه مكمل طبيعي لحياته الجنسية الطبيعية شديدة النشاط. والسهولة التي كان ينتقل بها هو وبعض أصدقائه من نوع إلى آخر قد ترى غير عادية في زماننا هذا، إذ كانت حريتهم الجنسية تنطلق «دون اعتبار للنوع»، وهو الموقف الذي أعجب به بايرون في اليونان وتركيا، ولكن يبدو كذلك أنه جرى تطويره في دوائر مدرسته وجامعته (هارو وكمبردج)، إن لم يكن في المجتمع الإنجليزي بصورة عامة، قبل سفره إلى هذين البلدين بكثير.

إن هذا الكتاب يحدد بمهارة شديدة الصلات التي تربط بين تحدي بايرون للقواعد الأخلاقية السائدة وراديكاليته السياسية، حيث يفرق بينه وبين روسو وبين ابن طبقته الأرستقراطية شيلي، اللذين كان تمردهما الأخلاقي والسياسي جزءًا من معارضة مبدئية للمجتمع، وعلى العكس من شيلي، الذي كان يسعى إلى إلغاء السلطة وليس التجرؤ على قوانينها، فإن بايرون «ما كان ليقترح قط العيش خارج المجتمع، ولم يكن له اهتمام حقيقي بالإصلاح، فقد كان يرغب في خرق القوانين وليس تغييرها». وهو ينتمي بقوة إلى طبقة المتمرد النبيل، الذي يؤكد أن أساليبه الأرستقراطية هي حقوقه بالمولد التي لا يمكن لوضيع الأصل أن يطمح في الحصول عليها إلا من خلال التمرد الناجح. وكشأن النبلاء الفاسقين في النظام القديم، كان بايرون بحاجة إلى قوانين اجتماعية كي يزدريها ويحتقرها، وكانت لديه نقطة ضعف المستبدين الذين كانوا يستخدمون السلطة المطلقة كشرط يمكنهم من الإشباع الذي لا قيد عليه أو الغزو الكاسح: مثل حاكم ألبانيا المستبد علي باشا المنغمس في الملذات والمحب للغلمان (الذي كون معه صداقة تقوم على الإعجاب المتبادل)، أو نابليون الذي كان بايرون يشعر نحوه بعبادة البطل المتعارضة وجدانيًا، وهو ما كان أمرًا شائعًا بين المفكرين في العصر الرومانسي.

أمضى بايرون وقتًا قصيرًا وهو يفكر في خيالات أن يصبح زعيمًا لحزب الأحرار، وقد أثنى على أول كلمة يلقيها في مجلس اللوردات باعتبارها «أحسن كلمة يلقيها أحد اللوردات منذ زمن لا يعلمه إلا الرب». غير أن راعيه اللورد هولاند تنبأ بأنه لن «يتفوق في البرلمان». وفي تلك الأثناء، وفي ١٠ مارس ١٨١٢، كان للقصيدة Childe Harold أثرها الفوري وأصبح بايرون مشهورًا بين عشية وضحاها، وبذلك كان الشعر وليس السياسة سبيله إلى الأضواء.

ونقطة ضعف الكتاب هي تناوله غير الكافي لبايرون ككاتب، فهناك القليل جدًا عن حياته الفكرية، وعن التقاليد التي كان ينتمي إليها، وغيره من الشعراء (الإنجليز والكلاسيكيين والإيطاليين) الذين شكلوا أساليب قصائده المتعددة، بل إن تعليقات آيزلر على القصائد نفسها تفتقر إلى الأصالة وكانت غير دقيقة في بعض الأحيان، فعلى سبيل المثال يدل وصفها لبعض من لغة بايرون المرحة على أنها «سخرية سويفت القاسية» على قراءة غير واعية للكاتبين (ويبدو أن آيزلر معرضة لزلات كثيرة في موضوع سويفت)، ورأيها القائل بأن «دون جوان» هي «الحرب والسلام، الشعر الإنجليزي» ليس صحيحًا.

بترتيب خاص مع مجلة TLS البريطانية
ترجمة: أحمد محمود


تأكيداً لما تحقق من نجاحات ..
فتح باب الحجز للمرحلة الأخيرة من حى الأشجار
• حديقة خاصة لمالكى الطابق الأرضى
• روف جاردن لمالكى الطابق الأخير
• شقق بأسعار تبدأ من ١٢٢٥ جنيهاً للمتر
• تسهيلات فى السداد تصل إلى ٧ سنوات بدون فوائد
• تصميمات جديدة للمرحلة الأخيرة بمساحات مختلفة
• عمارات بجراجات خاصة ومصاعد كهربائية
• غرفة تخزين ملحقة بكل شقة
حى الأشجار
AL ASHGAR
حى الأشجار .. الدقة فى الاختيار
احد مشروعات المجموعة الدولية للاستثمارات
ADVISION

كاريكاتور



تميمة معرض لعام ٢٠٠٠
للرسام الإسبانى القطالونى «إلروتو»

ق ٢١ !

محيى الدين اللباد

■ ■ هذا الشهر، احتفلت الأسبوعية الفرنسية الشهيرة «كوربيير أنترناسيونال Courier International» (٦٩٠٠٠٠ قارئ للعدد الواحد) بالعيد العاشر لصدورها. والمجلة (ذات القطع الكبير والمستطيل الشبيه بقطع «آخر ساعة» القديم قبل نزول التخفيض على مقاسها مؤخرًا) لا تنشر سوى نصوص مترجمة مختارة من صحف ومجلات القارات الخمسة (حوالى ٨٥٠ دورية)، وتترجم تلك النصوص من لغاتها الأصلية إلى اللغة الفرنسية مباشرة.

من أنحاء المعمورة -أيضًا- تختار المجلة من صحف ومجلات القارات الخمسة رسومًا كاريكاتورية تنشرها مع النصوص، ولا يترجم الرسم منها ما يقوله النص، ولا يفسره بالضرورة، بل يكفى أن يكون نشره مع النص المجاور «مبررًا بشكل ما».

ولا يقتصر تفتيش المجلة، عن نصوص ورسوم، على الدوريات الشهيرة فى العالم، بل تصل ذراعها الطويلة إلى أقصى بقاع الدنيا: فهى -مثلاً- لا تفتش فى منطقتنا فى «الأهرام»، و«الحياة»، و«النهار»، و«السفير»، و«الشرق الأوسط»، فقط، بل تجدها قد اختارت نصًا من مجلة لبنانية صغيرة، أو من جريدة كردية محلية متواضعة، أو تجدها وقد اختارت رسمًا كاريكاتوريًا من بوركينا فاسو. وعلى مدى السنوات العشرة الماضية، نشرت المجلة أكثر من ١٥٠٠٠ رسم لما يزيد على ١٠٠٠ رسام من مختلف بلاد العالم.

واتساقًا مع تركيبتها الخاصة، تورطت مجلة «كوربيير أنترناسيونال» -منذ العام الماضى- فى إقامة معرض سنوى دولي لرسوم الكاريكاتور من مختلف بلاد العالم. ويشارك فى معرض هذا العام ١٠١ رسام ورسامة، منهم فقط ٣ رسامات، وكأن صنعة الكاريكاتور هى صنعة الرجال وحدهم!. ولم يحدد المنظمون -كما هى العادة فى أغلب المعارض الأوروبية الأخرى- موضوعًا للرسوم المشاركة، بل كان الشرط الوحيد أن يكون الرسم قد نشر فى الفترة ما بين أول ١٩٩٩ وخريف ٢٠٠٠. ولذا حفل المعرض برسوم الكاريكاتور السياسى والاجتماعى والثقافى الساخنة، وكأن من يحددون موضوعات معينة لمعارضهم الكاريكاتورية يقصدون استبعاد ذلك النوع من الرسوم الذى لا يتمتع ببرودة كافية.

يعكس المعرض الذى أقيم فى مدينة «روان» بمقاطعة «نورماندى» عددًا من الظواهر:

«العولمة» هى الظاهرة البارزة فى المعرض، وتتضح فى عدة تجليات: أولها أن الرسام لم يعد يرسم للصحف الصادرة فى مدينته أو حتى فى دولته فحسب، بعد أن سهلت له وسائل الاتصال الإلكترونى الحديثة وصول الرسم الملون أو بلون واحد مباشرة إلى الصفحة التى سينشر بها، ورأسًا من قرية صغيرة فى قارة بعيدة تفصل المحيطات والصحارى بينها وبين القارة الأخرى التى تصدر فيها المطبوعة. وتستقبل صفحة الدورية الرسم الكاريكاتورى فى دقة بالغة لم تكن ممكنة -منذ سنوات قليلة- حين كان الرسام يرسم رسمه فى الغرفة المجاورة للغرفة التى تُنجز فيها صفحات الجريدة.

كما سهلت «العولمة» غزو رسامى كاريكاتور من بلاد (ليست هى الأكبر ولا الأقوى) بلادًا أخرى (ليست هى الأصغر والأضعف مهنيًا وفنيًا وتقنيًا). غزا رسامو الكاريكاتور الإسبان (خاصة القطالونيين منهم) الصحف الكبرى فى أوروبا، مثلما يحتلون الكثير من مساحات الكاريكاتور المختار والمنشور فى المجلة التى أقامت هذا المعرض. وغزا عدد من أهل «الكار» الأوروبيين الدوريات الكبرى فى الولايات المتحدة، واحتلوا عددًا من أغلفتها وصفحاتها الأولى. وتمددت أراضى الكاريكاتور الروسى والبولندى، وسيطر الكاريكاتوريون الروس الجدد على أراض واسعة خارج حدود بلادهم اقتطعوها من غرب أوربا. وبرزت فى الصحافة الأوروبية ظاهرة بولندية جذبت الانتباه والاهتمام فى كل العالم، هى يومية «غازيتا ويبورتشا» وملحقها اليومى الملون «ماغازين». وتقدم هذه الجريدة وملحقها رسومًا تتعدى الجنس التقليدى لرسم الكاريكاتور المختزل الخطوط والذى غالبًا ما يتسم طابع السرعة. وينحو كاريكاتور الجريدة / الظاهرة البولندية أكثر نحو رسوم فن الحفر المركبة الحافلة بالذاتية والشجن والمهارة التقنية العالية، والتى تعكس ثقافة ووعيًا استثنائيًا وتقترب من طروحات الشعر الحديث والأدب الكبير.

تطل «العولمة» -أيضًا- فى شكل مواقع الإنترنت التى تنشر رسوم الكاريكاتور بشكل دورى، بما ينبئ بظهور قريب للصحافة الكاريكاتورية غير الورقية عندنا، بعد أن أصبحت حقيقة واقعة فى أوربا وأمريكا. فقد ظهر فى المعرض عدد من الرسوم منسوبة إلى موقع فرنسى يدعى webmatin. وهو موقع لا يكرر نشر الرسوم نقلاً عن الصحف الورقية، بل أصبح رسامو الكاريكاتور يقدحون زناد أفكارهم، ويرسمون خصيصًا لهذا النوع من المواقع، التى يزورها القارئ «غير الورقى» -قصدًا وليس بالصدفة- ليتصفح ما عليها من رسوم جديدة أو «بايتة».

يصدر هذا الموقع يوميًا، والرسوم عليه ملونة، وبعضها يتحرك حركة مركبة مثل حركة أفلام الرسوم المتحركة. والموقع مفتوح أمام زواره مجانًا لوجه الله حتى تاريخه. لكن على كل صفحاته إعلان ثابت عن يانصيب فرنسى مشهور يبدو أنه الممول المالى للموقع!. وكان أحد الرسوم المشاركة من هذا الموقع لرسام شاب مغربى (أو من أصل مغربى) اسمه «ياسين» يشارك فى المعرض تحت علم فرنسا.

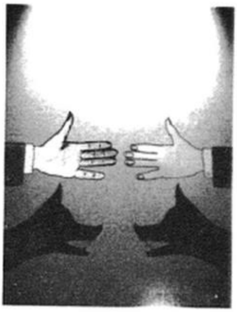
ظهر أيضًا عدد من رسوم الكاريكاتور تتناول الكمبيوتر وعالمه ولزماته التى تكاد مصطلحاتها الحروفية أو المرسومة أن تصبح لغة عالمية جديدة، يفهم أغلب الناس معانيها بدون التباس يذكر.

مُنحت الجائزة الكبرى لمعرض هذا العام، مناصفة بين الرسام اليابانى «نوريو» والرسام الجزائرى الشاب «على ديلم» (٣٣ سنة) الذى هاجر إلى فرنسا لبضع سنوات «هربًا من تهديدات بالقتل»، ثم عاد مؤخرًا إلى بلده ليستأنف نشاطه الكاريكاتورى فى الإصدار الجديد لمجلة «المنشار» التى كان توزيعها قد بلغ ١٥٠٠٠٠ أسبوعيًا عند بدء إصدارها قبل ما تعرضت له الجزائر من مصائب سوداء حالكة.

ولا تبدو أعمال «على ديلم» استثنائية إلى هذا الحد، لكن قد تكمن أهميتها فى جنسية الرسام والموضوع المتناول. فالموضوع الجزائرى لا يزال أثيرًا لدى الإعلام الفرنسى منذ عدة سنوات، وتصورهم لهذا الموضوع ثابت و «نهائى»!.

اشترك فى المعرض من الكاريكاتوريين العرب: بهجت عثمان، جورج البهجورى، محيى الدين اللباد (مصر) ويوسف عبدلكى، سعد حاجو (سورية) ديلم، عمارى، نسيم (الجزائر) وحبيب حداد، ستافرو (لبنان) وأمية (فلسطين)، وهى رسامة شابة من الثلاث رسامات المشاركات فى المعرض!. كانت تلك نسبة اشتراك الرسامين العرب فى المعرض، إلا أن نسبة أعمالهم الكاريكاتورية المنشورة ضمن اختيارات المجلة طوال العشر سنوات الماضية ليست كذلك، بل تبدو أقرب إلى الندرة، وتنحصر فى عدد محدود للغاية من الرسامين العرب.

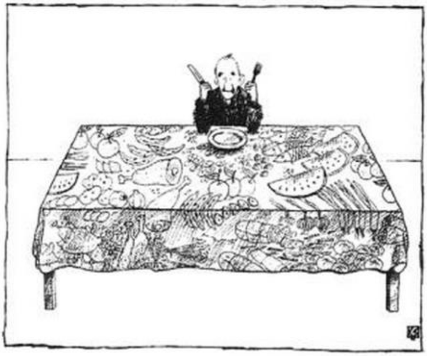
كما عرض المعرض أعمالا لأربعة رسامين من إيران، التى هجرتها -بعد ١٩٧٩- نخبة كاريكاتورييها المثقفين الذين رسموا -من قبل- لنخبة من مواطنيهم المثقفين. ولم يبق على



• ألبانيا
ليكه ريكوفا



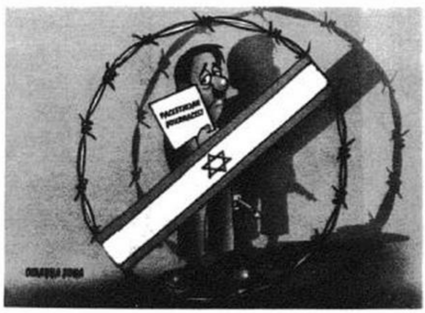
• بولندا
مجلة «غانريتا ويبورتشا»
زبجنيو كولاتشيك



يوسف عبدلكي (سورية) : مائدة جزائرية



محيى الدين اللباد (مصر) الاقتصاد العالمي الجديد [راجع أيضًا العمود الأيسر]



أميّة جحا (فلسطين) : ٣/١ نسبة الرسامات المشاركات، ورسم منجز على الكمبيوتر



ياسين (مغربي تحت علم فرنسا) : إفريقيا : انهيار الأسواق المالية

– ما تخافش، لأنك قريب من الأرض، لما تقع مش ح يجرى لك حاجة! [رسم من موقع webmatin]



كراوزه (بولندا سابقًا وبريطانيا حاليًا)



باريج (سويسرا)



باروس (فرنسا)



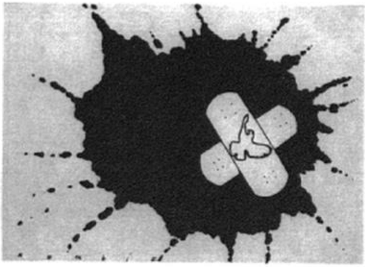
• روسيا



مسيوك

بوتين (فى زى هاملت):
اكون أو لا أكون. تلك هى المشكلة !

• إيران



قمبيز درام بخش



مانا نيستانى



أردشير رستامى



أروين

مذاود الكاريكاتور الإيرانى -حينذاك- سوى شررساميه وأكثرهم ابتذالأ وقلة صنعة ونفاقًا لأولى الأمر. كان أحد الرسامين الأربعة العارضين من رسامى النخبة الذين تركوا بلادهم عام ١٩٨٠. ويعد هذا الرسام: «قمبيز درام بخش» واحدًا من أصحاب الريشات الرفيعة المثقفة المتالقة والمعتمدة فى صحافة أوروبا التى يعيش فيها منذ ترك بلاده. وها هو يشارك فى هذا المعرض تحت علم ألمانيا وليس إيران. أما الثلاثة الآخرون: أرونى (مواليد ١٩٨٠) ونيبيستانى (مواليد ١٩٧٣) ورستامى (مواليد ١٩٧٠) -والذين نلاحظ أن أكبرهم عمرًا فى الثلاثين- فقد قدموا رسومًا أكثر من مقبولة ومتقدمة وعلى الخط الحديث. وكلهم يعيشون وينشرون داخل حدود بلادهم. وكل رسومهم تغمز إلى حرية الرأى وحرية الصحافة.

وقبل موعد الإغلاق، لابد أن نمر -ولو مرور الكرام- لنستطلع كاريكاتور البوسنة والهرسك وألبانيا وكرواتيا وبوركينا فاسو وكينيا ونيجيريا. وسنشاهد فيها عالمًا يركض ويتعلم ويستوعب ويتغير.

فى المعرض كثير مما يدفعنا لأن نتعلم منه، ونتعظ، ونفتح أبصارنا وعقولنا: إذ لم تعد الدنيا هى الدنيا، ولم يعد الكاريكاتور هو الكاريكاتور الذى باهينا به الأمم يوم كنا فى منتصف الخمسينيات (مدرسة «روز اليوسف» و«صباح الخير» فى مصر)، وظللنا نستهلكه ونكرره ونستنسخه ونعيد فيه ونزيد حتى استنفدناه ولم يبق منه -بعد حوالى ٥٠ عامًا- شىء تنبض فيه الروح. ولم يعد الكاريكاتور هو أيضًا ذلك الكاريكاتور الذى ظهر عندنا مع عصر الانفتاح وأعاد إلى مساحات الكاريكاتور الرئيسية تلك الفكاهة الصادرة من المسطولين الغائبين فى دخان الحشيش، والذين يتداولون حوارًا عبثيًا تحشيشيًا «يميت من الضحك» ويجعل قارئه «يستلقى على قفاه».

ولم يعد الكاريكاتور هو ذلك الكاريكاتور المكرر المرسوم بتسرع والذى يحمل أيضًا شعارات أو حوارات لفظية «معادية للإمبريالية»، ومفارقات (لفظية هى الأخرى) أعدت على عجل تهاجم الأعداء الخارجيين، وغياب الديمقراطية، وعدم الالتفات إلى سوء حال الشعب، وتشير إلى تبعية الأنظمة إلى الدول الأعظم. تلك الرسوم التى تنساها بمجرد تحول بصرك عنها، ثم تراها مكررة (تقريبًا) فى نفس الأمكنة فى الأعداد التالية. ويكتشف القراء -ببساطة- أن هذه الأعمال قد أنجزت بإهمال، وبدون إعمال العقل والقلب بدرجات كافية، بل جئ بها من أقرب الأبواب.

والكاريكاتور -أيضًا- ليس هو الثبات عند التقليد السهل للكاريكاتور البلقانى الذى توسع رسامو عدد من البلاد العربية المشرقية فى جعله مصدر «إلهامهم» ومنبع كاريكاتوراتهم التى لا تحمل حوارًا ولا تعليقًا، وتعرض بالاستبداد، وتهجو من احتكروا كراسى السلطة لحسابهم. صارت المسالة مكررة يا إخوان، واكتشف القارئ بساطة وسذاجة تلك الماكينة البسيطة، التى يمكن الحصول عليها بسهولة: ماكينة صنع أفكار الكاريكاتور البلقانية!

حتى كاريكاتورات ناجى العلى التى كانت مثقلة بالمأساة والأحزان والنساء الباكيات، لم يعد من الممكن تكرار ما يشبهها من جديد، وليس مضمونًا أن تصدم قراءها نفس الصدمة التى كان الجمهور يطالب بها الفنان الراحل بتلذذ واشتياق فى السبعينيات وأوائل الثمانينيات، مثلما كان يتطلبها من أغانى الشيخ إمام عيسى حينذاك.

يبدو أن علينا أن نبحث عن كاريكاتور جديد لقارئ هذا الزمان، وأيضًا للقارئ القديم المشتاق للجديد لكنه لا يملك القدرة على توصيف دقيق لما ينتظره. وعلينا أن نكف عن استخدام حجة عدم توفر الديمقراطية أمام الكاريكاتوريين، إذ كيف سيكون الكاريكاتور فعالا وجاذبًا وصادمًا ولماحًا إذا كان الطريق أمامه سهلاً وممهدًا وسالكًا مثل حياة «أولاد الناس المرفهين»؟

وعلى ضوء ما شاهدناه، يكون من البديهى أن نتوقف قليلاً، ونتبين موقع وقوفنا، ونحاول تقييم أحوالنا الكاريكاتورية الراهنة ■



هاف (البوسنة): تغير الأحوال بين ١٩٩٣ و ٢٠٠٠!
[من سلسلة بعنوان «حزب الزبالة»]

كتاب الزاوية

الأمير

٢ - فى الشدة واللين

يجب على كل أمير أن يرغب فى أن يعد رحيمًا لا شديدًا، وأن يهتم بألا يسيء استخدام هذه الرحمة بأية حال. لقد عد قيصر بورجا شديدًا، ولكن شدته هى التى أتت بالنظام والوحدة فى رومانا، وجعلت الأمن يستتب فيها، والولاء يسود. ولذا يجب على الأمير ألا يعبأ بأن يتهم بالشدة مادامت من أجل المحافظة على وحدة رعاياه وولائهم؛ لأنه حين يشتد مع عدد قليل جدًا يكون أرحم من هؤلاء الذين يتمادون فى اللين فيتيحون قيام القلاقل، ومن هنا تراق الدماء، ويحدث النهب. وهذه الأمور كقاعدة تضر جماعة فى مجموعها، بينما تنفيذ الإعدام فى أفراد لا يؤذى غيرهم. ونجد من بين جميع الأمراء أن الأمير الحديث العهد لا مناص له من الاشتهار بالشدة، لأن الولايات الجديدة حافلة بالأخطار دائمًا.

ومازلنا نقول بأنه ينبغى للأمير أن يجعل نفسه مهابًا بطريقة إذا لم تكسبه الحب فهى تقيه من البغضاء على أية حال، لأن الخوف وعدم الكراهية قد يسيران معاً سيراً حسنًا، ويصل إليهما على الدوام إنسان يمتنع عن التدخل فى ملكية مواطنيه ورعاياه ونسائهم. وحين يضطر الأمير إلى أن يعدم فردًا ما فدعه يفعل ذلك حينما يكون هناك تبرير صحيح له، وعلة واضحة. ولكنه يجب أن يمتنع أولاً عن أخذ ملكية غيره، لأن نسيان البشر لموت آبائهم أيسر عندهم من نسيان ضياع ملكهم.

وعلى ذلك أقول فى الختام، فيما يتعلق بمهابة الأمير ومحبته، إن الناس يحبون بإرادتهم الحرة، ولكنهم يخافون برغبة الأمير؛ والأمير العاقل يجب عليه أن يركن إلى ما فى سلطانه لا سلطان سواه، وما عليه سوى السعى إلى مجانبة ما يجلب عليه الكراهية.

أدب

حقول عدن الخضراء
أنطونيو غالا
ترجمة: عبد اللطيف عبد الحليم
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠

مسرحية عن الحرب الأهلية الأسبانية، لكنها تحتشد بقضايا فلسطينية عديدة عن الحياة والموت والوجود والعدم وغيرها.

■■■

عاشقة بألوان قوس قزح.. جرح عميق فى برميل مازوت
جورج شامي
بيروت: دار الجديد، ٢٠٠٠

مجموعة قصصية للمؤلف بعد فترة انقطاع دامت نحو ٤٠ سنة، وتضم قصصًا يدور معظمها فى إطار اجتماعي، عن الأسرة والخيانة والفقر والحاجة.

■■■

عين السراب
عيسى مخلوف
بيروت: دار النهار، ٢٠٠٠

نصوص نثرية تلملم سيرة المؤلف الذاتية وذكرياته عن الأمل والوطن، ذكريات تربط الماضي بالحاضر والجدي بالعبث والصبا بالطفولة، والبراءة بعذابات الناس التي لا تنتهي.

■■■

هناك أشياء تغيب
زينب حفني
بيروت: دار رياض الريس للنشر، ٢٠٠٠

مجموعة قصصية جديدة للقاصة السعودية، تسعى عبرها إلى صياغة الوجود بكلمات بسيطة موحية، تستحضر من خلالها الغائب وتغيب الحاضر، كي تصنع الوجود كما تحب أن تراه، مخلفة مشاهد متحركة للوجود الإنساني عبر أزمنة مختلفة.

إعـــلام

فى الأنظمة الإذاعية المعاصرة
مويدا فتحي
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

دراسة عن الخدمة الإعلانية الإذاعية المعاصرة، حدودها وطبيعتها ومدى ارتباطها بالأهداف التجارية.

ويتناول الكتاب فى قسم آخر القيود والضوابط التي تنظم العملية الإعلانية فى الأنظمة الإذاعية المختلفة، وحدود مراعاة هذه الضوابط، ذات الأبعاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

■■■

The Associated Press: Stylebook and Briefing on Media Law
(كتاب الأسوشيتد برس لقواعد الأسلوب وموجز قوانين الإعلام)
Norm Goldstein (editor), The Associated Press
Perseus Books, 2000, 352pp., $16.00 (Pb)

دليل ومرجع للصحفيين والكتاب الذين يكتبون باللغة الإنجليزية، يحتوي على إرشادات مختلفة مثل قواعد استخدام علامات الترقيم وأسلوب التوثيق الببليوجرافي وطريقة كتابة كلام الصور، كما يحتوي الكتاب على قسم خاص بقوانين الصحافة والإعلام.

■■■

Anything Goes!: What I've Learned From Pundits, Politicians, and Presidents
(ما تعلمته من العلماء والساسة والرؤساء)
Larry King, Pat Piper
Warner Books, 2000, $25.95

يكتب مذيع قناة CNN اللامع لاري كنج آراءه وملاحظاته حول الأحداث المهمة التي جرت فى العشر سنين الماضية، وذلك من خلال ذكرياته مع أشهر الشخصيات السياسية والعلمية والفنية التي استضافها فى برنامجه «لاري كنج لايف».

اقتصاد وتجارة

الإصلاح الاقتصادي فى سورية
نبيل سكر
بيروت: دار رياض الريس للنشر، ٢٠٠٠

يعاني الاقتصاد السوري، كغيره من الاقتصادات العربية من أوجه عديدة للخلل، وهو خلل يعرقل برامج التنمية وخطط التقدم. المؤلف يقدم مقترحاته للإصلاح الاقتصادي وعلاج بعض المشكلات مثل البطالة وضعف الاستثمارات وغيرها.

■■■

اللغة والاقتصاد
فلوريان كولماس
ترجمة: أحمد عوض
القاهرة: عالم المعرفة، ٢٠٠٠

عن التأثير المتبادل بين اللغة والاقتصاد، وكيف يمكن للاقتصاد أن ينحت فى قاموس اللغة، وتأثير وتنوع المستوى الاقتصادي فى المجتمعات.

■■■

اليورو وأسواق المال الدولية والعربية
منى قاسم
القاهرة: الأكاديمية العربية للعلوم المالية والمصرفية، ٢٠٠٠، ١٢٤ص.

الكتاب الأول فى سلسلة قضايا مصرفية التي تصدرها الأكاديمية العربية للعلوم المصرفية، ويتناول موضوع الاتحاد الاقتصادي والنقدي والعملة الموحدة «اليورو» وما يمكن أن يكون لها من آثار على أسواق المال الدولية والعربية على السواء.

■■■

Maestro: Greenspan's Fed and the American Boom
(مايسترو: جرينسبان والازدهار الاقتصادي فى أمريكا)
Bob Woodward
Simon & Schuskr, 2000, 272pp., $17.99

يتناول المؤلف مدى تأثير آلان جرينسبان رئيس مجلس إدارة الاحتياطي الفدرالي الأمريكي على ازدهار واستقرار الاقتصاد فى أمريكا، بل إن هناك من يرجع له الفضل فى إنقاذ الاقتصاد العالمي من الانهيار، كما أن وجوده فى منصبه حتى عام ٢٠٠٤ يعد السبب الرئيسي فى عدم الاهتمام بمؤهلات رئيس الولايات المتحدة المقبل.

بيئـــة

Ocean's End: Travels Through Endangered Seas
(نهاية المحيط: رحلات فى بحار مهددة بالخطر)
Colin Woodward
Basic Books, 2000, 320pp., $26.00

بعد عام ونصف قضاها فى زيارة محيطات العالم، يكتب وودوارد عن الحالة المؤسفة التي وصلت لها البحار بسبب الإفراط فى الصيد فى بعض الأماكن، وتسربات زيت البترول، والنفايات الصناعية، والتجارب النووية، والمنشآت السياحية. وهو يؤكد أن تدمير الإنسان للبحار من حوله وإهماله إزاءها نابع من اعتقاد خاطئ مرده أن المحيطات تجدد نفسها وأنها خزانات لا نهاية لها. والحقيقة أن المحيطات لها حدود تقع فى نطاق قدرتنا على تدميرها، والمخلفات التي نصرفها فى البحار لا تختفي. ويقدم وودوارد أمثلة من البحار التي دمرت بالفعل وأولها البحر الأسود، ثم خليج مكسيكو، وجنوب الهادي، وغيرها.

■■■

You Can't Eat GNP: Economics as Though Ecology Mattered
(أنت لا تستطيع أن تأكل الناتج القومي الإجمالي: الاقتصاد فى حالة الاهتمام بالنظام البيئي)
Eric Davidson, George M. Woodwell
Perseus Press, 2000, 247pp., $24.00

يحمل الكتاب رسالة واضحة وعاجلة من عالم اقتصاد شهير: «النظام الاقتصادي سوف يفشل إذا لم يدر النظام البيئي بعناية». ويفسر دايفدسون العلاقة بالمثال الآتي: فى حين يضع النظام الاقتصادي السائد قيمة مرتفعة على منتج استهلاكي مثل الخبز، يضع قيمة أقل على أهم مكوناته وهو الدقيق، ثم يضع على القمح قيمة أقل فأقل، أما التربة التي ينمو فيها القمح فيضع لها أقل قيمة على الإطلاق، وعلى هذا يكون الهرم الاقتصادي معاكسًا تمامًا للهرم البيئي، فى حين أنه ينبغي النظر للتربة على أنها مصدر توازن الهرم بأكمله.

تاريخ

بحوث المؤتمر الدولي حول العلم والمعرفة فى العالم العثماني
إعداد: صالح سعداوي
تركيا: مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، ٢٠٠٠

حول ما قدمته الخلافة الإسلامية العثمانية للإنسانية فى مجالات العلوم والفنون، والنظم التعليمية العثمانية التي سادت فى الولايات الإسلامية، ويتضمن الكتاب قسمًا خاصًا عن السياسة فى الدول العثمانية.

■■■

غواية إسرائيل.. الصهيونية وانهيار الاتحاد السوفيتي
أشرف الصباغ
القاهرة: حورس، ٢٠٠٠

بانوراما تاريخية تمتد لنحو قرن ونصف، يحلل فيها الكاتب موقف الصهيونية من انهيار الاقتصاد الروسي، وموقف المفكرين الروس من اليهود، ويعرض لنماذج تطبيقية من الأدب الروسي تدلل على تلك المواقف.

■■■

فى تاريخ العرب
نقولا زيادة وآخرون
دمشق: دار طلاس، ٢٠٠٠

فى تاريخ العرب أحداث ورجال لعبوا دورًا بالغ الأهمية فى توجيه مجريات تلك الأحداث، المؤلف يعرض لتلك الأحداث الحاسمة التي غيرت شكل الحياة فى الوطن العربي وتأثيراتها سياسيًا واجتماعيًا.

■■■

فلسطين فى القرن العشرين.. وقفات إحصائية
فلسطين: الجهاز المركزي للإحصاء، ٢٠٠٠

يلقي الكتاب عبر فصول أربعة، الضوء على تاريخ فلسطين، ويرصد تطورها إحصائيًا فى كافة المجالات، وانعكاس الأرقام ودلالاتها على المجتمع الفلسطيني، فيتناول عدد السكان والمستشفيات والمدارس والجامعات، وكذلك نسبة الفلسطينيين إلى الإسرائيليين وكيف اختلفت هذه النسبة وتحت أي ظروف.

■■■

The View from Nebo: How Archeology is Rewriting the Bible and Reshaping the Middle East
(كيف يعيد علم الآثار كتابة الكتاب المقدس ويعيد تشكيل الشرق الأوسط)
Amy Docksar Marcus
Little Brown, 2000, 272pp., $25.95

يتناول الكتاب النظريات الجديدة التي يسوقها علماء الآثار المعاصرون عن تاريخ منطقة الشرق الأوسط من خلال اكتشافاتهم الأثرية لبعض المواقع التي ذكرت فى الكتاب المقدس.

تراث

زيل الأمالى والنوادر

أبى على إسماعيل بن القاسم البغدادى

القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ٢٠٠٠

عن أخبار العرب ومراثيهم وحياتهم، وأهم الحوادث والنوادر التى وقعت فى الجاهلية والإسلام، منها خبر سفانة بنت حاتم الطائى مع والدها وأخواتها، ومرثية محارب بن دثار لعمر بن عبد العزيز، وحديث ثبيت البصرى مع بعض الأعراب، وغيرها من أحاديث العرب ونوادرهم.

■■■

شمسات شباطية

بو على ياسين

دمشق: دار الكنوز الأدبية، ٢٠٠٠

الطرائف والنوادر من الفنون العربية القديمة، وأهم وأشهر ما عرف من كتب العرب فى هذا الباب كتاب «الأغانى» للأصفهانى، و«البخلاء» للجاحظ، المؤلف ينهل من هذا المعين الثرى، لكنه لا يغيب عن الحاضر ونوادره خصوصًا السياسية منها، وجميعها من نوع الكوميديا السوداء، لكنها فى نهاية المطاف نوادر تستحق أن تروى.

سياسة

البحرين.. قصة الصراع السياسى

محمد عبد القادر الجاسم وسوسن الشاعر

الكويت: المؤلفان، ٢٠٠٠

تحكى الدراسة قصة البحرين والصراع السياسى حولها قديمًا، وعلاقتها ببريطانيا، ثم كفاح البحرين حتى صارت كيانًا سياسيًا مستقلاً.

■■■

التطبيع ومقاومة الغزوة الصهيونية

حسن عبد الرازق

القاهرة: سطور، ٢٠٠٠

وقعت معاهدات سلام بين بعض الدول العربية وإسرائيل، لكن «التطبيع» الذى سعت إليه إسرائيل لم يتحقق لكونه يرتكن أساسًا على الشعوب، والشعوب بحسها التلقائى رفضت التطبيع ولم تتقدم خطوات فى اتجاهه، وقد مثل هذا الرفض مقاومة شعبية للغزوة الصهيونية فى بعدها الثقافى على الأقل.

■■■

الحركات الإسلامية والديمقراطية، المواقف والمخاوف المتبادلة

المحرر: على خليفة الكوارى

الكويت: دار قرطاس، ٢٠٠٠

مجموعة أبحاث ألقيت فى ندوة عن الإسلام والديمقراطية، وبالأخص عن الحركات الإسلامية السياسية وموقفها من قضية الديمقراطية التى تمثل ركيزة أساسية لبناء المجتمع المدنى.

■■■

الجولان بين الحرب والسلام

باحثون إسرائيليون

ترجمة: أحمد أبو هدبة

بيروت: مركز الدارسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، ٢٠٠٠

أربعة عشر باحثًا إسرائيليًا شاركوا فى هذا الكتاب، ونقاشاتهم تعكس مختلف وجهات النظر الإسرائيلية الرسمية وغير الرسمية عن مسالة التسويات الإقليمية فى المنطقة، وفى السودان على وجه الخصوص، كما يتتبع الكتاب المواقف السورية طوال مراحل الصراع، ويشرح أهمية موقع الجولان فى الصراع العربى الإسرائيلى.

■■■

العولمة والجات

عبد الواحد العفورى

القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٠

اتفاقيات الجات هى أحد إفرازات العولمة فى بعدها الاقتصادى، حيث تعنى الجات مزيدًا من حرية انتقال السلع بلا قيود بين البلدان المختلفة، وتخفيف الإجراءات الجمركية والحمائية، إنها عولمة للسوق، فهل تمضى المسالة فى سبيلها هذا دون تأثيرات سلبية على الدول النامية؟

■■■

الفلسطينيون فى الكويت وأزمة الخليج

توفيق أبو بكر

عمان: مركز جنين للدراسات، ٢٠٠٠

انعكس الموقف الرسمى الفلسطينى إبان حرب الخليج الثانية على أوضاع الفلسطينيين فى دول الخليج العربى وبينها الكويت، وهذه الدراسة تعنى بهؤلاء الذين دفعوا ثمن المواقف الرسمية ماديًا ومعنويًا.

■■■

المقاومة وتحرير جنوب لبنان

عبد الإله بلقزيز

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠

قدمت المقاومة اللبنانية الباسلة فى جنوب لبنان نموذجًا فريدًا لما يمكن أن تثمره حروب التحرير غير النظامية، حزب الله ليس مجرد مجموعات مقاومة ضد المحتل الأجنبى، إنها «حالة» فكر وأيديولوجيا وإيمان بالهدف، مدعومة بتخطيط مدروس تمكن من تحقيق ضربات موجعة، دفعت الإسرائيليين إلى الفرار بعاوهم من مستنقع الجنوب، المؤلف يحدثنا عن دور هذه المقاومة فى تحرير الجنوب اللبنانى، بوصفها نموذجًا قابلاً للاقتداء.

■■■

سنوات الفوضى والجنون

محمد خوجة

الجزائر: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف سنوات حكم الرئيس الشاذلى بن جديد، التى يرى أنها سبب رئيسى فيما آلت إليه الأوضاع فى الجزائر من تدهور، كما يحمله المؤلف مسئولية تفشى العنف والإرهاب، وتحويله الجزائر من دولة سياسية إلى دولة إدارية، صار هو - بحسب رأى المؤلف - حاكمها وسيدها الأوحد.

■■■

Nation and Race: The Developing Euro American Racist Subcuture

(الثقافة الفرعية العنصرية الناشئة في أمريكا وأوروبا)

Jeffrey Kaplan and tore Bjorg (editors)

Nor theaskrn Up, 2000, 273pp., $20.00

مجموعة من المقالات الدراسية التى تتناول ظاهرة نمو الثقافة العنصرية الجديدة في كل من أوروبا وأمريكا، وبالرغم من التشابهات العديدة بين اليمين المتطرف في القارتين، إلا أن الكتاب يبين أيضًا أوجه الخلاف، ومن ضمنها خصوصية كراهية المهاجرين في أوروبا كسبب رئيسى لنمو الحركات العنصرية، بينما تنبع العنصرية واليمين المتطرف في أمريكا من المعتقدات الدينية وشيوع نظريات المؤامرة.

■■■

Saddam's Bombmaker: The Terrifying Inside Story of the Iraqi Nuclear and Biological Weapons Agenda

(صانع قنابل صدام: أجندة الأسلحة النووية والبيولوجية العراقية.. القصة من الداخل)

Khidher Hamza, With Jeff Stein

Scribner, 2000,352pp., $26.00

المؤلف عالم طبيعة نووية، عراقى الجنسية، رأس برنامج الأسلحة النووية العراقى لعدة سنوات قبل أن يتخلى عن منصبه، ويروى هنا مشاهداته الشخصية عن دوائر الحكم العراقية، ومدى ضعف الجهود الدولية في الحد من انتشار الأسلحة النووية، حيث يواصل رجال الأعمال الأوروبيون بيع السلاح النووى إلى صدام، حتى أن أجهزة المخابرات في ألمانيا وفرنسا وبريطانيا تساعد العراق في برنامج تسليحه النووى كما يقول خضر حمزة، ومن ناحية أخرى يبين حمزة كيف أن الوكالة الدولية للطاقة النووية تيسر الانتشار النووى بدلاً من أن تحد من انتشاره، حيث كان العملاء العراقيون يستخدمونها في الحصول على معلومات تقنية مهمة، كذلك استخدم فريق القنبلة العراقية وثائق من مشروع مانهاتن الخاص بالحرب العالمية الثانية، وكان قد أفرج عنها الضباط الأمريكيون ظنًا منهم أنها لا تحوى قيمة تقنية لصناع السلاح النووى المعاصرين، وفي النهاية يؤكد حمزة على أن صدام لا ينقصه سوى بعض المواد القليلة اللازمة لصنع القنبلة النووية، وما أن يحصل عليها سوف يقوم لا شك باستخدامها.

سير ومذكرات

السجل الكامل

افونسو دبلو كيرك، عبد الرحمن الشيخ

أبو ظبى: المجمع الثقافى، ٢٠٠٠

عن أهم أعمال دبلو كيرك، ثانى نواب الملك البرتغالى على الهند، وسياسته الاستعمارية التى أثرت فى المجتمع الهندى والدول المجاورة، وموقفه من الحركات التحررية هناك.

■■■

ذكريات أيام السياسة

عبد السلام العجيلى

بيروت: رياض الريس للنشر، ٢٠٠٠

يسجل هنا الأديب والطبيب والوزير السابق ذكرياته عن مرحلة النشاط السياسى التى تولى فيها عددًا من المناصب الوزارية فى سورية عام ١٩٦٢، ليس تاريخًا سياسيًا، لكنه كتاب لمفكر وباحث مهموم بالعلاقات بين بلاده والبلاد المحيطة بها، مستفيدًا من خبراته الأدبية كروائى.

■■■

رجال فى تاريخ الكويت

يوسف الشهاب

الكويت: على نفقة المؤلف، ٢٠٠٠

حققت الكويت فى فترة زمنية وجيزة، نهضة ثقافية وفكرية كبيرة، وبرز فى سمائها أعلام فى ميادين شتى، والمؤلف يشير إلى بعض هؤلاء الذين لعبو دورًا مهمًا فى تاريخ الكويت، حتى باتوا جزءًا من ذاكرتها الوطنية، وهو فى سرده هذا، يعرج على تاريخ الكويت السياسى والاجتماعى، كيف كانت، وكيف صارت بعد ظهور النفط.

■■■

عبد الرحمن الكواكبى.. جدلية الاستبداد والدين

حسن السعيد

إيران: رواد الإصلاح - قم، ٢٠٠٠

اهتم عبد الرحمن الكواكبى بالمسالة السياسية وقدم فيها إسهامه المهم «طبائع الاستبداد» الذى حارب فيه أشكال الاستبداد وحذر من مغبة سيادة النظم المستبدة، وتحدث عن كيفية وضرورة مقاومته، لصلاح حال البلاد والعباد.

■■■

عبد الله سنان

فاضل خلف

الكويت: رابطة الأدباء الكويتيين، ٢٠٠٠

دراسة عن الشاعر الكويتى الكبير عبد الله سنان، الذى صارت قصائده جزءًا من ذاكرة الشعب الكويتى، خاض عشرات المعارك بقلمه، وكتب فى مجالات عدة، المؤلف يعرض لسيرته ولنماذج من نصوصه.

■■■

فى أعقاب النكسة

محمد الجوادى

القاهرة: دار الخيال، ٢٠٠٠

يقدم المؤلف مذكرات كبار الضباط حول فترة النكسة وحرب الاستنزاف وكيف تمكنت القوات المسلحة من تحويل الهزيمة إلى نصر، لقاءات مع الفريق مدكور أبو العز والفريق أول محمد صدقى محمود وآخرين.

■■■

نساء من بلادى

ناديا تويهض

بيروت: دار الحداثة، ٢٠٠٠

سيرة حياة أكثر من ٢٥٠ رائدة لبنانية وعربية، ساهموا في مسيرة النهضة العربية، لعبوا أدوارًا سياسية وثقافية واجتماعية، وغيروا شكل الحياة في مجتمعاتهم، كما قدموا إسهامات فى تحرير المرأة وتقدمها، وتنشيط فاعليتها فى مواجهة قيود لا تعترف بمكانتها التى تستحقها.

■■■

هارون الرشيد

محمد أبو رحمة

القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٠

عن سيرة الخليفة العباسى هارون الرشيد، الذى ربما كان أشهر خلفاء بنى العباس، وقد امتزجت فى سيرة حياته الحقائق بالأساطير، وصار فى ذهن العامة نموذجًا للرفاهية والثراء الواسع، والمؤلف يتجاوز هذه الصورة الشعبية، ويركز أكثر على حركة الأدب والعلوم والثقافة فى عصره، ليبين كيف كان هذا الخليفة مشجعًا للأدب والتجديد فى الفقه والفكر عمومًا.

شعر

شعراء أم كلثوم

حنفى المحلاوى

القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٠

كتب كثيرون من أهم شعراء العربية لأم كلثوم، كما غنت هى نفسها قصائد لشعراء قدامى مثل أبى فراس الحمدانى، كما غنت قصائد للشاعر الفارسى عمر الخيام، الكتاب يرصد علاقة أم كلثوم بشعراء عصرها من أمثال الهادى آدم وجورج جرداق ومحمد إقبال وبديع خيرى وأحمد شوقى وأحمد رامى.

■■■

عبثا تؤجل قلبك،

حسن. م. يوسف

دمشق: وزارة الثقافة السورية، ٢٠٠٠

كتابة أقرب إلى النثر الشعرى، متمنمات تستنطق الحكمة الإنسانية وتحرث الأفكار التى تغير المجتمع، معتمدًا على إضاءة فكرة أو موقف إنسانى أو اجتماعى.

■■■

لغة فى البرد

عباس بيضون

دمشق: دار المسار، ٢٠٠٠

يفكك الشاعر نظام الأشياء والطبيعة، ويمزق أقنعة تتخفى وراءها الحقائق، كى تبدو الحقائق جلية عن صورة الوطن وأحلام الناس.

■■■

يدان إلى الهاوية

جمانة سلوم حداد

بيروت: دار النهار، ٢٠٠٠

تتحدث الشاعرة عن الذات الأنثوية التى تسعى للفكاك من أسر المجتمع الذكورى، وكيف يمكن لهذه الذات أن تحقق طموحاتها بعيدًا عن نظرة المجتمع الضيقة للمرأة ودورها.

طب

متاعب أنفك لها علاج

نبيل الصالحى

القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٠

يقدم المؤلف معلومات عميقة بطريقة مبسطة عن جراحات تجميل الأنف، والأمراض التى تصيب الأنف والتقدم فى علاجها، كما يشرح المؤلف المضاعفات التى يمكن أن تحدث بعد عمليات تجميل الأنف، ويجيب عن أكثر من ٣٠٠ سؤال، مع مجموعة كبيرة من الصور لتوضيح الإجابات وتقريبها.

■■■

The Invisible Enemy: A Natural History of Viruses

(العدو الخفى: تاريخ طبيعى للفيروسات)

Dorothy Crawford

Oxford University Press

بمناسبة موسم الأنفلونزا، تقدم المؤلفة وهى أستاذة في جامعة أدنبرج، تاريخ وأصناف مختلف الفيروسات التي أصابت العالم، ومن ضمنها الأنفلونزا، الذى سجل أول انتشار له في أدنبرة عام ١٥٦٢. تفسر المؤلفة بأسلوب سهل الفرق بين الفيروس والبكتيريا، كما تتعرض للفيروسات التى تهدد العالم في الوقت الحالى وفي المستقبل القريب.

طعام

The Chinese Kitchen

(المطبخ الصينى)

Deh-Ta Hsiung, Ken Hom

St. Martins Press, 2000, 240pp., $26.00

كتاب موسوعى يضم معلومات مفصلة وعددًا كبيرًا من الوصفات لأطباق صينية مختلفة. ويبدأ بشرح الأساسيات التى يقوم عليها المطبخ الصينى، فيبين كيف أن جميع أنواع الطعام ينظر إليها فى ضوء قيمتها الطبية والغذائية. كذلك يوضح أهمية التوازن بين اللون والرائحة والنكهة والملمس والشكل فى كل طبق. يضم الكتاب أيضًا أسماء مائة من المكونات الأساسية فى الطعام الصينى بأسمائها اللاتينية والإنجليزية والصينية، إلى جانب طريقة إنتاجها أو زراعتها وكيفية الحكم على جودتها، واستخداماتها الطبية والغذائية.

■■■

Crafting the Culture and History of French Chocolate

(صناعة ثقافة وتاريخ الشوكولاتة الفرنسية)

Susan J. Terrio

University of California Press, 2000, 326pp.

كانت المؤلفة تزور معملاً للشيكولاتة فى باريس عندما قررت أن هؤلاء الصناع المهرة يصلحون كموضوع لرسالة الدكتوراه التى تعدها فى الأنثروبولوجيا. وقادتها أبحاثها إلى جنوب غرب فرنسا فى مدينة «بايون» المركز التاريخى لصناعة الشيكولاتة ذات الجودة العالية والمصنوعة يدويا. وهناك اكتشفت البناء الهيراركى المتصلب الذى تقوم عليه بيوت صناعة الشوكولاتة. فمعظمها يدار بواسطة أزواج، الزوج يصنع الشوكولاتة والزوجة تدير المحل، وأى محاولة للخروج عن هذا النمط تقابل بالمقاومة وتنتهى بتعاسة كبيرة.

كذلك تكتشف المنافسة الكبيرة المريرة بين البيوت المحلية لصناعة الشوكولاتة. ولكنها تتعاطف معهم خاصة عندما يشكون من أصناف الشوكولاتةالبلجيكية التى اخترقت الأسواق، وتتساءل عما إذا كانت الشوكولاتة الفرنسية اليدوية سوف تبقى حية فى عصر أصبحت فيه الحرف اليدوية نادرة.

وتناقش المؤلفة فى أجزاء أخرى من الكتاب المفاهيم الثقافية الإيجابية والسلبية التى ارتبطت بالشوكولاتة فى العالم كله، خاصة كهدية طقسية وكرمز للإفراط فى الترف.

عمارة

رياض القاسمية أو فقه العمران الإسلامى

القاضى كافى أحمد بن إبراهيم الإدروى الحنفى أفندى

دراسة وتحقيق: مصطفى بن حموش

دمشق: دار البشائر، ٢٠٠٠

مزيج من علوم الرياضيات والهندسة وهندسة الديكور، وكذلك عن المساحة وتجميل الميادين والشوارع، ثم عن العمارة وفنونها وأشهر المعماريين المسلمين وأثر الفن الإسلامى فى تقدم العمارة.

■■■

موسوعة ١٠٠٠ مدينة إسلامية

عبد الحكيم العفيفى

القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠٠

موسوعة تقع فى ٦٠٠ صفحة، تعرض لألف مدينة إسلامية تجمعها صفات واحدة مثل الاحتفال بالأعياد الإسلامية وكثرة عدد المساجد ووفرة القلاع والحصون والأبنية ذات الفن الإسلامى، وإطلاق أسماء الصحابة والتابعين وأبطال التاريخ الإسلامى على شوارعها وميادينها.

■■■

The Seduction of Place: The City in the 21st Century

(إغراء المكان: المدينة في القرن الواحد والعشرين)

Joseph Rykewrt

Wesdenfeld, 2000, £20.00

تساؤلات حول عمارة المدن في الزمن المعاصر: كيف تتشكل مدن العالم الآن؟ وكيف نشأت؟ ما الذى يجعل بعض المدن سيئة وأخرى جيدة؟ هل من الممكن إنقاذ مدينة مدمرة معماريًا؟

فكر

الشرعية الإسلامية والشرعية الدستورية

إبراهيم دعيج الصباح

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ٣٦٦ ص.

هذه الدراسة بالأساس قدمت باللغة الإنجليزية كأطروحة لجامعة برمنجهام البريطانية، والهدف منها هو تبيان أوجه الاتفاق أو الاختلاف بين الدستور الكويتى والشريعة الإسلامية. وقد أثبت المؤلف أن الدستور الكويتى ينسجم مع الشريعة الإسلامية، مؤكدًا على أن الشريعة ثابتة وتفسيرها متحرك حسب القوانين الطبيعية والتطويرية.

■■■

العقل الأمريكى يفكر

شوقى جلال

القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٠

سيادة النمط الأمريكى فى حياة كثير من شعوب العالم الثالث وربما فى دول أوروبية، ربما هو التجلى الأخير لسيادة الثقافة الأمريكية كتعبير عن حالة القطب الوحيد التى يعيشها العالم فى أعقاب الحرب الباردة، لكن إلى أين يقود العقل الأمريكى العالم، المؤلف يلقى أضواءً على سلبيات عديدة ناجمة عن سيطرة النموذج الأمريكى على العالم ومقدراته، العقل الأمريكى كما يؤكد المؤلف، يفتقد إلى كثير من الرشادة والعدل والمسئولية.

العولمة.. أية عولمة؟

يحيى اليحياوى

الرباط: دار أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠

شاع مصطلح العولمة وتعددت الكتابات بشأنه دون الاتفاق حتى الآن على مفهوم وحيد لمعنى العولمة، والخلافات بشأن تأثيراتها وحدود قبولها أو رفضها أكبر بكثير من الاختلافات حول المصطلح، يقدم المؤلف هنا اجتهادا فى مسألة العولمة.

■■■

النهضة العربية الثانية.. تحديات وآفاق

غسان عبد الخالق

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

حوارات مع كبار المفكرين العرب عن أهم القضايا الساخنة التى شغلت السياسة العربية فى الوقت الراهن، كالعلاقة بين الشرق والغرب تاريخيًا وحضاريًا، وأثرها على المجتمعات العربية، ثم كيفية صياغة هذه العلاقة بما يحقق مصلحة الأطراف العربية.

■■■

الهولوكوست بين الإنكار والتأكيد

رمسيس عوض

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٠

يكشف الكتاب حقيقة المحرقة التى تسميها إسرائيل بالهولوكوست، والتى يزعم الصهاينة أن ستة ملايين يهودى قتلوا أو ماتوا حرقًا بالغاز فيها.

والكتاب يقدم ثلاثة كتب مثيرة للاهتمام والجدل وتتباين فى مواقفها من الهولوكوست.

■■■

بدايات الفكر الوطنى فى المغرب

محمد داود

المغرب: وكالة شراع، ٢٠٠٠

عن بدايات الفكر المغربى منذ عام ١٩٢٢ وحتى الآن، يعرض لها المؤلف كما يعرض لحرب الريف التحررية التى أججت حماس الوطنية بين الشباب الذين كان منهم المؤلف الذى توفى فى عام ١٩٨٤، ويشير المؤلف إلى عمق المأساة الناجمة عن هزيمة الريفيين أمام التحالف الأسبانى الفرنسى.

■■■

تحديات عصر جديد

أحمد إبراهيم الفقيه

القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠٠

مقالات ترصد ما يجرى فى عصر يموج بتحولات متسارعة ومدهشة تفرض على العرب أن يواجهوها بالدرجة ذاتها من السرعة، وبقدرة على التجديد والابتكار، والمؤلف يتخير أحداثًا سياسية واقتصادية وثقافية واجتماعية بعينها ليدلل على سرعة تلك التحولات وعمق تأثيرها.

■■■

حرب الثقافة

سمير سرحان

القاهرة: دار أخبار اليوم، ٢٠٠٠

عديد من الموضوعات والأفكار عما آل إليه حال الثقافة العربية من انهيار، وعن أزمة الطبقة الوسطى وما قاد إليه تدهورها من اختلال القيم، ما يريد أن يؤكده المؤلف أن الصراعات التى تبدو فى ظاهرها سياسية أو اقتصادية هى فى الأساس ثقافية، إنها حرب الثقافة كما يشير العنوان.

■■■

دعوة الجماهير

عبد الله عبد الرحمن

الدوحة: كتاب الأمة، ٢٠٠٠

كيف يمكن أن تتحول الثقافة من فعل يعنى النخبة إلى فعل جماهيرى، تساهم الناس فى صنعه ولا تكتفى بدور المتلقى، كيف يمكن أن ننقل العامة من خانات رد الفعل إلى خانة الفعل والمشاركة فى صناعة حياتهم.

■■■

مسالك الإبداع ومناهج البحث فى الثقافة العربية.. الأنا والآخر

تونس: كلية الآداب جامعة صفاقس، ٢٠٠٠

عن الثقافة العربية ووضعيتها بين الثقافات العالمية، وعن النهضة العربية الثقافية وما استلهمته وما أضافته للثقافات الأخرى، وعن دور الآخر فى حياتنا وكيفية بناء علاقة صحية معه.

■■■

من النهضة إلى الردة

جورج طرابيشى

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٠

شهدت الثقافة العربية فى القرن الأخير، انتكاسات ردة حقيقية، المؤلف تتبع مظاهر تلك الردة ويحلل أسبابها ويقيم نتائجها، ويقدم تصورات وتحليلات نقدية للثقافة العربية فى زمن العولمة.

ويأتى كتاب طرابيشى هذا فى سياق مشروعه لنقد العقل العربى، الذى بدأ مع كتابه عن العصاب الجماعى لدى النخبة المثقفة، والذى تناول فيه بالنقد كتابات الدكتور حسن حنفى، ثم كتابه «نقد نقد العقل العربى» الذى ينتقد فيه مشروع المفكر المغربى عابد الجابرى عن نقد العقل العربى.

فــكر دينى

أبو الحسن الشاذلى

مأمون غريب

القاهرة: دار غريب للنشر، ٢٠٠٠

يتناول المؤلف فقه الشاذلى وتصوفه وتلاميذه وأسفاره وأولاده، ويعتبره المؤلف واحدا ممن فهموا معنى التصوف بحق، دون تزيد، ودون خزعبلات تخرجه من المفاهيم الإسلامية الصحيحة.

■■■

الحياة السياسية والفكرية للزيدية فى المشرق الإسلامى

أحمد شوقى إبراهيم العمرجى

القاهرة: مكتبة مدبولى، ٢٠٠٠

عن الزيدية وظروف نشأتها وأفكارها ومعتقداتها، وحدود اتفاقها أو اختلافها مع غيرها من المذاهب الشيعية.

■■■

دراسات فى الترجمة والمصطلح والتعريب

شحادة الخورى

دمشق: دار الطليعة، ٢٠٠٠

تمثل الترجمة ـ كما مثلت فى بدايات النهضة ـ أهمية كبيرة، المؤلف لهذا السبب يقدم مقترحات لتنشيط عملية الترجمة فى الوطن العربى، ويطالب بتعريب العلوم كى تعم الفائدة من الثقافات والعلوم الأجنبية، ويشير إلى التجربة السورية، حيث كانت سورية القطر الوحيد الذى قدم الطب والصيدلة والعلوم باللغة العربية.

■■■

الخوارج والحقيقة الغائبة

ناصر السابعى

مسقط: المؤلف نفسه، ٢٠٠٠

عن الخوارج، نشأتهم وحياتهم وأفكارهم وأهم ما كتب عنهم، وما إذا كان المؤرخون أنصفوهم أم ظلموهم، المعروف أن الخوارج من أهم الفرق الإسلامية التى لعبت دورًا مهمًا فى التاريخ الإسلامى فكريًا وعمليًا.

■■■

المفهوم الإسلامى للتكافل الاجتماعى

منصور الرفاعى عبيد

القاهرة: مكتبة الدار العربية، ٢٠٠٠

للمال مهمة اجتماعية جليلة فى المجتمع الإسلامى، لهذا فإن فرض الزكاة ليس إحدى ركائز الإسلام وشريعة تختص بمؤديها فحسب، وإنما تعم فائدتها فى حالة تأديتها على أكمل وجه على المجتمع كله، وتحقق التكافل الذى يزيل الفجوات بين شرائح وفئات المجتمع المسلم.

■■■

الإسلام والفكر السياسى

تحرير وتقديم: رضوان زيادة

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠٠

مجموعة من الأبحاث التى قدمت فى مؤتمر الفكر السياسى الإسلامى، عن مفهوم الديمقراطية فى الإسلام ومحاولات التقريب بين مذاهبه، ثم تطبيقات عملية من إيران وغيرها.

■■■

مواقف من حياة الصحابة ، الجزء الثانى ،

على الخطيب

القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٠

يعرض المؤلف فى هذا الجزء لمواقف فى حياة ثمانية من صحابة رسول الله هم ثابت بن قيس والطفيل بن عمرو الدوسى وزيد بن الخطاب، وعقبة بن غزوان وصهيب بن سنان وعمير بن سعد وعمران بن حصين وحبيب بن زيد، وأكثرهم غزا مع رسول الله وشاركه فى تأسيس دولة الإسلام الأولى.

فنــــون

أطياف وظلال

عبد الحميد حواس

القاهرة: هيئة قصور الثقافة ـ سلسلة آفاق السينما، ٢٠٠٠

أوراق عن العلاقة بين السينما والمأثور الثقافى، فى مقالات تعود إلى ربع قرن مضى، يعيد فيها الناقد القراءة فى عدد من أهم الأفلام العربية والعالمية التى تعد علامات فى تاريخ السينما العالمية.

■■■

Inferno

(الجحيم)

James Nachtwey (Photographer)

Phaidon Press, 2000, 428pp., $125.00

وثيقة فوتوغرافية عن جرائم حروب التسعينيات، تصور المعاناة الإنسانية فى كل من رواندا والصومال ورومانيا والبوسنة والشيشان والهند وكوسوفا.

هذه الصور التقطها المصور الصحفى جايمس ناكتوى وهو أبرز المصورين الحربيين فى العالم الآن.

نقــد

التجريب فى القصة القصيرة.. دراسة فى قصص يوسف الشارونى

هيثم الحاج

القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٠

دراسة تحليلية لأعمال واحد من رواد القصة المصرية القصيرة، والذى بدأ مرحلة التجريب فيها مبكرًا، مواكبًا للاتجاهات العالمية فى القصة القصيرة فى أواخر الأربعينيات وسنوات الخمسينيات الأولى، كما تقدم الدراسة تحليلاً لشخصيات بعض القصص.

■■■

سلطة النص

مشرى بن خليفة

الجزائر: منشورات الاختلاف، ٢٠٠٠

يضم الكتاب قسمين أحدهما فى نقد الشعر، والثانى فى تحليل الخطاب الروائى، ويستند المؤلف إلى النظريات النقدية الحديثة كمراجع أساسية فى كشف العلاقات داخل النصوص، سواء كانت شعرية أو نثرية.

■■■

Updike: America's Man of Letters

(أبدايك: أديب أمريكا)

William H. Pritchard

Steerforth, 2000, 351pp., $27.00

قراءة متعمقة فى الأعمال التى كتبها حتى الآن الأديب الأمريكى المعاصر جون أبدايك. وتتراوح ما بين الأعمال الروائية والقصص القصيرة والشعر والسيرة الذاتية والمقالات الأدبية والنقدية المختلفة. ويرى الكاتب وهو أستاذ فى الأدب الإنجليزى فى كلية أمهرست، أن أبدايك هو أبرز أدباء أمريكا المعاصرين منذ مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية، حيث إنه نجح من وجهة نظره فى التعبير عن آلام وأفراح الحياة فى أقوى وأغنى دولة فى العالم. كما أن أعماله ترصد وتحلل الحالة الأخلاقية والثقافية لبلاده، خاصة من منظور الطبقة المتوسطة الأمريكية.

■■■

Susan Sontag: The Making of An Icon

(سوزان سونتاج: صناعة أيقونة)

Carl Rollyson and Lisa Paddock

Corton, 2000, 370pp., $29.95

يكشف الكتاب عن الحسابات الاستراتيجية وتفاهمات ما خلف الستار التى جعلت من الأديبة الأمريكية سوزان سونتاج تحصل على النجاح والشهرة اللذين وصلت إليهما. يبين الكتاب كيف أن انتهازية سونتاج ومناورات ناشرها إلى جانب مساندة عشاقها وأصدقائها من المثقفين وأصحاب النفوذ العالميين، كانت وراء صعود نجمها كمثقفة وكاتبة.

■■■

عــــروض مـــوجـــزة

كتب عربية

الدولة العصرية دولة مؤسسات

حسن أبشر الطيب

القاهرة: الدار الثقافية للنشر ٢٠٠٠، ٢٣٨ صفحة



دولة المؤسسات والمجتمع المدنى، تعبيرات شاعت أخيرًا فى الكتابة السياسية، لكنها فى دول العالم الثالث لم تكتسب - بعد - معناها الحقيقى، وإن ترسخت قناعة لدى نخبتها فإن الدولة العصرية هى دولة مؤسسات، وأن نمو مؤسسات المجتمع المدنى ومشاركتها جنبًا إلى جنب مع مؤسسات الحكم هى شرط الدولة العصرية، وما يكسبها شرعية، وبغير هذه المشاركة تتحول النظم إلى شمولية وديكتاتورية.

ويقدم الكتاب عبر سبعة فصول رؤية شاملة للسياسات العامة، معناها وماهيتها والنماذج النظرية لها ومحاورها التجريبية، وكيفية وضع السياسات العامة وتحليلها والتحديات التى تواجهها.

وبشكل عام وبعيدًا عن المعلومات النظرية والأكاديمية التى يحتشد بها الكتاب، فإن ما نخلص إليه هو أن السياسات العامة بوتقة تنصهر فيها العديد من الخيارات والعوامل والمتغيرات، بوصفها محصلة تفاعلات سياسية ديناميكية متجددة بين الفعاليات والعناصر التى يتكون منها النظام السياسى، وهى وفقًا لأحد التعريفات التى يوردها المؤلف: تمثل مرحلة التوازن التى يتم التوصل إليها بعد مراحل من الصراع بين المجموعات.

ويشمل تحليل السياسات العامة تصورات كاملة، اقتصادية وسياسية وغيرها، وتسهم هذه التصورات جميعها فى تكامل العملية البحثية التحليلية وهذا يعنى أن السمة المميزة للدولة العصرية هى أنها دولة مؤسسات، بالقدر الذى أصبح فيه بناء الدولة، وبلورة إرادتها المجتمعية فى التنمية وتعظيم قدراتها فى التجديد الحضارى، يعتمد كليًا على كفاءة وفعالية مؤسساتها.

ويشير المؤلف إلى أن بناء النظام المؤسسى الفعال وتأمين استمراريته بدرجة عالية من الكفاءة والفعالية لا يتحققان إلا بجهود إبداعية خلاقة معبرة عن الفكر والإرادة المجتمعية.

وقد أفرزت التحديات البيئية على المستوى القومى والعالمى - بحسب المؤلف - تحولات جذرية متسارعة فى أوجه الحياة كافة، إضافة إلى ما ينتج عن ثورة المعلومات والاتصالات، بما يستوجب نشوء مفاهيم جديدة للمشاركة بين المؤسسات الحكومية والأهلية.

إن العالم كله فى إدارة المستقبلية يتجه إلى تنظيمات ذات سمات لا بيروقراطية، فالبيروقراطية تنحسر كنمط تنظيمى، وتتبلور سمات تنظيمية إدارية جديدة تؤصل للمنهج اللامركزى، وتركز على فريق العمل بدلاً من الأفراد، والتفكير التجديدى الابتكارى الإبداعى بديلاً عن الالتزام الصارم بالقوانين، وهو ما يتوافر أكثر فى مؤسسات المجتمع المدنى.

□ □ □

الموسيقى والصراع الحضارى فى الجزائر

بوزيد عمور

الجزائر: الجاحظية ٢٠٠٠، ١٢٧ صفحة



اشتهرت موسيقى «الراى» بوصفها فنًا جزائريًا خالصًا.

وقد عرف هذا النوع من الموسيقى انتقادات حادة، وصنف عادة ضمن المبتذل والسطحى والغرائزى، وبعض هذا صحيح، لكن كونه صحيحًا، لا ينفى أن «الراى» جاءت استجابة للحظة تاريخية معينة.

لكن ما تعنى به هذه الدراسة هو محاولة البرهنة على أن الاستعمار القديم استخدم الموسيقى للتلهية، فيما يستخدمها الاستعمار الجديد، لهدم الموروث الثقافى الموسيقى، وتقويض المميزات الحضارية. وبحسب المؤلف فإن التربية والتعليم الموسيقى، استغل لتغريب الفكر الموسيقى بكامله، وتوجيه أجيال من الدارسين إلى الموسيقى الأوروبية وحدها بحجة التطوير والعصرنة، فحرمت البلاد من دعامات الإبداع والاستماع على المستوى الابتكارى والتقنى. مما قاد إلى تمزيق الذوق الجماعى.

ويحاول المؤلف عبر دراسة فنية متخصصة، إثبات أن الجزائر عرفت دومًا موسيقاها الخاصة، النابعة من تراثها ومن الموروث القبلى، ويشير فى هذا الإطار إلى فرق «الأهليل» فى الجنوب، التى تعتمد ألحانها على تعدد الأصوات عبر خطوط لحنية متناسقة بين المغنى المنفرد والمجموعة الصوتية وآلة القصبة.. يعتمد الإيقاع فيها على ما يسميه المؤلف «البولى رتم» أى تعدد الخطوط الإيقاعية، ويؤكد على التلاقح المستمر بين الموسيقى الشرقية فى الجزائر ونظائرها فى مصر والشام، بما يعنى أن الاختلاف بين الموسيقى فى مصر والموسيقى فى الجزائر هو فى حقيقته اختلاف بين لهجتين وليس بين لغتين، بعكس الحال فيما يتعلق بالموسيقى الأوروبية.

ويشير المؤلف كذلك إلى ثراء التراث الفنى الجزائرى الذى عرف الموشحات والأزجال من أمثال ابن خلف وابن زجر البجائى وابن مدين بن شعيب والقاسم ابن سراج وابن عطروز وغيرهم، كما تنوعت الإيقاعات والألحان بتنوع القبائل، فظهرت الموسيقى البدوية والموسيقى الشعبية الحضرية والقدريات وغيرها، ويقدم نماذج عديدة لكل لون، لكن الاستعمار عمد إلى تكوين آذان لا تسمع إلا صوته، وتوجيهها لتصبح بلا موقف، وتركن إلى الانهزامية والانحلال الخلقى ومعاداة الذات الثقافية، وهو الأسلوب الذى اتبعه الاستعمار فى مصر بعد رحيله بإشاعته موسيقى تافهة وأغان من نوع «إرخى الستارة اللى فى ريحنا»، ولكن ظهور بيرم التونسى وبديع خيرى وأحمد رامى، حال دون نجاح هذا المخطط. المؤلف لا يتوقف عند الموسيقى الخالصة، لكنه يتتبع الكلمات المغناة، وفقر أجهزة الصوت ومعاناة المشتغلين فى المجال الموسيقى وغيرها من المشكلات التى ترسخ الاستلاب الحضارى فى الفن، الذى يعد أنفذ الطرق فى واقعنا المعاصر لهدم الذات الثقافية وتذويب الهوية.

□ □ □

الفساد والجرائم الاقتصادية فى مصر

أحمد أنور محمد

القاهرة: مصر العربية للنشر ٢٠٠٠، ٢٧٨ صفحة



كانت شركات توظيف الأموال، هى الصدمة الكبرى التى لفتت الأنظار إلى خطورة الفساد وارتباطه بالجرائم الاقتصادية فى زمن العولمة وتدويل رأس المال، وبرغم ما نبهت إليه هذه الشركات من مخاطر على الاقتصاد المصرى، فإن الجرائم المالية لم تتوقف بل زادت، وهرب حفنة من رجال المال والأعمال بمليارات المصريين إلى الخارج، بعضهم فر بلاحساب، وبعضهم طالته يد القانون.

هذا الكتاب ألّفه عالم اجتماع، بما يعنى انه ينصب أساسًا على التفسير الاجتماعى للجريمة الاقتصادية، وهو يركز على شركات توظيف الأموال، ويبدأ من النظريات الكلاسيكية التى ترى أن الفقر هو الدافع الأساسى للجريمة، لكن بعض النظريات الأكثر تطورًا أولت عناية لما بات يعرف مع تطور النظام الرأسمالى وسيادته بجرائم الخاصة، وهى تلك التى يرتكبها أصحاب النفوذ المالى والاجتماعى أو ما يسميهم علماء الاجتماع «أصحاب الياقات البيضاء»، وهى عادة جرائم معقدة، يظهر أصحابها احترامهم للقانون والتزامهم بقواعده، وهم يلعبون أدوارًا متعددة فى المجتمع ويشاركون فى جمعيات ومؤسسات أهلية وحكومية، وربما كان بعضها ذا طابع خيرى، وبفضل هذه الأدوار فإنهم يخترقون مؤسسات عديدة داخل المجتمع بما يمكنهم من اختراقها والتعمية على أنشطتهم المخالفة، ولا مانع لديهم من الرشوة والإفساد فى سبيل تحقيق تلك الاختراقات.

وقد كانت جرائم شركات توظيف الأموال - برأى المؤلف - تجسيدًا حقيقيًا لجرائم الياقات البيضاء، وقد بلغ عدد هذه الشركات حسب ما نشر فى الصحف الرسمية ١٠٤ شركات، بلغ حجم إيداعات المواطنين لديها ٤.٥ مليار جنيه أودعها نحو ٥١٣ ألف مواطن، وإن كان بيان هيئة سوق المال الذى صدر فى أعقاب القانون ١٤٦/١٩٨٨، قد أكد أن حجم الإيداعات والمودعين لم يكن معلومًا تمامًا للحكومة.

وقد جاء نمو جرائم تلك الشركات - بحسب المؤلف - مرتبطًا بالتغيرات التى شهدتها مصر فى السبعينيات، والتى جعلت الاقتصاد المصرى مرتعًا لرأس المال الطفيلى. وقد ساهمت بعض التشريعات التى صدرت فى تلك الفترة فى إضفاء الشرعية على تلك التعاملات، وكانت شركات توظيف الأموال فى تجسيدها الأخير، تعبيرًا عن التحالف بين الأصولية الدينية والرأسمالية الطفيلية تحت مزاعم وهمية من نوع أسلمة الاقتصاد.

ويطرح المؤلف فى النهاية عددًا من التوصيات لمنع تكرار ما جرى، بعضها تشريعى قانونى، وأكثرها اجتماعى سياسى، هدفه إعادة تأكيد القيم الإيجابية التى خربتها شركات توظيف الأموال، وأخطرها «تربيع المجتمع» أى زيادة عدد الأفراد الذين يعيشون على ريع مدخراتهم دون جهد أو عمل حقيقى.

□ □ □

عروض موجزة

يد الله
لماذا تضحى الولايات المتحدة بمصالحها من أجل إسرائيل؟

غريس هالسل
ترجمة: محمد السماك
القاهرة: دار الشروق ٢٠٠٠، ١١٠ صفحات



يجيب هذا الكتاب عن سؤال يشغل كثيرين من المتابعين للسياسة الأمريكية فى منطقة الشرق الأوسط، وخصوصًا فيما يتصل بالصراع العربى الإسرائيلى. والسؤال هو: لماذا تضحى الولايات المتحدة بمصالحها فى المنطقة - وهى عديدة وأهمها البترول - من أجل إسرائيل؟

وتحاول المؤلفة هنا أن تجد تفسيرًا فيما وراء السياسى. بالتحديد فى الدينى. أو بمعنى أدق فى كيفية تحويل الدينى إلى سياسى وبالعكس، فى عملية مزج برع فيها اليهود دائمًا. والمؤلفة هى صاحبة كتاب مهم عن «هر مجيدون»، وهى العقيدة التى يؤمن بها فى الولايات المتحدة وحدها أكثر من ٤٠ مليون شخص على رأسهم الرئيس الأمريكى السابق رونالد ريجان، وأتباعها يعتقدون أن معركة فاصلة ستنشب بين اليهود وأعدائهم وستبلغ فيها الدماء «ألجمة الخيل»، وسيباد اليهود ولا يبقى منهم إلا ١٤٠٠ شخص يقودهم المسيح نحو النصر وإقامة مملكة الله على أرضه. وتشير المؤلفة إلى ما بات معروفًا الآن، وصدرت بصدده عشرات الكتب عن مدى تأثير الحركة الأصولية المسيحية فى الولايات المتحدة على المجتمع الأمريكى، وتغلغل اليمين المسيحى فى الأوساط الثقافية العليا وبين العاملين فى صنع القرار والقائمين عليه، والقساوسة كي يجذبوا الناس إلى هذه العقيدة، يخبرون أتباعهم أنهم «إذا اعتنقوا عقيدة أرض إسرائيل والعصور القدرية التى يجب أن تبرز هناك، سوف ينضمون إلى جماعة من الخاصة المقربين، وأنهم سوف يكافأون بالسلطة والنظام والأمن والاهتمامات الشخصية».

والمؤلفة لا تكتفى بما تنقله من تجاربها الشخصية ورحلاتها إلى المنطقة العربية وإسرائيل وجولاتها فى القدس المحتلة، واستماعها إلى عشرات من القساوسة وأتباع الأصولية الجديدة، وإنما تنقل بعضًا مما يخرج به هؤلاء على أتباعهم فى الصحف ووسائل الإعلام المختلفة، ومنها مثلاً ما قاله الرئيس الأمريكى السابق جيمى كارتر، الذى وقع معاهدة السلام مع السادات وبيجين، يقول كارتر: يعنى خلق إسرائيل فى عام ١٩٤٨، العودة أخيرًا إلى أرض الميعاد التى أُخرج منها اليهود منذ مئات السنين.. إن إقامة دولة إسرائيل هو تحقيق للنبوءة التوراتية والتنفيذ الجوهرى لها.

الخلاصة التى تقدمها المؤلفة أن ثمة تحالفًا بين اليهود واليمين المسيحى أو الأصولية المسيحية، يقدم هذا التحالف براهينه من التوراة، ويتغنى بنبوءة إسرائيل، لكنه يقدم تجليات أكثر واقعية وفعالية فى الواقع السياسى، وقد عبر عن ذلك أحدهم بقوله: إن الأصوليين المسيحيين هم فى الدرجة الأولى مؤيدون لإسرائيل.

هذا يعنى أن التحالف الأمريكى الإسرائيلى تجاوز السياسى والبراجماتى، إلى الروحانى والعقائدى بصعود الأصولية المسيحية، وهكذا تصبح العروة بينهما، لا انفصام لها.

□ □ □

العرب والتجربة الآسيوية
الدروس المستفادة

محمود عبد الفضيل
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠، ٢٦٠صفحة، ٨ دولارات



حتي أواسط الستينيات، كانت بلدان جنوب شرق آسيا يضرب بها المثل في الفقر والتخلف، وفى خلال ثلاثين عامًا فقط، حققت المسيرة التنموية لبلدان جنوب شرق آسيا طفرة تنموية هائلة صارت تعرف بالمعجزة الآسيوية، ولكن بدءًا من عام ١٩٩٧، واجهت «النمور الأسيوية» انعكاسة مالية حقيقية، دفعت كثيرين من الاقتصاديين إلي التشكيك في تلك المعجزة، ووصفت النمور الآسيوية بأنها «نمور من ورق».

المؤلف هنا يحلل تجارب خمسة بلدان آسيوية: سنغافورة وماليزيا وكوريا الجنوبية وتايلاند والصين الشعبية، بهدف الاستفادة عربيًا منها، فتجربة سنغافورة وهى مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على ٣ ملايين نسمة ولا مساحتها على ٢٥٠ كم٢، صالحة للتطبيق في دول عربية صغيرة الحجم قليلة السكان مثل البحرين وقطر والإمارات والكويت، وفي المقابل تصلح التجربة الكورية الجنوبية نموذجًا تحاكيه دولة في ظروف مشابهة - سكانيًا علي الأقل - مثل مصر، وأما ماليزيا، فهى النموذج الأقرب بوصفها دولة إسلامية، حققت نهضتها بعيدًا عن شروط صندوق النقد الدولى وتحكمات المؤسسات المالية الدولية، وأصر رئيسها «مهاتير محمد» حتى في ظل الأزمة المالية، أن يعبر الأزمة ببرنامج تمت صياغته وطنيًا، لا يُفرِّط في استقلال ماليزيا ولا يساوم على ثوابتها.

ثمة تمايزات بين هذه الدول من حيث شروط التنمية وطرائقها، حيث تعد سنغافورة نموذجًا لاقتصاد «منصة التصدير» - كما يسميه المؤلف - وهو اقتصاد اعتمد أساسًا علي الاستثمارات الأجنبية المباشرة، وتحولت سنغافورة إلى محطة تموين ومنصة تصدير للشركات متعددة الجنسية، فضلاً عن اعتماده علي السياحة والريع الذى يحققه ميناء سنغافورة الذى يعد من أكفأ موانئ العالم، وقام الاقتصاد الماليزى خصوصًا في مرحلته الأخيرة - حقبة التسعينيات - علي الصناعات ذات المحتوى التقنى المتقدم، لتعويض النقص في عدد السكان (٢٠ مليون نسمة)، ومثلت التجربة الكورية نموذجًا لأسرع الاقتصادات نموًا وتنوعًا فى العالم - دون إغفال أنها واحدة من أكبر دول العالم التى تلقت مساعدات أجنبية خصوصًا خلال الحرب الباردة - وقد اعتمدت أساسًا علي المجتمعات الكبرى، وبلورت تجربة الصين استراتيجية معتدلة للإصلاح الاقتصادى والانتقال التدريجى نحو اقتصاد السوق، وقدمت تجربة فريدة في تنمية المدن الساحلية، التى شجعت فيها تدفقات رؤوس الأموال الأجنبية عبر سياسات مالية محفزة. جعلت الصين منذ منتصف الثمانينيات تقترب فى سماتها وخصائصها من الدول حديثة التصنيع، وصارت المنتجات التقليدية كالمنسوجات وغيرها، لا تمثل سوى ثلث الصادرات السلعية الإجمالية للصين.

برغم تلك التمايزات، فإن ثمة تشابهات تشير إليها المؤشرات الاقتصادية والتنموية، منها ارتفاع معدلات الادخار والاستثمار في تلك الدول، إذ لا تقل معدلات الاستثمار عن ٣٠٪ من الناتج المحلى الإجمالى، وتقترب معدلات الادخار من تلك النسبة، ومنها اجتياز هذه البلدان لحواجز التقنية العالية، ودخولها دائرة الابتكار والإبداع في هذا المجال، ومنها قدرتها علي تحقيق تغيير جذرى في بنيتها الصناعية، وتحولها من الصناعات الخفيفة والوسيطة إلى الصناعات الثقيلة وذات التقنية العالية، ومنها قدرتها علي تحقيق احتراف تصديرى نافست به الاقتصاديات الرأسمالية حتى في عقر دارها. وقد واكب ذلك علي المستوى الاجتماعى، سيادة نمط توزيعى عادل لثمار النمو الاقتصادى قلَّل نسبة الفقر والفقراء، ورفع مستوى تراكم رأس المال البشرى في زمن وجيز عبر برامج تعليم متقدمة واهتمام بالغ بإتقان العمل وتجويده.

وقد واكب هذا كله مؤسسات عامة وخاصة شديدة الكفاءة، حققت معادلة النهضة: دولة رشيدة + سوق ناضجة، بوعى كبير.

تلك هى بعض دروس النمور الأسيوية التى واجهت اختبارًا صعبًا في أواخر التسعينيات بسبب الفساد والتدخلات الدولية، وتمكنت «النمور» من تجاوز أزمتها سريعًا بسبب متانة هياكلها الاقتصادية.

فهل يمكن الإفادة من هذه التجربة الخصبة؟

□ □ □

اعترافات هنرى ميللر فى الثمانين

كريستيان دى بارتيا
ترجمة: خالد النجار
القاهرة: دار الهلال ٢٠٠٠، ١٧٥ صفحة، ٥ جنيهات



بالنسبة لكثيرين، فإن «هنرى ميللر» ليس سوى كاتب إباحى، لم يراع أبدًا تقاليد الاحترام فى التعبير، فهتك عفة اللغة بهدم الفواصل بين لغة الأدب ولغة الحياة، وكما كانت حياته دعوة لأقصى حالات الإشباع، كان أدبه طامسًا للفوارق بين المحرم وغير المحرم، هكذا كانت روايته الشهيرة «مدار السرطان» (١٩٣١)، التى احتاجت ثلاثين عامًا ليسمح بنشرها فى بريطانيا والولايات المتحدة.

«ميللر» الذى توفى عام ١٩٨٠ عن عمر يناهز الثامنة والثمانين، تزوج خمس مرات، وكانت آخر زيجاته فى عام ١٩٦٧ من مغنية يابانية تصغره بنصف قرن، وهو الذى قال: «إن الغريزة الجنسية ستبدل كل مناحى الحياة، وأن زمن العفاف الجنسى قد ولى».

وكتابه هنا حوار بين ناشر وصحفى اسمه «كريستيان دى بارتيا» وبين ميللر، يكشف عن الكثير من الجوانب الشخصية له، وآرائه فى الحياة وتحولاتها، كما يكشف عن تحولات فى آراء «ميللر» نفسه، الذى يرى هنا - بعكس ما قاله فى كتابه ذات يوم أحد بعد الحرب» - أن زمن العفاف الجنسى لم ينقض بعد، كما يؤكد على كراهيته لعصر التقنية، الذى يسميه عصر الأدوات الزائفة، وهو يمقت تعقيد هذه الآلات التى

عروض موجزة

يراها «لعبا طفولية بالكامل»، كما لا يرى ـ بعكس ما قاله في بعض كتاباته ـ أن ثمة مخلصًا سينقذ البشرية مما تعاني. يقول ميللر هنا وفي اعترافاته الثمانينية.. «لا أعتقد أنه سيأتي مخلص. لقد مضى زمن المخلصين. وكل منا موكل بنفسه، وهو ينقذ ما يمكن إنقاذه».

ويبدو «ميللر» في بعض آرائه مؤمنًا تمامًا بتأثير حركة النجوم والكواكب على مصائر البشر، وبين ما قاله بعد تحليل لحركة الأفلاك، أن كلمة شيوعية عام ٢٠٠٠ لن تكون سوى لفظة، لا يفقه معناها إلا علماء اللغة والاشتقاق. ويقول أيضًا: عندما يتكاثر عدد البشر الذين يرغبون في عالم جديد بما يكفي، فسوف يولد هذا العالم.

كان ميللر يرى أن الجنون ـ وقد مارس بعضه ـ منشط ومانح للعنفوان الذهني. ولم يكن يثق كثيرًا في ذوق العامة وقدرتهم على التفاعل مع الفن. وكان رأيه أن الفن لم يوجد إلا من أجل النخبة.

هذه بعض آراء «ميللر» التي تضمنتها كتاباته وناقشه المؤلف فيها في حواره المطول معه والذي كشف عن رؤيته المتشائمة للوضع البشري غير الإنساني. وتقييمه المبكر للدور المأساوي الذي تلعبه أمريكا في العالم، وكراهيته للإنسان الأبيض الذي أخضع العالم ولوث يده بدماء السود والهنود الحمر والإسكيمو وضحايا القنبلة الذرية.

بشكل عام، فإن ما كتبه «هنري ميللر» كله، ليس سوى سيرة حياته، فهو لم يكتب عن آخرين، ولم يخلق شخصيات ويجري على ألسنتها حوارات. كتب فقط عن نفسه، عما يعرف، وجعل ذاته محور العالم، إيمانًا منه بقدرة الفرد وملكاته غير المحدودة في صنع الحياة واختيار مصيره.

□ □ □

عرب ومسلمون وعولمة

أحمد صدقي الدجاني

القاهرة: دار المستقبل العربي، ٢٠٠٠، ٥١١ صفحة

يقدم المؤلف في هذا الكتاب رؤية كلية لظاهرة العولمة. ويعالج في سبعة أبواب أغلب القضايا التي تثيرها العولمة وتأثيرها على العرب والمسلمين. في الباب الأول يجري التركيز على التعريف بالعولمة وجذورها التاريخية التي تعود بدايتها إلى عصر النهضة الأوروبية وما تلاه من بروز ظاهرة الاستعمار وتنامي التجارة العالمية.

أما الباب الثاني فيعالج أزمات العولمة وتفجراتها التي تتضح في ثلاث قضايا، أولاها: إساءة توظيف علم الموروثات «الجينات» وما يرتبط به من إشكاليات أخلاقية وقيمية، وثانيها: المضاربات المالية العالمية التي سببت أزمة اقتصادية لعدة دول آسيوية أوقعتها في أسر ما تمليه المؤسسات الدولية للتمويل عليها من سياسات، وثالثها: الخطر النووي في عصر العولمة، كما يتضح من التفجيرات النووية الهندية والباكستانية واستمرار احتكار إسرائيل للسلاح النووي.

الباب الثالث عنوانه: «عن الثقافة في عصر العولمة» ويتوقف أمام الواقع الثقافي في عالمنا الذي يشهد تعدد الثقافات فيه وتفاعلها معًا، بحكم ثورة الاتصال والمعلومات وازدياد الوعي بأثر العامل الثقافي في الاجتماع الإنساني، ويشير المؤلف فيه إلى امتلاك المسلمين ما يمكنهم من أداء دور مهم في تطوير وترشيد الثقافة العالمية.

في الباب الرابع يجتهد المؤلف في طرح تشخيصه لمظاهر ضعف النظام العربي المتمثلة بتزايد تأثير العامل الخارجي وتفاقم النزاعات العربية ـ العربية وتجذر مفاهيم القطرية والوطنية وغياب ثقافة الديمقراطية وحقوق الإنسان. ويقدم رؤيته لتخطي هذه المشكلات وتحقيق الوفاق السياسي العربي الذي تجلى وظهرت فعاليته في مناسبات عدة في السابق. ويمكن بلوغه بإرساء ثقافة الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وتعزيز النظام العربي سياسيًا واقتصاديًا للحفاظ على المصالح العربية المشتركة في عصر العولمة والتكتلات الكبيرة.

قضية فلسطين وتطوراتها هي موضوع الباب الخامس الذي يناقش المؤلف فيه الدورين الأمريكي والأوروبي في عملية التسوية، وتفاعلات قضية القدس واللاجئين وما جرى بشأنهما حتى قمة كامب ديفيد الثانية، ونجاح المقاومة الباسلة في تحرير جنوب لبنان. ويشيع في ثنايا هذا الباب التأكيد على تعميم قراءة صحيحة للصراع العربي الصهيوني والاعتصام بالمقاومة لبلوغ هدف التحرير.

أما الباب السادس فيتناول المؤلف فيه «العرب ودائرة الحضارة الإسلامية»، مؤكدًا على أهمية توثيق التعاون بين النظام الإسلامي ممثلاً في منظمة المؤتمر الإسلامي والنظام العربي لاسيما في ظل تداخل اهتماماتهما ومصالحهما معًا كما يبرز في قضية القدس، ثم يحلل المؤلف حركة الفكر الإسلامي المعاصر خلال القرن العشرين، حيث تفاعلت عوامل محلية وإقليمية ودولية لصياغة الاستجابة للتحديات فبرزت ثلاثة تيارات، أولها تيار الانكماش الذي انكفأ على نفسه وبقي أسير الماضي، وثانيها تيار الانغماس الذي انبهر بمنجزات الحضارة الغربية فلم يفرق بين سيىء وحسن، وكلا التيارين ينتمي إلى موقف رد الفعل بعكس التيار الثالث وهو تيار الاستجابة الفاعلة الذي فهم واقعه وماضيه وانطلق يعمل لبلوغ ستة أهداف هي: التحرير، والوحدة، والديمقراطية، والشورى، والتنمية المستقلة التي تحقق الكفاية، والعدل، والتجدد الحضاري.

□ □ □

كتب أجنبية

Crucible of War: The Seven years' War And The Fate of the Empire in British North America 1754-1766

(الاختبار القاسي للحرب.. حرب السنوات السبع ومصير الامبراطورية في أمريكا الشمالية البريطانية ١٧٥٤، ١٧٦٦)

Fred Anderson

Faber and Faber, 2000, £25.00



اعتاد العالم على اعتبار أن هناك حربين عالميتين وقعتا في التاريخ فقط هما الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨، والحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ لكن مؤلف هذا الكتاب يرى أن القرن الثامن عشر على سبيل المثال شهد حربين عالميتين فإضافة إلى الحرب التي أعقبت الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، والتي انتهت بهزيمة نابليون في ووترلو، هناك حرب السنوات السبع ١٧٥٦ ـ ١٧٦٣ التي جرت على نطاق كوني وأعطت للشعوب المتحدثة بالإنجليزية سيادة دائمة في أمريكا الشمالية وأنهت آمال فرنسا في أن تبقى لاعبًا كبيرًا في الهند كما أنها سمحت لبريطانيا بالاستيلاء على ممتلكات فرنسا في الكاريبي، وفي النهاية تحول ميزان القوى في أوروبا لصالح بريطانيا وبعيدًا عن فرنسا.

واستمر الأمر على هذا الوضع تقريبًا حتى عام ١٩٠٤ عندما تم توقيع الاتفاق الودي الذي كان من بين بنوده إطلاق يد بريطانيا في مصر مقابل إطلاق يد فرنسا في المغرب.

ورغم أهمية الحرب البريطانية الفرنسية في الهند إلا أن المؤلف يركز على أمريكا الشمالية نظرًا للتأثير الذي استمر حتى الآن، والذي ترتب على النصر البريطاني. وحتى بعد استقلال الولايات المتحدة فقد ظل تأثيرها شديد الأهمية على شتى المجالات. لقد أرادت الإدارة البريطانية في أمريكا الشمالية أن تضمن السيطرة شبه الكاملة على تلك القارة وخططت لها مع الحكومة في لندن، ولذلك خاضت تلك الحرب التي خلقت عالمًا جديدًا أصبحت فيه الامبراطورية البريطانية هي القوة العظمى في العالم آنذاك، وضمنت سيادة اللغة الإنجليزية حتى الآن، ولذلك يعتقد المؤلف أن تلك الحرب تستحق أن تكون حربًا عالمية مثلها مثل الحربين العالميتين في القرن العشرين.

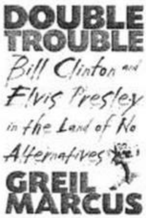
□ □ □

Double Trouble: BillClinton and Elvis Presley in the land of no Alternatives

(مشكلة مزدوجة، بيل كلينتون والفيس بريسلي في أرض اللا بدائل)

Greil Marcus

Faber and Faber, 2000,248PP., £9.99



في ٢٠ يناير الحالي يغادر الرئيس الأمريكي بيل كلينتون البيت الأبيض بعد ٨ سنوات تولى فيه رئاسة الولايات المتحدة وأحدث خلالها إيجابيًا وسلبيًا ما لم يحدث خلال سنوات طويلة خلت. ولو كان الدستور الأمريكي يتيح له أن يترشح لفترة رئاسة ثالثة لكان قد فاز بسهولة رغم أن هناك من أضفى عليه صفات شيطانية لم يحدث لها مثيل منذ رئاسة نيكسون. إذن لماذا يحب الشعب الأمريكي كلينتون مع كل هذا الهجوم ضده؟ مؤلف هذا الكتاب يجيب عن السؤال في عبارة واحدة هي لأن كلينتون هو ألفيس بريسلي ذلك الفنان الأمريكي الذي تحول إلى أسطورة.

ويقول المؤلف إن كلينتون لديه أشياء مما كانت لدى ألفيس. فهو من أصحاب الوزن الثقيل مثل ألفيس بريسلي، لكنه وقبل كل شيء يماثل ألفيس في أنهما من خارج المؤسسة فكل منهم أبيض من الجنوب الأمريكي ليس لديه الأسرة الفاحشة الثراء التي تستطيع أن تحقق له كل ما يريد. لقد ترسخت تلك الفكرة التي تربط بين الاثنين في عام ١٩٩٢ خلال حملة كلينتون الأولى للفوز بالرئاسة، فقد صعد إلى المنصة وعزف على آلة الساكسفون المحببة لديه. وطبقًا لأحد الكتاب الأمريكيين فإن كلينتون فاز بالرئاسة في تلك اللحظة تقريبًا.

وقد أدهش التماثل بين ألفيس وكلينتون مؤلف الكتاب جريل ماركوس وهو أحد أهم نقاد الروك أند رول في الولايات المتحدة.

وهو يتحدث عن جيل كلينتون الذي ناهض حرب فيتنام وتعاطى المخدرات والذي تكن له المؤسسة المحافظة واليمين المسيحي في الولايات المتحدة كراهية بالغة الشدة له لدرجة أن هذه المؤسسة وهذا اليمين اعتبرا فوز كلينتون بالرئاسة

عروض موجزة

عام ١٩٩٢ بمثابة انقلاب وليس هزيمة ديمقراطية كما أنهما رفضا الاعتراف بشرعية رئاسة كلينتون. ورغم أن كلينتون تراجع عن كثير من أفكاره وبرامجه الاجتماعية والسياسية بسبب معارضة الكونجرس ذي الغالبية الجمهورية إلا أنه يبقى - حسب رأى المؤلف - نموذجًا لأولئك الأطفال المنحدرين من أسر فقيرة الراغبين في تحقيق الحلم الأمريكي مثلما فعل الفيس.

□ □ □

From Empire to Europe

(من الامبراطورية إلي أوروبا)

Geofrrey Owen

Harpercollins, 2000, 335PP., £8.99



صدرت كتب كثيرة للغاية عن الامبراطورية البريطانية وأسباب نهايتها وعن بريطانيا ما بعد الامبراطورية التى كانت لا تغيب عنها الشمس، لكن معظم الدراسات ركزت علي الجانبين السياسى والعسكرى وتاثيراتها على بريطانيا وعلي العالم. ويأتى هذا الكتاب الذى وضعه جيوفرى أوين الصحفى المتميز في صحيفة «الفاينانشيال تايمز» ليركز علي الجانب الصناعى ومدى تأثير انهيار الامبراطورية علي صناعات بريطانيا بعد الحرب العالمية الثانية.

ويدهشنا المؤلف بانه لم يتبع الخط الذى سار عليه معظم المؤرخين والكتاب، وهو أنه بعد انهيار الامبراطورية اضطرت بريطانيا للتعامل مع المنافسة الدولية بشكل حقيقى وبالتالى تخلت عن بعض صناعاتها أو انخفضت إمكاناتها في صناعات أخرى.

ويقول المؤلف إن هناك وسط هذا الحديث عن الفشل والانهيار، قصص نجاح عظيمة فى صناعات عديدة، وأن الأمر لم يكن فشلاً علي طول الخط.

ويقدم أوين إحصاءات كثيرة تدعم رأيه هذا إلا أن أهم ما يقدمه الكتاب هو أن المؤلف يقدم شروحًا وحججًا كثيرة ومعقولة لصالح وجهة نظره، ويشير إلي أن الحديث الكثير والكئيب عن وضع بريطانيا كدولة في الستينيات والسبعينيات والثمانينيات دليل فى حد ذاته علي أن بريطانيا كانت في مرحلة تحول من قوة امبراطورية إلي مجرد بلد أوروبى آخر.

ويضيف أنه في تسعينيات القرن العشرين، فإن بريطانيا لم تجد لنفسها دورًا كدولة ذات قوة متوسطة فقط، بل إنها اندمجت بشكل جيد في الاقتصاد العالمي، وهى حصلت علي كثير من الفوائد لدخولها في عصر اقتصاد الإنترنت.

□ □ □

Women Guns, Politics and Culture of Firearms in America

(أسلحة المرأة، سياسات وثقافة الأسلحة النارية في أمريكا)

Deborah Homsher

Cloth, 2000, $32.95



قضية الأسلحة الشخصية تثير جدلاً شديدًا فى داخل المجتمع الأمريكى، خاصة بعد سلسلة الحوادث التى كان أبطالها أطفالاً صغارًا أطلقوا النيران علي زملائهم في المدارس، وهى حوادث أفرد لها الإعلام الأمريكى حيزًا واسعًا من تغطياته. ورغم محاولات الإدارة الأمريكية الحد من انتشار هذه الأسلحة، إلا أن لوبى السلاح القوى للغاية قاوم هذه المحاولات والضغوط معتمدًا في ذلك علي تراث طويل من الملكية الشخصية لهذه الأسلحة، الأمر الذى يجعل من قضية ملكية الأسلحة النارية ذات أبعاد كثيرة لا يدركها كثيرون خارج الولايات المتحدة.

ويعالج هذا الكتاب خبرة المرأة الأمريكية مع الأسلحة وموقفها من هذه القضية ومدى مشاركتها في النقاش العام في الولايات المتحدة بشأن الأسلحة والعنف. وقد أجرت المؤلفة لقاءات مع سيدات من شتى مناحى الحياة الأمريكية سواء كانت مشاركتها في قضية الأسلحة أساسية أو هامشية أو بالمصادفة.

ويحتشد الكتاب بقصص كثيرة عن مخاطر مآسى امتلاك الأسلحة في المجتمع الأمريكى وسهولة وصولها إلى الأطفال، الأمر الذى يجعلها تخرج عن نطاق الاستخدام الرشيد. وستظل قضية الأسلحة الشخصية مثارة بقوة في المجتمع الأمريكى وسيظل هناك من يعارضون أى تنازل بشأن حق المواطن في امتلاك تلك الأسلحة، ومن يطالبون بوقفة حازمة للتخلص من آثارها المدمرة للأسرة والمجتمع. وميزة هذا النقاش أنه ككل المناقشات في الولايات المتحدة مفتوح وحر وملئ بالمعلومات وبالحقائق وبوجهات النظر المتضادة بشكل مثير.

□ □ □

The Cunning of unreason

(المكر غير المعقول)

John Dunn

Harper Collins, 2000, £19.99



ما هى السياسة؟ ماذا تحقق؟ وكيف يمكن فهمها؟ هذه الأسئلة وعديد مثلها يطرحها مؤلف هذا الكتاب «جون دان» أستاذ النظرية السياسية في جامعة كمبردج البريطانية، ومن خلال هذه الأسئلة يناقش المؤلف عديدًا من القضايا حول طبيعة السياسات الوطنية والدولية وطبيعة الدولة وطبيعة الرأسمالية والسلطة والنفوذ ومخاطر التعرض لكارثة بيئية.

ولأن الرأسمالية حاليًا تسيطر علي العالم بعد انهيار الشيوعية، فإن الرأسمالية تسيطر أيضًا علي هذا الكتاب وفي هذا الجانب يقول المؤلف إن ما قيل حول سيطرة الرأسمالية وسيادتها كانت من أسوأ الأشياء التي حدثت خلال السنوات القليلة الماضية. وهو ليس حزينًا بالطبع علي سقوط الاتحاد السوفيتي وانهيار الماركسية وتبخر الأوهام، حسب قوله، حول الماركسية اللينينية لكنه في نفس الوقت لا يرحب بظهور أوهام جديدة حول سيادة الرأسمالية دون منازع وبأنها ستظل إلي الأبد النظام الاقتصادى الوحيد. لكن ذلك لا يمنع المؤلف من الحديث عن سطوة الرأسمالية وتأثيرها علي شتى مناحى الحياة. ويقول إن الرأسمالية استولت علي الإعلام ويستشهد بقول وزير الخارجية البريطاني جورج كاننج عام ١٨٨٢ عندما أبلغ مواطني دائرته الانتخابية ليفربول بأن القوة العملاقة للرأى العام تتجسد في الصحافة الحرة. ويشير المؤلف إلي أن الإعلام أصبح أقوى مما كان في عصر كاننج، لكن الإعلام اليوم تغير فقد أصبح صناعة ضخمة وهو جزء لا يتجزأ من الرأسمالية العالمية. ويعبر هذا الإعلام عن مالكيه وعن أهدافهم ورغباتهم أكثر من تعبيره عن الرأى العام.

ولأن المؤلف بريطاني فإنه يتحدث بشكل عملى عن سياسات بلاده خاصة الفترة التي أعقبت وصول مارجريت تاتشر إلي الحكم عام ١٩٧٩ والتغيرات التي أحدثتها في المجتمع البريطاني ويوجه انتقاداته إلى بعض سياساتها التى أدت إلي انقسام حقيقى في المجتمع بين أقلية غنية وغالبية فقيرة بحكم المعايير الغربية طبعًا.

□ □ □

The Life of Verdi

(حياة فيردى)

John Rosselli

Cambridge University Press, 2000, 204PP., $49.95



القراء المصريون والعرب المهتمون بالموسيقى الغربية يتذكرون جيدًا الأوبرا الشهيرة عايدة التى وضع ألحانها بعيد منتصف القرن التاسع عشر بمناسبة افتتاح قناة السويس. وقد صدر هذا الكتاب بمناسبة الذكرى السنوية المائة لوفاة فيردى في يناير الحالى.

ولد فيردى في منطقة فقيرة هى رونكول قرب «بارما» وقد مثلت موسيقاه انعكاسًا لمناخ الأمل والطموح والنهضة الذى ساد إيطاليا في عهد الملك فيكتور عمانويل أول ملك لإيطاليا الموحدة بعد مئات السنين من الانقسام والتجزئة. وقد أصبح فيردى رمزًا للقومية الإيطالية، بالرغم من أن هذه القومية تطرفت في شعورها بعد ذلك في عهد موسولينى، ورغم أنه لم يكن يمثل معجزة أو عبقرية غير عادية إلا أن فيردى ألف ٢٨ أوبرا وموسيقى جنائزية. ويقول المؤلف وهو أستاذ في جامعة ساسكس في إنجلترا إنه ألف كتبًا عن موتسارت ونيلينى، لكن كتابه عن فيردى لم يكن مثار سعادة بالنسبة له نظرًا لصفات شخصية فيردى. ويشير المؤلف إلي أن العمل في الكتاب جعله لا يحب هذه الشخصية الأوتوقراطية، فهو يعمل في العقارات ويخصص جزءًا من وقته للموسيقى، وقد تحول إلى ناقد رجعى في سنواته الأخيرة.

ويتحدث الكتاب عن الظروف السياسية التي سادت إيطاليا لدى ولادة فيردى عام ١٨١٣ ويتناول الحروب النابوليونية في القارة الأوروبية وتأثيرها الواضح علي إيطاليا التى خضعت للحكم الفرنسى في عهد الثورة.

الأمــــير

٤ـ فى أمناء الأمراء

إن اختيار أمناء أمير ليس بأمر قليل الأهمية؛ فالأمناء إما صالحون وإما غير صالحين تبعًا لحجا (عقل) الأمير. ويحصل المرء على أول انطباع عن حاكم وعقله حين يرى الرجال الذين حوله. فعندما يكونون قادرين ومخلصين يمكنه دائمًا أن يعتبر الأمير عاقلاً، لأنه استطاع أن يتعرف ما قدرة أمنائه، وأن يحتفظ بهم مخلصين، ولكن عندما يكونون على العكس من ذلك يستطيع المرء دائمًا أن يكوّن عن الأمير رأيًا غير مقبول، لأن أول خطأ له يكون فى هذا الاختيار.

وللرجال ثلاثة عقول مختلفة:

الأول: يفهم الأمور دون معونة سواه. والثانى: يفهمها حين يبينها غيره له. والثالث: لا يفهمها بمفرده ولا بشرح سواه.. إن النوع الأول أكثر الثلاثة امتيازًا، والثانى ممتاز أيضًا، ولكن الثالث عديم الفائدة.

ولكى يتسنى للأمير أن يعرف وزيرا فثمة هذه الطريقة التى لا تخفق أبدًا. عندما ترى الوزير يفكر فى نفسه أكثر ما يفكر فيك، ويبحث عن مصلحته الخاصة فى جميع أعماله، فلن يكون مثل هذا الرجل وزيرًا صالحًا، ولا يمكنك الاعتماد عليه؛ لأن واجب من فى يده مقاليد أمور ولاية غيره ألا يفكر فى نفسه أبدًا، بل عليه أن يفكر فى الأمير بمفرده، وألا يعبأ بأى شىء سوى ما يخص الأمير. ومن ناحية أخرى، ينبغى للأمير لكى يصون وفاء أمينه أن يفكر فيه، ويكرمه ويثريه، ويعطف عليه، ويمنحه رتب الشرف، ويوليه الأعمال ذات المسئولية، حتى يجعله الشرف والثراء العظيمان اللذان قد منحا له لا يرغب فى غيرهما، وتجعله السلطات العامة التى لا يتولاها يخشى التغييرات السياسية.

مــــــــلاحـظـات

لا أظنني في حاجة لأن أقول إن مجلتكم جاءت فتحًا مهمًا فى ميدان الحياة الثقافية العربية، وأنها تسد ثغرة كبيرة فى احتياجات القارئ العربى الذى لا تسمح له ظروفه بمتابعة الإنتاج الفكرى العالمى فى ميادين السياسة والاقتصاد والعلم.. إلخ. بل إنها تقدم زادًا فكريًا حتى للمثقفين الذين يجيدون لغات أجنبية، وهى بعنايتها بقضايانا الوطنية والقومية تسهم فى نشر وعى صادق نحتاج إليه كثيرًا.

وفى إطار تقديرى للمجلة أرجو أن تسمحوا لى بإبداء بعض الملاحظات التى أتمنى أن تكون مفيدة فى اتجاه تطويرها للأفضل:

أولاً: إن العناية بالعلوم والتكنولوجيا مسألة مهمة فى برنامج مجلتكم دون شك، ولكن ينبغى أن نتذكر دائمًا أنها تخاطب القارئ غير المتخصص فى العلم، ولذلك فقد يصعب على هذا القارئ متابعة مقالات علمية تشغل ست صفحات من نوع صفحات مجلتكم. وأنا بالطبع أدرك أن مسألة الإيجاز مع الوضوح فى قضايا العلم هى أمر صعب، ولكن ينبغى أن نحاول فى هذا الاتجاه.. وأتذكر بهذه المناسبة كلمة بليغة كتبها سعد زغلول فى خطاب مطول أرسله إلى الشيخ محمد عبده فى منفاه بالشام قائلاً: «أرجو المعذرة للإطالة فليس عندى وقت للإيجاز».

ثانيًا: مع الموضوعات الدسمة الضرورية لمثل مجلتكم لابد من بعض الموضوعات الخفيفة والطريفة التى تعين القارئ على المتابعة. وأقترح لذلك أن تنشر المجلة ما أسميه «القصة القصيرة ـ الطويلة» أحيانًا وذكريات لكتاب معروفين أحيانًا أخرى وقصائد لشعراء حاليين ولا تكتفى بنشر شعر شعراء رحلوا عن دنيانا.

ثالثًا: أعتقد أنه من الضرورة توجيه عناية خاصة لباب رسائل القراء، بحيث تحتوى رسائلهم ليس على ملاحظات نقدية للمجلة فقط، بل تتضمن حوارًا مع كتاب المقالات حول ما يرد فيها من آراء.

د. عبد العظيم أنيس
أستاذ بجامعة عين شمس

التـــــــراشق بالحكايات

فى عددها الثانى والعشرين طالعتنا (وجهات نظر) ـ كما عودتنا دائمًا ـ بمجموعة رائعة من المقالات، ولأننى من المهتمين بقضية التعليم، وأعدها أخطر القضايا التى تواجهنا فى المرحلة الراهنة، وأعد التعليم بوضعه الراهن سببًا مباشرًا دائمًا وغير مباشر أحيانًا لكل مشكلاتنا الراهنة والمستقبلية، ولأننى بصدد إعداد دراسة موسعة استنادًا لخبرة فى هذا المجال، فقد لاقى مقال الأستاذ محمد فتحى (بطالة التعليم المقنعة: أين نحن من العالم؟) الصدى الواضح لدى، وأثار فى نفسى الكثير من الأشجان، بل نكا كثيرًا من الجراح.

بداية ترسم السطور الأولى للمقال صورة للحالة التى يقف عليها العالم الآن:

«المتابع لما يجرى فى العالم خلال السنوات الأخيرة والوتائر التى يجرى بها، يدرك مدى العزلة التى تتهدد العربى، حتى أننا بتنا على وشك العيش فى جيتو منقطع الصلة بما يجرى حوله».

وإذا اتفقنا مع الأستاذ محمد فتحى فى أن العزلة توشك أن تقع على المستوى الاجتماعى العام، فإنها قد وقعت بالفعل فى المؤسسات التعليمية، وخاصة فى المراحل الأولى التى تعد بمثابة الأساس لأى عملية تعليمية تربوية (فالطالب يصل الجامعة محملاً ومشبعًا بالكثير من المفاهيم الخاطئة عن التعليم، مما يجعل إصلاحه وتعليمه عملية غاية فى الصعوبة)، ولا تغرنك الدعاية التى تنشرها وزارة التربية والتعليم من أن الكمبيوتر قد دخل المدارس جميعها، فهى حكاية أشبه بحكاية دخول الكهرباء لبعض القرى الفقيرة قديمًا، يكتفى ببعض المصابيح فى الشوارع، ولكن هذه القرى كانت فى حاجة إلى عشرات السنين لتستفيد من هذه النقلة الحضارية من خلال الأجهزة الكهربائية التى تعتمد على الكهرباء، ومازال بعض الأفراد فى هذه القرى يكتفون بدخول الكهرباء قراهم أو بيت العمدة دون أن تدخل بيوتهم، فالواقع يقول إن هذه الأجهزة (أجهزة الكمبيوتر) فى أمكنة أمينة لا يستفيد منها إلا القليلون، ولا أدرى السبب فى تحريمها على مدرسى المدرسة (وكيف نطالب المعلم أن يكون مواكبًا العصر أو معلمًا تلاميذه ما هو محروم منه، وإذا كانت ظروف المعلمين لا تسمح باقتناء أجهزة خاصة، فلماذا نحرمهم من أجهزة تكاد تكون معطلة فى بعض المدارس، ولماذا لا نستثمر فترات العطلات (الصيفية، نصف العام) فى تدريب المدرسين. لقد أصبح الكمبيوتر ضرورة تعليمية وتثقيفية لا غنى عنها لأى معلم أو متعلم، فلماذا لا نبدأ من المعلم أولاً.

إن المعلم (ولست فى حاجة لأن أدلل على أهميته فى العملية التعليمية) يعد فى مصر من أهم قضايا التعليم، والأمر الذى غاب عن وعى وزارة التعليم (كما غابت أو غُيّبت أمور كثيرة) أن كل تطوير فى المنهج يغفل تطوير المعلم نفسه فمحكوم على هذا التطوير ومعه العملية التعليمية كلها بالفشل الذريع، كل ذلك عزل المعلم وحيّده تمامًا. فكيف وماذا ننتظر منه وفاقد الشىء لا يعطيه، وكانت نتيجة ذلك أن قتلنا كل الجوانب الإبداعية والعمليات العقلية فى متعلمينا، إذ تحولوا إلى أجهزة كاسيت بفضل التلقين والحفظ.

منذ ما يقرب من ألف وخمسمائة عام وقف المثقف الجاهلى الخطيب (قسُّ بن ساعدة الأيادى) يقول:

«أيها الناس اسمعوا وعوا» ولم يقل اسمعوا واحفظوا ومع هذا كان المفترض ـ بفعل التطور الطبيعى للحياة ـ أن نتجاوز

هذه الدعــوة بأن نســمـع ونعـى ونفكر ونبتكر، ولكن هيهات ثم هيهات ثم....!!

ثم يقول الأستاذ محمد فتحي:

«ومن حسن الحظ فإن إمكانات تجاوز هذا المأزق المصـيـرى ممكنـة، فى حـدود الإمكانات المتــوافــرة، إذا تخلينا عن الارتبـاك، والتـفكير التـقليـدى، وتحلينا ببعض اليقظة والسلوك الإبداعى».

والسـؤال: كـيف يتم ذلك يـا سـيدى ونحن نرى الوزارة المســئولة تعــامل العملية التعليمية بمعيار الكم لا الكيف؟ فالعام الدراسى يقاس بعدد الأسابيع لا بما يجب أن يحـصله الطالب، والكتـاب يقاس بعدد صـفحـاته لا بموضـوعاته، واليوم الدراسى بعدد الحصص لا بكيفية أو نوعية ما يجب أن يُقدم للدارس.

لقـد تحـول الحديث عن العـمليـة التعليمية إلى كتابة إنشائية لأن الوزارة المسئولة لا تعتد بما يقال، فتخرج لسانها لأية أفكار جديدة (فى يوليو الماضى كنت أشارك فى مؤتمر عن التعليم، عقد بجامعة الدول العربية، استفزنى الكم الهائل من الأفكار التربوية التى تصدر عن عقول تمثل كمًا هائلاً من خبراء التربية فى مصر، فكان تعليقى: لماذا نصرخ من مشكلات التعليم ولدينا هذه الخـبـرات العلمـيـة والتعليمية؟)، لذا لا يعد من نافلة القول أن نقول: أن وجود النص يغنى عن تطبيقه.

كـيف يتم ذلك والوزارة المنوط بها أن توفر الاستقرار، غير مستقرة فى قراراتها أو مبانيها أو مناهجها أو متطلبات نظام العمل، هل يعقل أن تمر عشر سنوات على معلم دون أن يحصل على دورة تدريبية واحدة لرفع مستـواه الأدائى والعلمى والتربوى والمهنى؟!

لقد تطرق المقال إلى قضايا عدة، تكتسب قيمتها من الوعى بها أولاً، والعمل بها ثانيًا، وبعد أن عرض لأسباب العزلة وخطورتها يضعنا أمام قضية أخطر:

«نحن نبـحث بالطبع عن حلول واقعية، ليست من قبيل العمل على إشاعة اسـتـخدام الكمبيوتر والأقراص إياها والاتصال بالشبكات العالمية و.... بل نعتمد على إمكانات متيسرة فى هذه اللحظة لأوسع فئات المجتمع، ولا تحتاج إلا إلى القرار والمواءمة».

إذ يتوقف عند التليفزيون بوصفه وسيلة فعالة فعلينا أن نفصل بين نقطتين:

- التليفزيون يقدم مادة تثقيفية.
- التليفزيون يمنح وزارة التربية والتعليم مساحة لبث برامج تعليمية بواسطة رجال الوزارة و(خبرائها)، وأكتفى هنا بالإشارة إلى:

١ - من يقدمون هذه المادة من رجال التعليم يحولون البرامج إلى حصة تلقين ويتحولون هم إلى مدرسين، لا فرق بينهم وبين المدرس الذى تركه الطالب فى الفصل منذ قليل (ويتفوق مدرس الفصل بأن الطالب لديه الفرصة للحوار والمناقشة) وأكتفى دون ذكر أسماء أو الاستغراق فى الأمثلة (وما أكثرها) بالإشارة إلى درس اللغة العربية الذى تُقدم فيه قصيدة صخرة الملتقى لإبراهيم ناجى ومدى التخبط الذى يعانيه مقدم القصيدة، إذ يفرض عليها مثلاً شيئًا ليس فيها (قبل الشرح) يناقضه هو نفسه عند الدخول فى النص، فأين استثمار تقنيات التقديم التليفزيونى (العبء هنا على المقدم لا الجهاز).

٢ - التوقيت الذى تذاع فيه البرامج التعليمية ومناسبته للطالب (الجمعة صباحًا حيث معظم الطلبة يعوضون الاستيقاظ المبكر طوال أيام الأسبوع فينامون حتى ساعة متأخرة من صباح الجمعة، خاصة بعد ليلة الخميس التى تمثل الفرصة الوحيدة الممنوحة من الآباء للسهر فى غير المذاكرة، أو أثناء تواجد الطلبة بالمدارس أو أثناء فترة الراحة بعد العودة مباشرة من المدرسة).

ويتضمن ما تتلقاه يوميًا السيدة ليلى صالح رئيس الإدارة المركزية للبرامج التعليمية بالتليفزيون من عشرات التليفونات والفاكسات المتسائلة عن: لمن تقدم البرامج التعليمية؟، فمواعيد البرامج فى القناة الثانية والثالثة تبدأ فى الثانية والنصف وهو موعد انتهاء اليوم الدراسى تمامًا على اعتبار أن المدرسة موجودة فى الغرفة المجاورة لغرفة الطالب وما عليه إلا الخروج منها إلى البرامج التعليمية ويشير المنشور إلى أن القناة الثالثة أذاعت البرامج التعليمية يوم الأحد الماضى فى الواحدة والنصف أى قبل ساعتين من عودة الطلبة لمنازلهم.

الموضوع أكبر من أن يُحاط به فى سطور قليلة تحكمها المساحة ولنا عودة مستفيضة، وكم كنت أتمنى أن تتاح الظروف لأن أتراشق بالحكايات مع الأستاذ محمد فتحى، فلدى الكثير منها مما يخص العملية التعليمية، وأتمنى أن يوسع الكاتب من كتاباته حول الموضوع لخطورته ولأنه يمتلك الكثير (وأنا متيقن من ذلك) مما يقال.

د. مصطفى الضبع
كلية دار العلوم - الفيوم - جامعة القاهرة

الامتناع عن قراءة الصحف

تعليقًا على مقال رئيس التحرير فى عدد ديسمبر الماضى:

منذ سفرى لقضاء أجازتى السنوية المعتادة في أمريكا الشهر الماضى، وأنا ممتنع تمامًا عن قراءة جميع الجرائد والمجلات المحلية وحتى رؤية جميع قنوات التليفزيون المحلية باستثناء مجلة «الكتب.. وجهات نظر» وقبل ذلك كنت أقرأ صباح كل يوم، فضلاً عن الجرائد الحكومية من ٣ إلي ٤ مجلات وجرائد معارضة أو غير معارضة.

مقال سيادتكم الأخير «يوجع القلب» ويؤكد صوابى في الاستمرار علي ما أنا عليه.

وصفى حنا واصف
القاهرة

كتاب الزاوية

الأمـــير

٥ - كيف المفر من المتملقين؟

ويجب ألا أغفل عن موضوع مهم، وأن أذكر خطأ الأمراء الذى لا يستطيعون مجانبته بغير صعوبة، إلا إذا كانوا على درجة كبيرة من الحكمة، أو لم يسيئوا الاختيار، وهذا الموضوع هو ما يتعلق بالمتملقين الذين يحفل بهم كل بلاط، لأن الناس يبتهجون لأمورهم الخاصة ويخدعون بها أنفسهم، حتى أنهم لا يستطيعون أن يتقوا شر هذا الطاعون إلا بصعوبة. وحين يرغبون فى اتقائه يخاطرون باحترامهم، ويصبحون أزرياء، لأنه لا توجد طريقة أخرى ليقى المرء نفسه شر التملق سوى أن يدرك الناس بفهمون أن قولهم الحقيقة لن يؤذيه. ولكنك تفقد احترامهم لك حينما يستطيع كل إنسان أن يخبرك بها. ولذا يجب على الأمير الحكيم أن ينهج على طريقة ثالثة، وهى أن يختار لنصحه رجالاً حكماء، ويعطى لهؤلاء بمفردهم الحرية التامة لكى يذكروا له الحقيقة فيما يتصل بتلك الأمور التى يسأل عنها فقط، ولا شيء سواها. ولكن عليه أن يسألهم عن كل شيء، ويسمع لرأيهم، ثم يتداول الأمر مع نفسه على طريقته الخاصة، ويوافى هذه المجالس مجتمعة، وكلا من هؤلاء الرجال على انفراد حتى يستطيع كل منهم أن يرى أنه كلما كان حرا فى الرأى كان أكثر قبولا عند الأمير. وينبغى له ألا يستمع إلى غير هؤلاء، وأن يأخذ فى العمل بأناة وتفكير، وأن يكون فى قراراته حازمًا. وكل من يفعل غير ذلك فإما أن التملق يفضى به إلى أن يعمل فى عجلة، أو أنه لا يقر له قرار أبدًا لتباين الآراء؛ والنتيجة أن يفقده ذلك كل اعتبار.

“ نون ”

عام ٢٠٠٠:

من جنون البقر إلى جنون السياسة

انقضت السنة الأولى فى الألفية الجديدة، مخلفة وراءها من الأحداث ما لن تمحوه الذاكرة، وكأنها افتتاحية سريعة الإيقاع لسيمفونية عالمية تصور ما سوف تكون عليه البشرية فى مستهل عصر جديد. تقلبت فيها المواقف من النقيض إلى النقيض، وتحولت أحلام السلام فى بدايتها إلى أوهام ودماء فى نهايتها. وغاصت ثورة العلم والتكنولوجيا فيها إلى أعماق وآفاق جديدة ضاعفت من سعادة الإنسان وشقائه بنفس الدرجة. وظهرت بوادر أوبئة وأخطار تهدد الإنسان والطبيعة.. وزادت هيمنة التكتلات الدولية وغطرسة القوة العسكرية والسياسية. ولم يخل الأمر من مشهد مأساوى بدا وكأنه ملهاة دولية، حين تعرضت الحياة السياسية فى أكبر دولة ديمقراطية إلى أزمة دستورية ومعارك قانونية، لا تكاد تختلف عما يمكن أن يحدث فى أى دولة نامية، مازالت تحبو على مدارج الديمقراطية.

مشهد العام المنصرم، الذى يمثل افتتاحية حافلة بالمشاكل والأزمات لقرن جديد وألفية جديدة، يزخر بأحداث لم تكتمل، وبدايات لم تنته، وإشارات لم تتجسد، وأحلام لم تتحقق، ورؤى مترعة بالأوهام.. يقف العالم العربى منها موقف المتفرج، الذى يتلقى الطعنات بالصياح والعويل. ويعجز عن تحويل غضبه ومعاناته إلى فعل واع منظم، وإلى موقف صلب متماسك، يذود فيه عن نفسه الضربات، وينزل بخصومه نفس القدر من الآلام والشقاء.

بالنسبة لنا فى العالم العربى يبدأ العام المنقضى بأناشيد السلام ترتلها الألسنة والأقلام، بينما تعقد اللقاءات وتشتد سخونة المحادثات فى منتجعات على ضفاف البحر الأحمر أو وسط المروج الخضراء قرب العاصمة الأمريكية فى واى بلانتيشن وكامب ديفيد، مبشرة بقرب الوصول إلى اتفاق سلام ينهى حالة الحرب ويعيد للفلسطينيين حقوقهم. وتتسرب التفاصيل والبنود مادة وراء مادة، غامضة مبهمة، تتحدث عن الحل النهائى وقرب إعلان الدولة الفلسطينية، ويزداد التعاون والتحالف لضرب المعارضين والمشككين وأعداء السلام.. وترسم الخطط وتبدأ الاستعدادات لعقد مؤتمر جامع مانع يضع نهاية لكل الحروب والصراعات، يجعل أعداء الأمس أصدقاء اليوم. ويكثر الحديث عن المشروعات الاقتصادية المشتركة والأموال التى ستتدفق على المنطقة. وأنهار العسل واللبن التى ستشق صحراوات العرب الجرداء وتضعهم على خريطة التقدم والرخاء فى العالم.

ثم تسقط الأقنعة فجأة مع نهاية العام عن مشهد بالغ الوحشية والقسوة، تتحطم على صخرته آمال السلام وأوهامه.. فبعد أن فشلت المفاوضات مع سوريا، أعقبها فشل ذريع مع الفلسطينيين.. كشفت فيه إسرائيل عن وجه عنصرى قبيح، وعادت القوة العسكرية المتفوقة لإسرائيل تفرض وجودها، بضرب القرى والمدن وقصفها بالطائرات والدبابات وقتل الأطفال وسحق الانتفاضة الشعبية دون رحمة، واستخدام سياسة «الأرض المحروقة» التى استخدمتها القوات النازية فى الحرب العالمية الثانية ضد أعدائها. فلا ينتهى العام إلا وقد عادت النهايات إلى بداياتها الحقيقية. وإذا العالم العربى يقف على حافة بحر واسع يضطرب باحتمالات وتهديدات غير محسوبة، لا تجدى معها مؤتمرات قمة تدعى على عجل دون أن تخلص النوايا.

فى مصر بدأ العام بأحداث الكشح التى فجرت فتنة دامية بين الأقباط والمسلمين فى صعيد مصر، أيقظت شكوكًا غير مبررة حول سؤال الهوية فى شعب ذابت فى تراثه معظم العقائد والأديان، وتركت بقعًا من الدماء على صفحات كثيرة.. لم يكن من السهل إزالتها إلا بجهد جهيد. ومع ذلك فقد أعادت وضع المشكلة فى بؤرة الاهتمام.. اهتمام الدولة والمثقفين وأفراد الشعب العاديين. ومازالت ذيولها تنعكس كل يوم فى حادث يقع هنا أو هناك، فى كتاب يطبع، أو مسلسل تليفزيونى يبث، أو انتخابات تشريعية تجرى..

وبقدر ما كانت أحداث الكشح مصدرًا للإحباط، فقد كانت دليلاً على أن تطور المجتمع المدنى فى مصر أصيب بنكسة.. حالت بينه وبين التقدم والارتقاء ليكون بمنظماته وأحزابه ونقاباته وجماعاته المدنية والسياسية، بديلاً عن الانتماءات العصبية والطائفية والعائلية. ومن ثم فقد شهدت البلاد مع نهاية العام انتخابات عامة، توافرت لها ضمانات الإشراف القضائى الذى يحقق درجة من النزاهة غير مسبوقة. ومع ذلك منيت الأحزاب السياسية بأكبر هزيمة عرفتها. فلم يلتفت الشعب إلى الوجود السياسى لهذه الأحزاب. واتضح أن ثمة مسافات شاسعة تفصلها عن الناخبين. وأن الغلبة كانت للانتماءات العائلية والعصبية وجاذبية رأس المال والخدمات الخاصة.. فإذا بالتجربة الانتخابية تصيب جميع الأطراف والقوى بصدمة. ولا أحد يعرف هل تفضى هذه الصدمة إلى الاعتراف بالحقيقة تمهيدًا لتغييرها. أم تنزلق على السطح الأملس الناعم لوعى الأمة دون أن تخلف أثرًا وراءها؟

ومع ذلك، فلم تمض السنة الأولى من الألفية الثالثة دون إنجازات تبعث على التفاؤل.. حين توصل فريقان من العلماء فى وقت واحد إلى خريطة الجينوم البشرى أو ما يمكن أن يسمى سفر الإنسان. وأزيح الستار عن المادة الوراثية أو منظومة الجينات التى تحدد العناصر الوراثية التى تتحكم فى جسم الإنسان. واعتبر هذا الاكتشاف فتحًا علميًا خطيرًا سوف تنعكس آثاره على تشخيص كثير من الأمراض المستعصية والتنبؤ بها، والتوصل إلى العقاقير والأدوية اللازمة لعلاجها.

ومثل كل الاكتشافات العلمية فإن له جوانبه المخيفة بالنسبة لمصير الإنسان. فكما كانت الطاقة الذرية لدى اكتشافها مصدرًا لسعادة متوقعة، فإنها تحولت وفى غضون سنوات قليلة إلى نقمة على مصير البشرية. وبالمثل فإن اكتشاف الجينوم البشرى قد يؤدى إلى سوء استغلال الحقائق العلمية والأسرار الوراثية للإنسان، فى إحداث ثورة عنصرية تعرض مصير الجنس البشرى للخطر.

وفى واد آخر من وديان الإبداع العلمى والتكنولوجى، أثبتت ثورة الاتصالات أنها مازالت تعدو على طريق المستقبل بسرعة تتجاوز قدرة المجتمعات والحكومات على الاستيعاب. وأن سقوط الحواجز بسبب الإنترنت والفضائيات وأجهزة الاتصال السريعة، يفعل فعله فى تغيير العلاقات الدولية، والهيمنة الاقتصادية، والتأثيرات الاجتماعية والثقافية. وتسير عمليات التكيف مع هذه التغيرات بدرجات متفاوتة، ولكن حصاد العام المنصرم من هذه الثورة يؤكد أن شعوب العالم الثالث والدول الأشد فقرًا، سوف تدفع ثمنًا باهظًا. وقد تتعرض لموجات حصار وعزل، تحرمها من الانتفاع بثمار هذه الإنجازات.

وفى الأسابيع الأخيرة لم يصدق الناس أن أول استهلال للألفية الثالثة، يمكن أن يشهد حدثين أو فضيحتين على جانب كبير من الإثارة، تبرهنان على أن الشوط مازال بعيدًا أمام تقدم المجتمعات وسعادة الإنسان. وأن الإنجاز البشرى دائمًا معرض للنقص والتآكل.

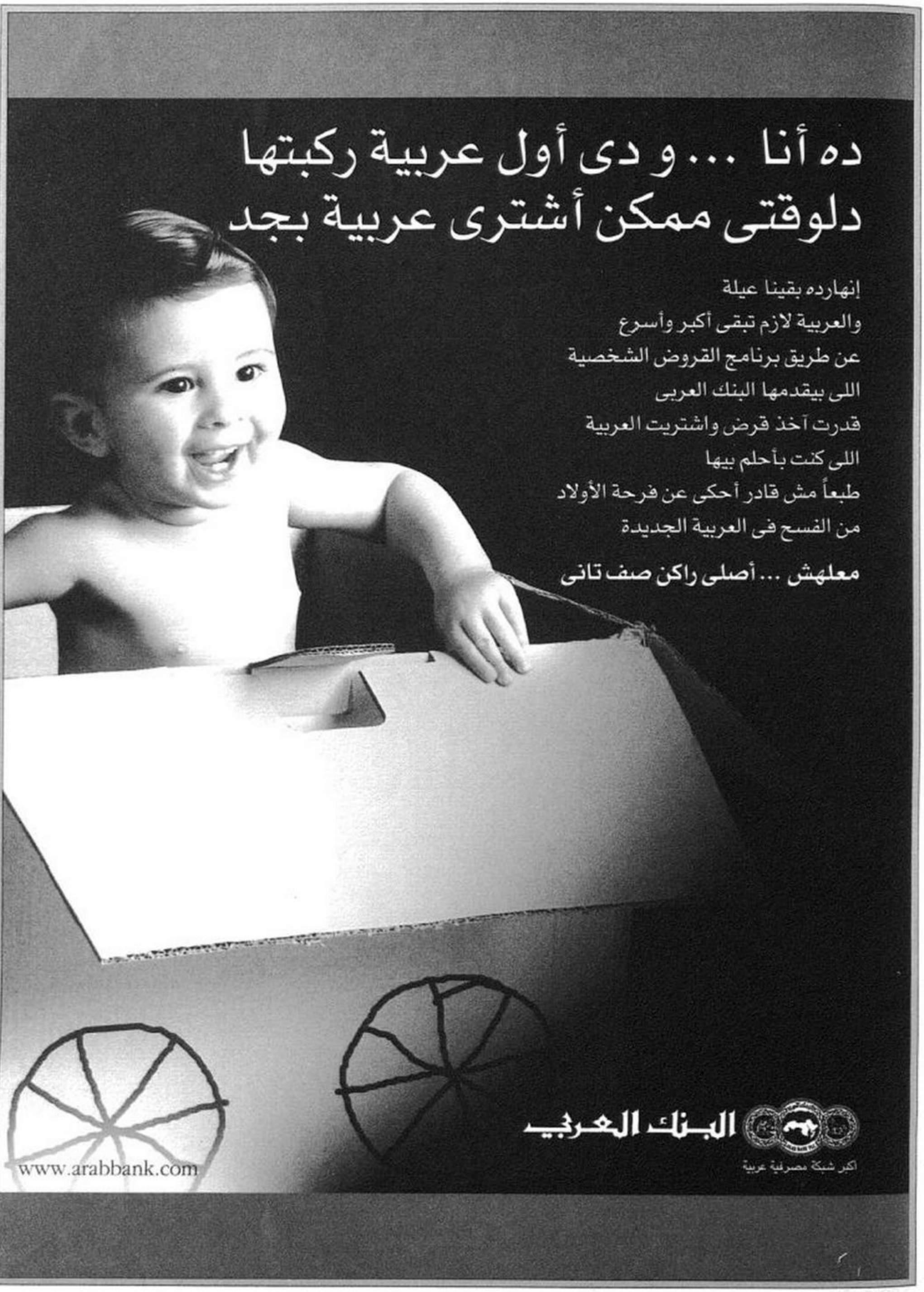
فبرغم كل التقدم العلمى الذى تحقق فى توفير الغذاء وضمان شروطه الصحية التى تكفل تجنب الأوبئة والأمراض الناجمة عن مصادر الغذاء المختلفة حيوانية أو نباتية، طبيعية أو صناعية.. إلا أن انفجار «مرض جنون البقر» على نطاق واسع فى معظم الدول الأوروبية، والفزع الذى أصاب شعوبها نتيجة انتقال هذا المرض من تناول لحوم الأبقار إلى الإنسان.. وهو مرض غامض لا تعرف أسبابه، وينتهى إلى إصابة أعز ما يملك الإنسان العاقل وهو مخه الذى يتحول إلى جسم إسفنجى هلامى.. أثبت أن كل الاحتياطات والذرائع التى تتخذها الدول الغنية المتقدمة، لا تحصن الإنسان من أخطار تهبط عليه من السماء أو تخرج له من باطن الأرض.

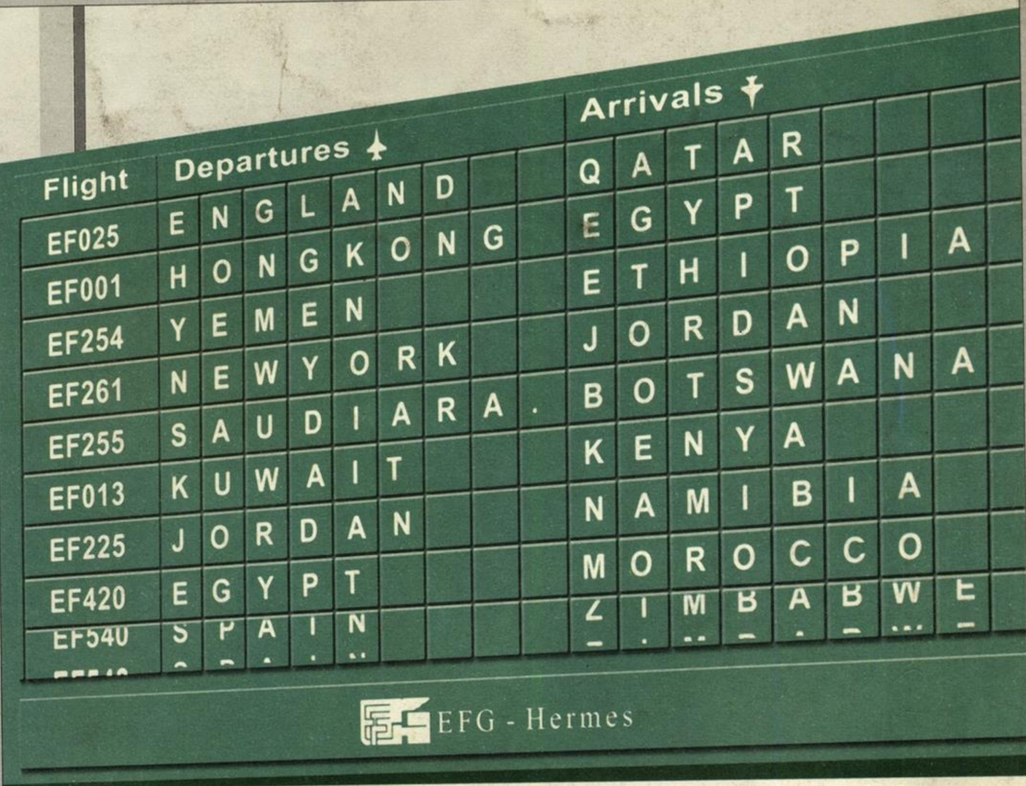
وربما استطاعت الدول الغنية المتقدمة أن تحمى نفسها وتوقف انتشار المرض، ولكن الخطر الحقيقى هو ذلك الذى يهدد شعوبًا نامية تعتمد فى طعامها وغذائها على الأسواق الأوروبية.. وهو خطر قد لا تتكشف أبعاده فى بلادنا إلا فى أعوام قادمة.

أما الفضيحة الثانية التى أسدل العام المنصرم أستاره عليها وهو يودع آخر أيامه، فقد كانت فى مرض «الجنون السياسى» الذى أصاب الديمقراطية الأمريكية.. فتحولت الانتخابات الرياسية فيها إلى «سيرك» سياسى وقضائى وإعلامى، عجز عباقرة الديمقراطية وحماتها فى العالم عن وضع نهاية مشرفة له ودخلت الولايات المتحدة الأمريكية، بجلالة قدرها وقدراتها، فى دوامة من الاتهامات بالتزوير والتضليل والدعاوى القضائية المتبادلة بين مرشحى الرياسة، أخرت تحديد اسم الرئيس الأمريكى المنتخب حتى اللحظات الأخيرة. وظهر أن للديمقراطية عيوبًا جسيمة حتى فى أكثر التجارب الإنسانية نضجًا واكتمالاً، وأن إرادة الناخب ليست وحدها هى التى تقرر من يحكم، بل دخلت عوامل المسرحة وفنون الإبهار وأساليب الإخراج السياسى فى صنع نجوم السياسة ونجوم السينما. وانفتحت بذلك أبواب للخداع والتدليس الإلكترونى جديدة تمامًا.

وهكذا من مرض «جنون البقر» إلى مرض «الجنون السياسى»، ومن أناشيد السلام إلى مواعيد الحرب، ومن عولمة الديمقراطية إلى صعلكة الديمقراطية، ومن ثورة الجينات إلى ثورة الاتصالات، لا يبقى لإنسان القرن الواحد والعشرين غير الانغماس فى فنون الإيهام الأدبى والتصويرى والسينمائى، أو فى مباريات الكرة والدورات الأوليمبية، بحثًا عن قدر من السكينة الداخلية والتوازن النفسى.. كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

سلامة أحمد سلامة


ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com


Flight
Departures
Arrivals
EF025 ENGLAND
EF001 HONGKONG
EF254 YEMEN
EF261 NEWYORK
EF255 SAUDIARA.
EF013 KUWAIT
EF225 JORDAN
EF420 EGYPT
EF540 SPAIN
QATAR
EGYPT
ETHIOPIA
JORDAN
BOTSWANA
KENYA
NAMIBIA
MOROCCO
ZIMBABWE
EFG - Hermes